أحمد الشيباني

القومية العربية

في النظرية والتطبيق



دار الكاتب العربي

كتب للمؤلف :

١ ـ الاهداف الاستعمارية وراء مشروع مارشال
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٢ ـ غانيـة وقديس
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٣ ـ الاسس الثورية للقومية العربية
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٤ ـ دراسات في العقائد
منشورات دار الكاتب العربي في بيروت

٥ ـ القومية العربية في النظرية والتطبيق
منشورات دار الكاتب العربي في بيروت

قيد الوضـع :

جيل التشكل الكاذب في مجلدين

ترجمات للمؤلف

١ ــ الديموقراطية الجديدة لماوتسي تونغ
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٢ ــ الاسس الستراتيجية للحرب الثورية الصينية لماوتسي تونغ
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٣ ــ تدهور الحضارة الغربية لاسوالد شبنغلر ، صدر في ثلاثة
مجلدات عن دار مكتبة الحياة في بيروت

٤ ــ نقد العقل المجرد لعمانوئيل كنت :
صدرت الترجمة الكاملة عن دار اليقظة العربية في بيروت

٥ ــ نقد العقل العملي لعمانوئيل كنت
صدرت الترجمة الكاملة عن دار اليقظة العربية في بيروت

٦ ــ قصة الفلسفة لول ديورانت
صدرت الترجمة الكاملة عن المكتبة الاهلية في بيروت

روايات مترجمة :

١ ــ المغترب لمارجوري رولنجز
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٢ ــ الارض لاليزابيت ماديكوس
منشورات دار اليقظة العربية في دمشق

٣ ــ المدمرة لفوستر
منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت

٤ ــ ايام وليال (ارض الدماء) لقسطنطين سيمنوف
منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت

ترجمة قيد الطبع :

ملخص تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، لادوارد غبيون
يصدر قريبا في مجلدين عن المكتبة الاهلية في بيروت

أحمد الشيباني

القومية العربية

في النظرية والتطبيق

دار الكاتب العربي

مُقـــدّمَة

بعد مرير تجاريب وأليم معاناة وطويل جولات في ميادين الفكر الاوروبي وفلسفاته وعقائده ومعتقداته ، وجدتني أعود من جميع تلك الاسفار الشاقة نافرا لا بل نادما ومرددا مع سليمان الحكيم :

« باطل الاباطيل الكل باطل »

ففي مطلع شبابي وجدتني انساق منجرفا مع تيار اليسار، او بالاحرى تيار الماركسية بكل ما فيها من مادية جدلية هرقليطية ، ولوكرتسية وهيغلية ، وانجلزية ، ومن ثم لينينية وستالينية ، ولكن بعد عميق درس للشيوعية والاشتراكيات بمختلف اسمائها، والرأسمالية بمختلف اشكالها، وبعد دقيق مراقبة لسلوك اتباعها في النظرية والممارسة والتطبيق ، وجدتني أرثي لا بل اتفجع للانسان الذي يفلسف رغباته الشخصية في التسلط على أخيه الانسان ، ويغطيها باقنعة العقائد والنظريات والمبادىء .

لقد افنيت معظم العشرينيات وما يزيد على أكثر من نصف الثلاثينيات من عمري وأنا ادرس كل حرف خطه ماركس وسطره انجلز وفلسفه فيورباخ ، وارساه لينين وشيده ستالين كيانا ونظاما .

ولم الجأ قط في هذا الى نشرات او منشورات الاحزاب الشيوعية،

بل لجأت فقط الى مؤلفات اولئك الرئيسية ، الى رأس المال ، وديالكتيك الطبيعة، وتطور الرأسمالية في روسيا ، وذلك بالاضافة الى العديد من الكتيبات التفسيرية لستالين ، ولكن جميع تلك العقائد والاجتهادات لم تستطع ابدا ان تكتسب قناعتي الضميرية ولا اطمئناني العقلاني ، اذ انها جميعا كانت تصطدم بتلك العقبة الكؤود ، عقبة العلة الاولى ، عقبة علة ذاتها ، عقبة الله ، ولذلك حاولت تخطيها بانكار وجوده ، والجحود به ، والاستعاضة عنه بتلك الغيمة السديمية وبالنظرية الداروينية ، وبنظرية كنت ـ لابلاس في نشوء الكون وتشكله .

ولكن هذه المحاولة كانت في نظري أشد منافاة لا للضمير فقط ، بل للعقل ايضا ، من الايمان باللهكخالق لهذا الكونوناظم لتلك الاكوان .

لقد كنت في جميع دراساتي تلك أسائل نفسي بالحاح ولجاجة عما اذا كان موقفي السلبي ذاك من المادية الاوروبية بكل اشكالها ، من رأسمالية واشتراكية ، مادية تطورية ، وأخرى ثورية ، ناجما عن المكابرة أو عن البداوة ، (فأنا بدوي) ، أو عن ترسبات سيكولوجية اقطاعية او برجوازية كما يقول الشيوعيون من مواطنينا ، أو عن مصلحة اقتصادية خاصة ، وانا العامل الكادح عقلا وفكرا ، لكن وجداني المنفعل وضميري ، وضميري المتفاعل وعقلي ، كانا أبدا ودوما يجيبانني بان علة رفضي الاساسية للفلسفة الاوروبية بشتى اشكالها ، (والفلسفة الاوروبية كما لا شك يعرف القارىء هي فلسفة مادية مظهرا وجوهرا) ، كون تلك الفلسفة ترى في الكائن البشري كائنا لا يختلف اطلاقا ولا في أي وجه من الوجوه ، عن أحط انواع الحيوان في الدوافع الى وجوده وفي الدوافع الى عيشه وبقائه تلك الفترة المحددة له من الاجل ، ولا يختلف عنه في زخوم حياته ، اذ ان جميع هذه الزخوم نابع من غريزة حب البقاء . وزبدة القول ان الفلسفة الاوروبية ، (والماركسية

هي ذروتها) ، قد اختزلت الانسان الى معدة وآلة جنس فقط •

اذن فوجودنا باكمله هو عبث باطل ، اذ انه ، وفقا للفلسفة الاوروبية ، لا توجد هناك اية غاية اطلاقا من كون الانسان انسانا ، فهو كما قال فولتير كائن محكوم عليه بالعيش حتى أجل معين •

ان علة العلل في تلك الفلسفة ، كونها ترسي الاخلاق البشرية على أسس مصلحية ، او بالاحرى على النفعية بكل ما لهذه من مفاهيم ، ونحن اذا ما امعنا النظر في أخلاق اولئك الذين جرفتهم سيول المادية الاوروبية نجد الواقع يطالعنا بافجع حقيقة ، الا وهي ان تلك الفلسفة لم تجرف أشخاصهم فقط بل انها نسفت اخلاقهم العربية نسفا ودمرتها تدميرا •

فاولئك من اخواننا الذين أمسوا فرائس تلك النظريات ، قد ادخلوا على العالم العربي مفاهيم تتنافى جوهرا ومظهرا وابسط مفاهيم العرب والعروبة ، لابل ان الفطرة العربية تنفر منها اشد نفور ، فمتى عرف العرب في عهودهم العربية ، لا الشعوبية ، السحل والسحق حتى العظم وتقليع الاظافر ونفخ البطون وانتهاك المحرمات والاغتيالات والاقبية والهزات الكهربائية والحمامات الباردة وترويع الاطفال والنساء ، وشتم آبائهم وازواجهن على مرأى منهم ومنهن ؟

لقد تساءلت مرارا لوكلف أعدى من للعرب من اعداء في وضع وتنفيذ مخطط يرمي الى اذلال العرب بكل ما لكلمة اذلال من معنى ، فهل يمكن لعبقريته الشيطانية ان تتفتق عن مخطط أفظع من ذاك وابشع؟

يقولون ان عهد الاستعمار قد انتهى ، لكن بعض البلدان العربية تعاني اليوم استعبادا افظع من الاستعمار بكل اسلوب من اساليبه لقد صدق شلايمخر حينما قال بان الانسانية بلا دين وحشية • والحق

انني أمسيت شديد الايمان بان الوحش ليستيقظ ويصول مفترسا ويجول قتالا عندما يغفو الله في الانسان ، او يسهو عنه . والويل كل الويل للبشرية عندما يسهو الله عنها او تسهو هي عنه .

ولكن من يكون هذا الجيل الذي أطل على العالم العربي عقب نكبة فلسطين ، والذي انزل بالانسان العربي اشد الكوارث والنكبات؟

انني لا استطيع ان أطلق على هذا الجيل سوى الاسم الذي اطلقه اسوالد شبنغلر ، واعني بهذا « جيل التشكل الكاذب » ، فهذا الجيل بالرغم من ادعائه للعروبة ليلا ونهارا لكنه ليس بالعربي اطلاقا ، انه تشكل كاذب من الحضارة الاوروبية وفلسفتها ، وسأترك هنا لشبنغلر ان يقدم إلى القارىء الكريم تعريفه الموفق للتشكل الكاذب .

يقول شبنغلر في الصفحة ٩ من الجزء الثالث من كتابه « تدهور الحضارة الغربية » .

« ترقد داخل طبقة احدى الصخور بلورات من معدن . وتحدث في الصخرة شقوق وشدوخ يتسرب اليها الماء ، ويجرف تدريجيا البلورات خارج مراقدها ، حيث تخلف ، وفي الوقت المناسب ، وراءها تخاريب داخل الصخرة . ثم تحدث انفجارات بركانية تفجر الجبل فتتدفق الكتل المصهورة داخل الصخرة ، وتتصلب وتتبلور بدورها ، لكن هذه لا تكون حرة في تبلورها باشكالها الخاصة ، اذ يتوجب عليها ان تملأ التخاريب الموجودة داخل الصخرة . وهكذا تنشأ اشكال مشوهة ، وتتوضع بلورات يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي ، وتبرز حجارة من نوع معين ، لكنها تتبدى في شكل حجارة من نوع آخر غير نوعها. وهذهالظاهرة يسميها علماء التعدين بالتشكل الكاذب.

لا اريد ان اعلق بكلمة واحدة على ما اورده شبنغلر آنفا ، فكلامه واضح حتى الصراحة ، ونحن اذا ما تأملنا في جميع ما انتجه هذا الجيل العربي الجديد في ميادين الفكر والفن والادب والسياسة ، نجده تشكل كاذبا وبعيدا كل البعد عن العروبة واصالتها ٠

لذلك تراني اليوم وطيد القناعة بان امتنا العربية تعيش في حقبة شعوبية جديدة ، حقبة يحاول فيها الشعوبيون جاهدين للقضاء على امتي العربية وعلى تقاليدها الانسانية السامية ، هذه التقاليد التي جعلت امتي فيما مضى خير أمة أخرجت للناس ٠

والحق ان العربي ليشعر اليوم بأنه الغريب الغريب في بعض ديار العرب ، وليرى ان جميع العقبات تعترض طريقه حتى الى المجاهرة بالحقيقة ، وليؤمن بانه لم تعد في جيلنا هذا من حقيقة موضوعية يطلبها المرء نظرا لكونها مجرد حقيقة ، بل انما يرى ان جميع ما يقررونه من حقائق انما هي رغبات ذاتية مطلقة في ذاتها ، وهذا هو السبب الاساسي وراء اختلال جميع موازين الفضائل والقيم في عالمنا العربي ٠

لقد أمسى من المتوجب على الحقيقة ان تخدم غرضا ذاتيا او ان تفي بمأرب شخصي ، والا فانها لن تكون حقيقة ولن تتصف بأية صفة من صفاتها ٠ الى هذا الدرك هبط بنا هذا الجيل الجديد ، ولذلك وجدتني في هذه الحقبة من حياتي شديد الحنين الى العودة الى بداوتي الى صحرائي الى عشيرتي ، حيث أرى الحقيقة تمارس فيها كل دقيقة من نهار وليل ، حبا بالحق والحقيقة ، وتضحية بالاهواء الذاتية والاغراض الشخصية ٠

لقد فتشت طويلا عند ذاك الجيل المدعو بالتقدمي عن الاخلاق

العربية الاصيلة ، تلك الاخلاق الانسانية التي لا تخون ولا تغدر ولا تفتري ولا تنصب الحبائل للضعفاء ، ولا تعتبر الانسان مجرد وسيلة الى غاية ، بل تراه الغاية كل الغاية ، لكنني لم أعثر لديه على أية قاعدة من قواعدها ، ولا حتى على أية بسمة من بسماتها ، بل ان كل ما عثرت عليه كان تآمر وغدرا وخروجا على أبسط مفاهيم أخلاق امتي العربية.

غير أنني ما كدت اعود الى بداوتي حتى وجدت الاخلاق العربية تتبدى في أجمل صورها واوضح معانيها في أبسط ابناء البادية ، فاذا كنت ترى ايها القارىء في عودتي هذه هي الرجعية، فانا اكثر من رجعي انني بدوي فشل كل الفشل في أن يجد لدى التقدميين أي تثبيت لقواعد اخلاق امتي .

لذلك فانني أرفض كل الرفض ان أقايض على الاخلاق العربية بالرغيف ، واربأ بعروبتي ان يكون الرغيف منطلقا الى نخوتها العربية وشهامتها التقليدية .

لقد وجدت التقدميين يتحدثون الى معدتي ، لكن أصوات اجدادي، ذوي السيوف العراض ، تخاطب ضميري وتتوجه الى وجدانك ، وترى في حياتك العربية تأكيدا للفضيلة اذا مارستها كعربي ينبع عقله من حب العطاء لا من حب الانتفاع ، وذلك لان العربي لا يستطيع الا ان يعطي ، لانه لا يستطيع الا ان يعف عند المغنم . وبئس حياة لا تكون كلها نخوة وعطاء .

لذلك علينا ان نعود سريعا الى تراثنا ، علينا ان ننجو سريعا من هذه الدوامات الغربية التي اغرقتنا الفلسفة الاوروبية في لججها ، علينا ان نستعيد سريعا ايماننا بالله ، وايماننا بما افاء به الله على العرب من رسالة .

ان كل كلمة واردة في هذا الكتاب ، لصادرة عن أقوى مالي من ايمان ، وانا لم اسطرها الا بعد ان اختمرت طويلا في ضميري وعقلي ، وان مهمة الكاتب هي ان يقول الحق كل الحق ، وليست مهمته ان يحمل القارىء على تصديقه، غير أنني لواثق من ان الكلمات الصادرة اخلاصا للحق والحقيقة ، لابد من ان تترك ولو بعضا من صدى في اذهان من يبحثون عن الحق والحقيقة •

واخيرا اعتذر عما قد يرد من قسوة في العرض ، فليست البكاءة كالثكلى •

بيروت في ٢ — ٢ — ١٩٦٦

أحمد الشيباني

القومية العربية في النظرية والتطبيق

الفصل الأول

الارهاصات الأولى

١ – مدخل .

شهد مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولادة الحركات القومية داخل الامبراطورية العثمانية . وكانت الشعوب المسيحية الرازحة تحت النير التركي ، كالبلغار والارمن واليونان ، هي أول من أضرم جذوة القومية ونفخ في بوقها . وهذا الامر ليس بغريب او مستهجن ، فالامبراطورية العثمانية كانت من الوجهة الحقوقية دولة لاهوتية (اسلامية) يجمع رئيسها في شخصه السلطتين الروحية والزمنية ، اذ كان الخليفة والسلطان معا . لذلك لم يكن هناك من رابط ديني أو وفاق مذهبي يشدان الشعوب المسيحية الى الامبراطورية العثمانية ويحولان دون ارتماء هذه الشعوب في تيار القومية والاندفاع على سبلها ، وهذا مما أرغم السلطات التركية على الاستعاضة عن التوافق المذهبي والوفاق الوجداني بين شعوب أمبراطوريتها ، بالقوة المادية العارية ، في شتى اشكالها من قمع وتنكيل واخضاع ، بغية الحفاظ على وحدة الامبراطورية العثمانية . ولما كان من طبيعة القوة أن تخضع لا ان تقنع ، ولما كان الاخضاع المجرد لا يحل المشكلة وانما يزيدها تعقيدا والحاحا ، ويزيد في ضراوة الصراع بين الاضداد ، لذلك تلاحقت الانفجارات القومية في مختلف البلدان الاوروبية الخاضعة للسيطرة التركية . ونحن اذا ما أضفنا الى عامل انعدام التوافق

المذهبي بين شعوب الامبراطورية العثمانية ، عاملا جغرافيا ، ألا وهو وقوع مواطن الشعوب المسيحية العثمانية في القارة الاوروبية ، وتأثر هذه الشعوب بالحضارة المادية الغربية ذات الطابع والجوهر القوميين أكثر من غيرها من الشعوب العثمانية الاسلامية في كل من آسيا وأفريقيا ، ثم أضفنا الى هذين العاملين (الروحي والجغرافي) عوامل روح العصر التي كانت تتحكم في الحضارة الاوروبية وتدفع بشعوبها في دروب الاستعمار ، وتجعلها تحملق في الممتلكات العثمانية باعين نهمة جشعة ، وتتحين الفرص للانقضاض عليها ، وترى في انعدام التوافق المذهبي بين عثمانيي أوروبا وعثمانيي أفريقيا وآسيا ، وفي الوعي القومي المتزايد بين تلك الشعوب منافذ فسيحة رحبة الى غاياتها ، عندئذ ندرك كل الاسباب التي حدت بالدول الاستعمارية الكبرى الى تشجيع كل حركة قومية في البلدان الاوروبية العثمانية وتوجيهها وجهة انفصالية بغية اضعاف الامبراطورية العثمانية ، كي تتمكن فيما بعد من الانقضاض على الاقطار العربية العثمانية في كل من آسيا وأفريقيا . ولنا في احتلال مصر وليبيا ومن ثم في تطبيق معاهدة سايكس بيكو ، اقوى الادلة على ما ذهبت اليه وافترضته . أضف الى ذلك أن الفلسفة التي كانت ترسم خطط العصر ، وتشق للحضارة سبلها ، كانت فلسفة مادية في شكليها الرأسمالي والاشتراكي ، ومثل هذه الفلسفة ترى في القومية ، كعقيدة ومذهب ، السبيل الاوحد الى التحرر والاستقلال فالتطور والتقدم والارتقاء . والحق ان الامة العربية بكل شعوبها ، وفي مختلف أقطارها بقيت حتى آخر لحظة ، لحظة انفجار الثورة العربية ، تجاهد بكل ما أوتيت من قوة للحفاظ على العثمانية ، او بالاحرى الاسلام ، كرابط يشدها الى الامة التركية ويصون الوحدة بينهما . لذلك كان العرب هم أول من رحب بالمصلح الثوري الكبير السيد جمال الدين الافغاني وعملوا على نشر دعوته القائلة بقيام اتحاد

بين جميع الدول الاسلامية بما فيها ايران وانشاء أمبراطورية اسلامية تعتمد المساواة بين كل شعوبها ، وتقف في وجه الغرب مرفوعة الرأس مرهوبة الجانب ، تتكسر على أسوارها أمواج الامتيازات الاجنبية ، رأسها خليفة مسلم صالح يقتفي أثر الخلفاء الراشدين ويعمل على الاخذ من الحضارة الاوروبية بما يتفق وروح الاسلام ، ويسعى جاهدا للحفاظ على توازن فعال بين الروح والمادة • وقد لاقت مبادىء السيد جمال الدين الافغاني ترحيبا حارا من مختلف طبقات الامة العربية بالرغم من ان المصلح الكبير كان دائما يصرح ، جهارا نهارا ، أنه لا يولي مشكلة عنصرية الخليفة كبير أهمية ، ولا يكترث أكان الخليفة تركيا أم عربيا أم ايرانيا • ومع أن عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ — ١٩٠٣) طلب بعبارة صريحة بأن يكون الخليفة عربي العنصر ، لكن المتعمق في دراسة كتابه « أم القرى » يلمس ان الكواكبي كان همه الاكبر يتركز على تحقق سيادة الروح الاسلامية في الامبراطورية العثمانية •• وقد ورد في كتاب « رامسور [1] » في معرض بحثه في الحركات القومية داخل الامبراطورية العثمانية ما ترجمته بالحرف الواحد : « اما فيما يتعلق بالعرب ، فان الجمعية الوحيدة التي كانت ذات نشاط يستحق الذكر هي الجمعية المعروفة باسم « المنظمة الاصلاحية التركية السورية » التي كان يرأسها الامير أمين ارسلان ، ولم يكن اعضاء هذه الجمعية ذوي ميول أو نزعات قومية ، وكان كل ما لهم من أهداف يجتمع في الرغبة في الاصلاح ، أضف الى ذلك ، أن اخلاص خليل غانم (سآتي على ذكره فيما بعد : المؤلف) المسيحي السوري لجمعية تركيا الفتاة كان فوق الشبهات ولا يقبل أي نقاش أو جدل • »

---

(1) E.E. RAMSAUR : The Young TURKS and Prelude to Revolution P P : 63-64

ولنتحسس بالاخلاص العرم المتدفق من فم المرحوم أحمد طبارة عقب توقيع الاتفاق بين العرب وجمعية الاتحاد والترقي في بازيس ! لقد قال رحمه الله :

« لقد سبق لنا أن أعلنا بملء أفواهنا ، واننا لنعلن هذا اليوم ايضا، وسنعلن ابدا ، أننا ولدنا وترعرعنا في ظلال الهلال العثماني ، واننا نريد أن نعيش وأن نستشهد في سبيل نصرة هذا الهلال . وعندما اتكلم بصيغة الجمع ، فانني اعني العرب ، العرب جميعا ، المسلمين منهم وغير المسلمين ، ونحن غير مستعدين للتنازل او التخلي عن دولتنا المجيدة ، وسنفتديها بالارواح والمهج ، ان جل مالنا من أهداف تجتمع في رغبتنا في العيش في دولة عثمانية وفي ظل نظام من المساواة العادلة والمشاركة الامينة في الحكم والادارة . »

ولنتمعن في المادتين الاولى والثانية من ميثاق جمعية العهد العربية، وهي اول جمعية عسكرية عربية ذات أهداف سياسية :

المادة الاولى :

العهد جمعية سياسية سرية تأسست في اسطنبول هدفها تحقيق الاستقلال الداخلي للبلاد العربية ، شريطة ان تبقى هذه البلاد مرتبطة بالحكومة العثمانية في اسطنبول ارتباطا مشابها للارتباط القائم حالياً بين هنغاريا والنمسا .

المادة الثانية :

ترى جمعية العهد الحفاظ على الخلافة كوديعة مقدسة بين أيدي العائلة العثمانية [1]

(1) The Arab Federalists of The Ottoman Empire : Dr Hassan Saab

أما جمعية الفتاة العربية ، فقد اتخـذت في شهر آب عام ١٩١٤ ، وقبيل دخول تركيا الحرب الى جانب النمسا والمانيا ، قرارا هذه هـي ترجمته :

ان الجمعية ترى نفسها في حالة تحقق المشروعات الاوروبيـة ، مرتبطة الى تركيا لمناصرتها على دفع كل خطر أجنبي يتهددها ، أيا كان شكل هذا الخطر او نوعه [1] .»

هذه كانت حال العرب عندما استكملت معظـم شعوب الاقطار الاوروبية العثمانية مقوماتها القومية وحققت تحررها السياسي . ولا عجب اذا ما وقف العرب هـذا الموقف في عصر استيقظت فيـه الروح القومية في معظم الاقطار الاسيوية . فلقد كان العرب يدركون غريزيا ان رسالتهم الحضاريـــة الى الانسانية تتمثل في الاسلام ، ويؤمنون ايمانا وطيدا بانه اذا ما كان للعرب من دور فاعل في حل المشاكل الناشئة عن اغراق الحضارة الاوروبيـة في ايمانها بالماديـة ، من ميكانيكية وجدلية وغيرهما ، فانهم لن يستطيعوا ان يقوموا بهذا الدور ، الا اذا استوحوا الاسلام في كل نشاطاتهم الفكرية والتطبيقية، وذلك لقناعتهم الوطيدة بان الاسلام محاولـــة جدية للتوفيق بـين الانسان كروح والانسان كجسد ، وانه قوة جبارة في دفع موكب الانسانية نحو انشاء الدولة العالمية ، هذه الدولة التي غدت في عصرنا هـذا هـدف كبار المفكرين وأمنية العاملين المخلصين في حقل الانسانية . وعلينا ألا ننسى ان الاسلام الذي كان لـه الفضل كل الفضل في ايقاظ العرب كأمة ، كان في الوقت نفسه اول تنظيم أممي عرفه التاريخ . لذلك كانت العاطفة

(1) The Arab Federalists of The Ottoman Empire : Dr Hassan Saab

الاسلامية تمد في حبال صبر العرب على طغيان الاتراك ومظالمهم، وكشأن كل كريم معطاء ، كان العرب يؤملون بان يرعوي الاتراك عن غيهم ويعودوا الى جادة الحق وسبيل الرشد والصواب . لكن الاتراك بقوا في غيهم سادرين ، فالنظام الاجتماعي كان يزداد فسادا يوما بعد آخر ، والخليفة أمسى قيصر ، وغدت الطبقة الاجتماعية التي تسنده منتنة منحلة وأخذت المركزية في الادارة والحكم تضيق من حلقاتها وانطلقت الحركة القومية التركية لتغدو قومية طورانية عدوانية ، يؤمن ابطالها بالعنصرية الضيقة المستأثرة ويدينون بالداروينية ، (نسبة لداروين) دون الاسلام ، كنظرة في نشوء الانسان وارتقائه وكان غباؤهم يمنعهم من التمييز بين مطالب العرب الاصلاحية وبين الانتفاضات القومية الاوروبية العثمانية ، أما البكتاشية [1] ، فكانت تعمل في الاسلام هدما وتخريبا . كل هذه الامور منفردة ومجتمعة ارغمت الامة العربية ارغاما على سلوك الطريق القومي ، ومن ثم على الثورة على تركيا وأخيراً على الانفصال عن الامة التركية انفصالا نهائيا . لقد اضطرت الأمة العربية أخيراً للانسجام وروح العصر ، عصر البعث القومي في آسيا ، وأجبرت على فتح أبواب حضارتها لأبناء العصر ، فدخل روبرت ملنس ، وآدم

---

(١) تعرف الانسكلوبيديا الاسلامية البكتاشية بما يلي :

البكتاشية فرقة من المتصوفة ، اسسها رجل يدعى بكتاش ، يؤمن اتباعها باقانيم ثلاثة : الله ، محمد ، علي ، كما ويؤمنون بتناسخ الارواح . ومن طقوسهم تناول ما هو شبيه « بالعشاء الرباني » وهو مؤلف من خبز وجبن ونبيذ . وهم يعترفون بخطاياهم لرؤسائهم الملقبين بالباباوات . اما امامهم فيدعى بالسيد الاكبر ، والمريد منهم يرتدي ثوبا أبيض وعمامة بيضاء ، وهناك قول اخر ، بانهم يؤمنون بالائمة الاثني عشر ويقدسون الامام جعفر الصادق .

من ابرز القادة القوميين الاتراك المنتمين الى البكتاشية طلعت باشا وجاويد بك كما وان موسى كاظم شيخ الاسلام في اسطنبول كان احد اعضاء هذه الفرقة ــ المؤلف ــ

سمث ، وكارل ماركس بمذاهبهم رحابها ، وأمسى قانون « بالخبز وحده يحيا الانسان » شرعة لها ودستوراً •

ب ـ فجر اليقظة العربية

قلت ان الأمة العربية قد اضطرت للانسجام وروح العصر ، روح البعث القومي ، ولسلوك الطريق ذاتها التي سلكتها الشعوب الاوروبية لتجسيد الدولة القومية • ولقد كان المسيحيون العرب ، وخاصة اللبنانيين منهم ، حقا وواقعا ، رواد القومية العربية في دنيا العرب • لقد أدرك اخواننا المسيحيون ان الطريق الى التحرر والاستقلال ومن ثم الى الاسهام في بناء الحضارة الانسانية وصيانتها انما يبدأ اول ما يبدأ في السعي الى ايقاظ العرب كأمة ، أمة تعيد جمع شتاتها وتنظم بيتها لتنطلق من جديد برسالة الاخاء والمحبة الى الشعوب والأمم الأخرى • فوقف عام ١٨٥٩ المرحوم بطرس البستاني (١٨١٩ ـ١٨٨٣) في مدينة بيروت محاضراً في الأدب العربي وانحنى باللائمة على العرب مقارنا بين ماضيهم المشرق وحاضرهم القاتم الأسود • وكان بطرس البستاني هو أول من استعمل اصطلاح « أبناء العرب » • ومع ان هذا الرائد العظيم حصر كل نشاطه القومي في ميدان الأدب العربي ، الذي أراد له أن يكون الرابط الأساسي بين ابناء الشعوب العربية ، غير أن الأمة اذا ما عزمت على النهوض فان خطاها في التقدم لا تجول فحسب في ميدان الادب ، وانما تجول حتما في ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة • لذلك لم تكد تمضي بضع سنوات حتى أقدم عام ١٨٧٥ خمسة من شباب العرب المسيحيين اللبنانيين على تأسيس اول حركة سياسة سرية في تاريخ البعث القومي • وقد لاقت هذه الحركة السرية نجاحا منقطع النظير فأنشأت لها فروعا في كل من طرابلس ودمشق وصيدا • وبدأت نشاطها السياسي في توزيع المناشير وكان كتاب تلك

المنشورات يتعمدون اقتراف أخطاء لغوية بغية ستر البيئة التي ينتمون اليها • وكانت مواضيع معظم المناشير التي صدرت عن تلك الحركة تطالب الأمة العربية بضرورة الثورة على النظام التركي وتذكر العرب بأمجادهم السالفة • ولعل أهم منشور أصدرته تلك الحركة كان المنشور الذي وزع في ٣١ كانون الثاني عام ١٨٨٠ • أما أهم ما ورد في ذلك المنشور من نقاط فهي :

١ ـ اتهام السلطان باغتصاب حقوق العرب في الخلافة ،

٢ ـ انحراف السلطان العثماني عن قواعد الشريعة الاسلامية •

من ثم يستطرد المنشور فيقول :

عقب ان تداولنا مع اخواننا المنتشرين في طول البلاد السورية وعرضها اتفقنا على ضرورة الصراع من أجل تحقيق ما يأتي :

١ ـ منح سوريا استقلالا تاما وقيام اتحاد بينها وبين لبنان •

٢ ـ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد •

٣ ـ الغاء الرقابة على الكتب والصحف واطلاق الحرية للفرد للتعبير عن رأيه •

٤ ـ حصر خدمة المجندين العرب في البلاد العربية •

وقد كان الدكتور فارس نمر (المسيحي اللبناني) من أبرز اعضاء الحركة ، غير ان سلطات اسطنبول التي كانت تنظر بهلع ووجل الى هذه الحركة السرية اعتقدت ان مدحت باشا « أبا الدستور » هو من وراء هذه الحركة وانه ينوي الانفصال بسوريا عن البلاد العثمانية مقتفيا بذلك أثر محمد علي الكبير ، لهذا استدعى السلطان عبد الحميد مدحت باشا الى اسطنبول ، لكن الحركة ثابرت على نشاطها عقب

استدعاء مدحت باشا لفترة من الزمن تجاوزت الأعوام الأربعة •

وقد شجع المسيحيون العرب اخوانهم المسلمين العرب على الاقتداء بهم والسير معهم جنبا الى جنب في صراعهم من أجل استكمال مقوماتهم القومية ، اذ لم تكد تمضي فترة جد وجيزة على خوض المسيحيين العرب المعركة القومية حتى اندفعت جماهير الشباب العربي المسلم الى حلبة الصراع • ولقد اورد الرحالة جبرائيل تشارم في كتابه المعروف باسم « رحلة في سوريا » وفي الصفحتين ١٧١ ــ ١٧٢ وصفا لحميًا البعث القومي المتألقة في سوريا وللاخاء الصادق بين المسيحيين والمسلمين من العرب اذ قال ما ترجمته :

لقد دبت روح الاستقلال في سوريا • وقد لاحظت اثناء وجودي في بيروت ان الشباب المسلم منهمك في تنظيم الجمعيات الهادفة الى بناء المدارس والمستشفيات واجراء اصلاحات عامة وشاملة • ومن اطرف ما لاحظت في نشاطات هؤلاء الشباب تحررهم الكامل من كل شعور او نعرة طائفية •• فالجمعيات التي تنشأ تقبل المسيحيين اعضاء عاملين فيها وتسعى لتجنيد هؤلاء في عملهم القومي ، اما الاتراك فانهم مهملون من قبل هذه الجمعيات • »

كما وجاء في كتاب الكاتب الفرنسي « دنيس دي روفير » ذي العنوان « العرب الاقحاح في بلادهم » وفي الصفحتين ٢٩٤ ــ ٢٩٥ ما ترجمته :

« اينما حللت ، كنت اشعر بروح الكراهية والحقد على الاتراك • فالنازع لاطراح النير التركي يشتد ساعده يوما بعد اخر ، اضف الى ذلك ان الحركة القومية العربية الجديدة تتبدى طلائعها في الافق ، وعما قريب ستنهض امة تطالب بحقها في تقرير مصائر الاسلام • »

لم تفتقر حركة البعث القومي على سوريا فحسب ، وانما تجاوزتها

الى الحجاز ، مهد العروبة والاسلام، ايضا . فلقد وردت فقرة في تقرير للقنصل البريطاني بجدة ، ذي الرقم ٣٤١٥ــ٧٨ وتاريخ ١٠ــ٥ــ١٨٨٢ ترجمتها [١] :

« انني أعلم علم اليقين ان فكرة الحرية تنير عقول بعض الافراد حتى في مكة . وقد ترامى الى مسامعي نبأ مفاده ان هناك خطة ترمي الى دمج نجد في العراق وتنصيب منصور باشا حاكما عليهما . كما وأن هناك آخرين يعملون على توحيد مقاطعة عسير واليمن في دولة يرأسها علي بن عايد ، وعلى كل حال سأعلم عما قريب ما اذا كانت مثل هذه الخطط مجرد أوهام وأضغاث أحلام » وقد يتبادر الى ذهن القارىء السؤال التالي :

ما هو السبب الذي جعل من اخواننا المسيحيين روادا للقومية العربية ؟

قد يخال البعض ان السبب الرئيسي يكمن وراء كونهم مسيحيين في دولة اسلامية ، غير أنني اعتقد جازما بأن السبب الجوهري هو في الدرجة الاولى سبب ثقافي لا ديني ، فالمسيحيون العرب كانوا اول من أدخل أبناءهم المدارس الاجنبية من اوروبية وأميركية ، وكانت الروح الطائفية تحول دون المسلم وتثقيف أبنائه ثقافة غربية ، ولما كانت الثقافة الغربية تعتمد النهج الاستقرائي وبالتالي حرية الفكر والمناقشة ، سبيلا الى الثقافة والعلم ، لذلك كان المسيحيون العرب اسرع من اخوانهم المسلمين العرب الى اطراح الغيبيات ومواضيع ما وراء الطبيعة . لهذا فان جر المسيحيين العرب لاخوانهم المسلمين الى طريق القومية يعود اولا وأخيرا لا الى الدين المسيحي ، وانما يعود الى الثقافة الغربية

(1) The Arab Awakening : George ANTONIUS.

التي ترى في القومية مرحلة حتمية من مراحل التطور الانساني . وكلنا يعلم ان الحضارة الاوروبية المرتكزة الى العلم والمنطق قد هدمت الميتافيزيقا وجعلتها أثرا بعد عين ، وأخضعت كل شيء للعقل والعلم ، ونبذت كل عقيدة لا تخضع للاثبات الحسي الملموس وبذلك تكون قد قضت على جوهر الدين ، مسيحيا كان أم اسلاميا ، لان الدين يفترض الايمان ويرى فيه جوهرا يسمو فوق المنطق والعقل . لذلك ما كادت جماهير الشباب المسلم تقبل على المدارس الاجنبية وتنهل من الثقافة المادية الغربية حتى انتقلت مقاليد قيادة القومية العربية الى ايدي قادة جلهم من المسلمين .

مما ورد نستنتج ان الثقافة المادية الغربية كانت العامل الاساسي في يقظة القومية العربية . غير اننا وقد أمسينا اليوم في عصر نشهد فيه انحلال الحضارة الغربية وعجز الثقافة الغربية عن السيطرة على المشاكل المعقدة الناشئة عن حضارة الغرب لنتساءل ، بوصفنا قوميين عربا ندين بالانسانية عما اذا كان من الحكمة أن نندفع على السبيل ذاتها التي اندفعت عليها القوميات الاوروبية منذ عصر التنوير حتى يومنا هذا . هذه السبيل التي أفضت باوروبا الغربية أخيرا الى القلق والضياع اللذين تعاينهما شعوب الغرب اليوم ؟ ! أم أنه يتوجب علينا أن نختط لنا سبيلا جديدة لا تمكننا من تجسيد قوميتنا فحسب ، وانما تمكننا أيضا من انقاذ العالم من الضياع الذي يقاسيه . وانا لواثق من أننا لن نستطيع تحقيق هذا الهدف النبيل ما لم نستعد ايماننا بالقوة السامية التي تهيمن على هذا الكون وترسم له خط سيره .

انني اعرف ان الثقافة الغربية ثقافة منهاجية مغرقة في منهاجيتها وهي تعتمد على القاعدة القائلة « ابدأ بنفسك ثم بغيرك ! » غير أنني أرى في هذه القاعدة خطرا يحدق ، حين الممارسة ، بالامة

والانسانية معا ، وذلك اذا ما حصر القـادة او المصلحـون مناقشاتهم الضميرية ضمن اطار قومي ، اذ ان مثل هذا الامر يدفع بالامة الـى العدوان واستعباد غيرها من الامم ، فتركيز القـادة كل مجهوداتهم على اصلاح امتهم يضطرهم في النهاية الى استكمال أسباب قـوة امتهم على حساب الامم والشعوب الاخرى . وكلنا يعرف ان القوميات الاوروبية عندمـا عملت بهذه القاعدة الآنفة الذكر ، قادها طريقهـا الى العدوان والاستعمار ، لذلك أرى ان يكون منهاجنا ، نحن معشر القوميين العرب المؤمنين بالانسانية ، ينبع من المثل التالي :

« ابدأ بنفسك لتتذكر غيرك ! » فمشاكل الانسانية معضلة واحدة ، وهذه المعضلة وان كانت قابلة للتجزئة غير ان حلها الصحيح هـو حل لها بأكملها ، وهي اشبه ما تكون بعملية الكسر المركب في الحسـاب ، والطريق لحل مثل هذه العملية هو ان تفكك الكسر المركب الى كسور بسيطة ، لكن تفكيـك اياه الى هذه الكسور البسيطة لا يعني انك قد قدمت الحل الكامل للعملية ، وانما يعني انك قمت بجزء منها فقـط ، اذ ان الجواب الصحيح مرهـون بتفاعل هذه الكسور وذوبانها بعضها في بعض .

ج ــ صراع الاضداد للاتفاق ؟!

يقول المؤرخ البريطاني الشهير ، أرنولد توينبي في معرض تحليلـه لجمعية الاتحاد والترقي وأثرها على الامبراطورية العثمانية ما ترجمته :

« في الامبراطورية ذات القوميات المتعددة ، والتي تدين بالفكرة القومية الاوروبية يغدو الاتحاد والترقي هدفين متعارضين ، لذلك عندما ارغم ضغط الاحداث جمعيـة الاتحـاد والترقي على الخيـار بين الاتحاد وبين الرقي ، ضحت هذه الجمعيـة بالرقي الذي كان في متناول اليد لتحافظ على الاتحاد البعيد المنال ، لذلك لم يكن امـام الامبراطورية في ظروف كالتي ذكرت ، سوى القوة للمحافظة علـى

وحدتها . »

ان قانون « توينبي » الآنف الذكر ، صحيح كل الصحة ، في حالة ممارسة اقوى القوميات ، فـي امبراطورية ما ، سياسـة استعمارية عدوانية تتخذ من التبعية والاخضاع والمركزية الضيقة منهاجا لهـا في سلوكها ازاء القوميات الاخرى . وهنـا لا يمسي الاتحاد هو المنظم للتعاون والتعايش بين شعوب تلك الامبراطـورية ، وانما يصبح الارغام هو الناظم والقانون ، لان الاتحاد بين شعبين يفترض وجـود قناعـة وتفاهم سابقين ، فالاتحاد يقيم تعاونا وتعايشا ، أما الارغـام فيفرض سخرة وعيشا ، ونحن اذا ما نظرنا الى الاتحاد السوفياتي ، نرى ان هذه الدولة تتألف من العديد من القوميات ذات المميزات والخصائص القومية البارزة ، ومع هذا ، فان الاتحاد والترقي في تلك الـدولة لم يصبحا أبدا هدفين متعارضين ، وانما أصبحا عنصرين متكاملين ، يتمم أحدهما الآخر ، وذلك لان المذهب الشيوعي يفترض المساواة التامة بين جميع القوميات داخل الاتحاد السوفياتي ، كما وان الدستور السوفياتي يمنح كل دولة نظاما لا مركزيا يكاد يكون مطلقا في لامركزيته . ولقـد أدركت الامة العربية التي أرادت ان تحافظ على وحدة الامبراطوريـة العثمانية ضرورة بقاء الاتحاد بين القوميات داخل الامبراطورية العثمانية وأرادت في كل مناسبة من المناسبات ان تفرض الاسلام نصا وروحـا على الامبراطورية لعلمها ان كل أمبراطورية ذات قوميات متعددة هي بمسيس الحاجة الى مذهب يتسامى فوق القوميات ليقيم تعاونا أخويـا بينها . ونحن اذا ما تعمقنا في دراستنا لشتى الجمعيات السياسيـة العربية نرى ان جميع هذه الجمعيات كانت ترغب رغبة صادقة في الحفاظ على الاتحاد بين مختلف الشعوب العثمانية ، حتى المسيحية منها ، وكانت ترى في اللامركزية الواسعة واحترام خصائص كل قومية ومميزاتهـا ، كاللغة والتقاليد والعادات ، وسيلتين فعالتين لتحقيق غاياتهـا ، ولكن

الحركة القومية التركية انساقت بغباء ، تحت تأثير الصهيونية والماسونية ، في تيار القومية الاوروبية ، فالمحفل الماسوني الاكبر للشرق ، هو الذي اتخذ عام ١٩٠٠ قرارا في باريس ، يقضي بخلع السلطان عبد الحميد .

ولا أريد هنا ان يشتم القارىء من قولي هذا أنني اريد الدفاع عن عبد الحميد ، فلقد كان هذا السلطان فاسدا منحلا ، كرس كل ما حباه الله من ذكاء ودهاء للمحافظة على عرشه ولصيانة امتيازاته وامتيازات الطبقة التي تسنده ، وهو المسؤول اولا وأخيرا عن توجيه ابناء الطبقة الوسطى وخاصة شبابها الى الاخذ بعقيدة القومية الاوروبية ، هذه العقيدة التي هدمت الامبراطورية العثمانية وزرعت الشقاق والاحقاد بين شعوبها . والحق ، ان الحقيقة التاريخية الموضوعية ، تفرض علي ، لا بوصفي عربيا ، وانما بوصفي انسانا يؤمن بالدولة العالمية ، ان اقرر ان الامة العربية كانت الامة الوحيدة في الامبراطورية العثمانية التي قدمت الحلول الايجابية لمشاكل الامبراطورية العثمانية وسعت مخلصة للحفاظ على الاتحاد بين شعوبها ، ومن سخرية الاقدار ان يكون معظم الرواد الاوائل الذين رفعوا راية القومية التركية غير أتراك . ولا نشك في ان هؤلاء لم يريدوا الاخذ بالعقيدة القومية الاوروبية . فلقد كانت اول جمعية [1] سياسية تركية جمعية عسكرية اسست عام ١٨٨٩ ، وقد انشأها ابراهيم طمو ، (او أدهم) وهو ألباني ثم انضم اليه شركس محمد رشيد (شركسي) وناظم السلونيكي (يوناني) وصبري المكي (عربي) وعبدالله جودت (تركي) وقد بدأت هذه الجمعية نشاطها في كلية الطب العسكرية ، ثم امتد الى فروع الجيش الاخرى . وكانت في تنظيمها الداخلي تتبع نظام جمعية الفحامين (الكوربوناري) الايطالية ، اذ انها كانت موزعةالى خلايا منظمة على أساس نظام الحلقات المفقودة . وكانت كل خلية تتألف من خمسة

(1) The Young TURKS and Prelude to Revolution : E.E. RAMSAUR, P. 15

أعضاء . وكان لكل عضو رقم خاص به ولكل خلية رقمها الخاص وكان الرقمان يشكلان (كسرا) حسابيا صورته هي رقم العضو ، أما مخرجه فهو رقم الخلية مثلا : ٣ رقم العضو ، ٨ رقم الخلية وكان الضابط العربي صبري المكي هو المسئول عن التنظيم داخل كليـة الطب العسكري . وعندما نمت هذه الجمعية واشتد ساعدها انتخبت اول مجلس اداري لها وكان هذا المجلس يتألف من علي رشدي رئيسا وشرف الدين سكرتيرا عاما وعساف درويش امينا للصندوق . ولم يكن لهذه الجمعيـة أية نزعات قومية ، وانمـا كانت تستهدف مـن وراء نشاطـاتها القيـام باصلاحات اجتماعية عامة في مختلف الاقطار العثمانية واعادة الحيـاة الدستورية الى البلاد علـى أساس العمل بدستور عام ١٨٧٦ ، دستور مدحت باشـا .

لم يبق أمر هذه الجمعية سرا ، فلقـد بلغت انباؤهـا عام ١٨٩٢ مسامـع السلطان عبد الحميد فطرد علي سيد باشا من وظيفته كـآمر للكلية الطبية العسكرية وأمر زكي باشا مدير الكليات العسكـرية في اسطنبول بمطاردة اعضائها وزجهم في السجون . فاضطر الكثيرون من الاعضاء البارزين الى التواري عن الانظار ثم لجأ بعضهـم الى باريس حيث اسسوا جمعية خاصة بهم عرفت باسم جمعية « تركيا الفتـاة » . وقد انضم الى هذه الجمعية السيد خليل غانم ، العربي اللبناني المسيحي، ونائب بيروت عام ١٨٧٨ . ولم تكد تمضي فترة وجيزة من الزمـن ، حتى أصبح خليل غانم العضو المرموق في تلك الجمعية . فأصدر في باريس جريدة يومية باسم « تركيا الفتاة » ثم أصدر صحيفة اخرى عرفت باسم « الهلال » . اما الجمعية العسكرية داخل الجيش العثماني فانها ، مع كل ما كانت تلاقيه من مصاعب وعقبات ، بقيت تتـابع نشاطها السري وتجند المريدين من بين صفوف القوات المسلحة . وقام الضابط ناظم السلونيـكي بالاتصال بأحمد رضا الذي سبق ان شغل منصب وال

لبورصة ومن ثم مديراً للمعارف وعرض عليه الخروج من تركيا والسفر الى باريس والتعاون مع خليل غانم على اصدار مجلة نصف شهرية تدعى « المشورة » • وقد لاقى عرض ناظم السلونيكي قبولا من أحمد رضا فاغتنم فرصة اقامة معرض دولي في باريس وطـلب الاذن له بالسفر لزيارة المعرض فأذن له وعندما وصل باريس وتعرف على خليل غانـم رحب بالعمل معه ، ولكنه أصر على أصدار تلك المجلة بلغات ثلاث هي التركية والعربية والفرنسية ، وصدرت « المشورة » لتحمل الى القارىء اول منهاج عملي مدروس لجمعية « تركيا الفتاة » وفيما يلي أهم مـــا ورد في ذلك المنهاج :

١ ــ اننا لا نريد ان نعمل لهدم النظام القائم ، هذا النظام الــذي نعتبره ضرورة لازمة لحفظ الامن والنظام داخل الدولة العثمانية ، كلنا نريد ان ننمي رغبة الامة العثمانية في التقدم (الترقي) لذلك فــان شعارنا هو « النظام والتقدم » كما وأننا لنجزع ونرفض أي مــكسب يكون وليد العنف والارهاب •

٢ ــ اننا نطالب باجراء اصلاحات عامة لا داخل ولاية او أخرى ، وانمــا في طول الامبراطورية وعرضها ، ولن نوافق عــلى حصر هذه الاصلاحات في بلد معين ذي قومية معينة ، وانمــا نريد لها ان تشمل جميع العثمانيين من يهود ومسيحيين ومسلمين •

٣ ــ اننا نرغب في الاخذ باسباب الحضارة لكننا نعلن عن تصميمنا على الا نقتبس منها الا ما من شأنه تدعيم العنصر العثماني والمحافظة علــى شروط بقائه •

٤ ــ اننا نعلن عن عزمنا على المحافظة على اصالة حضارتنا الشرقية لذلك فاننا سنأخذ من الحضارة الغربية مايتفق وعاداتنا ويدفع بأمتنــا للسير قدما على دروب الحرية •

٥ ــ اننا نعلن عن استعدادنا التام لمقاومة كل محاولة أجنبية ترمي الى التدخل في شؤوننا العثمانية ، ومقاومتنا هذه غير ناشئة عن تعصب مذهبي ، وذلك لاننا نعتبر الدين قضية خاصة ، ولكن سببها هو نازع مدني ذو اثر مباشر على كرامتنا القومية •

لا شك فى ان القارىء يلاحظ مما ورد بوضوح ان جمعية تركيا الفتاة ، قد بدأت كجمعية عثمانية ، جمعية بعيدة كل البعد عن النزعات القومية ، وأنها كانت تستهدف ، وباخلاص ، الحفاظ على الوحدة بين شعوب الامبراطورية العثمانية • اما دور العرب في هذه المرحلة ، فلم يكن دورا قوميا وانما كان دورا اصلاحيا عثمانيا ، ويكفي العرب فخرا ان يكون خليل غانم ، العربي اللبناني المسيحي احد اقطاب هذه الجمعية جمعية تركيا الفتاة •

أخذت الجمعية تزداد قوة يوما بعد آخر ، ولمعت في هذه الفترة شخصية تركية بارزة قدر لها أن تتولى فيما بعد زعامة هذه الجمعية ، وأعني بهذه الشخصية مراد • وكان مراد من الاعضاء البارزين فى الجمعية وقد لجأ الى مصر فرارا من اضطهاد السلطان عبد الحميد ، لكن سرعان ما أخذت الحكومة المصرية تضج بالشكوى من نشاط مراد حتى اضطرت اللجنة المركزية لجمعية « تركيا الفتاة » أن تصدر تعليماتها الى مراد بضرورة مغادرة مصر والتوجه فورا الى اوروبا فامتثل مراد لاوامر قادة الحركة ، لكنه ما كاد يحط عصا الترحال في فرنسا حتى تزعم الجناح المناوىء لجناح أحمد رضا الذي كان يؤمن بالتطورية لا الثورة عقيدة ونهجا ويرغب في أن يختفي السلطان عبد الحميد عن المسرح اختفاء طبيعيا لا عنف فيه او اكراه • اما مراد فانه كان يؤمن بضرورة اللجوء الى وسائل العنف ، وبضرورة القيام بانقلاب ثوري يطوح بالسلطان ويرفع سلطانا آخر الى سدة « الخلافة » • وكان

مراد هذا متأثرا بدعوة السيد جمال الدين الافغاني ، اذ انه كان يطالب بانشاء امبراطورية اسلامية كبرى تستطيع ان تحرر المسلمين في كافة أقطارهم من نير الاجانب ، لكنه أراد أن تكون للامة التركية الكلمة العليا وأصر على حصر الخلافة فيها • وعندما عرض مراد منهاجه هذا ، على الهيئة العامة للجمعية وافقت عليه بأكثرية مطلقة ، وانتخبت مرادا رئيسا للجمعية ، وبذلك أصبحت الجريدتان ، « المشورة » في باريس «والنظام» في جنيف خاضعتين لتوجيهات مراد وأوامره ، وأصبح أحمد رضا « اللاعنفي » خاضعا هو بالتالي لاوامر مراد • لكن أحمد رضا لم يستطع العمل طويلا تحت زعامة مراد لذلك استصدر مراد في ١٥ ــ أيار عام ١٨٩٧ قراراً يقضي بطرد أحمد رضا من جمعية تركيا الفتاة •

والحق ان « مرادا » هو الذي سار بالنزعات القومية وبالخلافات العنصرية بين شعوب الامبراطورية العثمانية ، أشواطا بعيدة الى الامام• فلقد كان تركيا لحما ودما متطرفا في تركيته ، فهو باصراره على حصر الخلافة بالامة التركية ، ومن ثم في غموض منهاجه للادارة والحكم المحليين ، وأخيرا في تزمته القومي المتستر وراء ستار العثمانية ، جعل الكثير من القوميات وخاصة الارمن يشكون عميق الشك في اخلاص مراد لعثمانيته • ففي مؤتمر برلين ، هاجم مراد الارمن هجوما عنيفا وسلك في نقاشه معهم مسلكا فظا خشنا ورفض ان يسير ليقابلهم في منتصف الطريق ، حيث بحث مشكلة الادارة والحكم المحليين ، على أساس مبدأ اللامركزية وكان مما قاله مراد في ذاك المؤتمر : اننا لا نقبل ولن نقبل بحث أية قضية خاصة بالارمن خارج نطاق الاصلاحات العامة• كما وأن مرادا لم يشر في منهاجه ، من قريب او بعيد الى مبدأ اللامركزية في الحكم ، ولم يتطرق الا الى النقاط التالية :

١ ــ ان الدين الاسلامي ليس بالسبب المباشر لضعف الامبراطورية

العثمانية ، كما وانه لا يشكل اية عقبة في طريق ثقافتها •

٢ ـ ان العائلة الحاكمةعائلة منحلة ، لكنها لا تزال تحتفظ ببعض اسباب القوة ، لذلك فانه باستطاعة هذه العائلة ، اذا ما عمدت الى اصلاح نفسها كي تنسجم ومنهاج الحزب ومخططاته ، ان تستعيد ، حتما ، مزاياها وفضائلها •

٣ ـ علينا ان نؤمن ان وجود العائلة الحاكمة حاليا على رأس الامبراطورية ضرورة محتومة ، فبدونها لا تقوم للامبراطورية اية قائمة •

٤ ـ ان جهاز الادارة الحكومي يتطلب تبديلا جذريا ، اما السبب في العجز والشلل اللذين يعانيهما ، فانما يعود الى جهل الموظفين والى سياسة عبد الحميد •

٥ ـ يجب ان نضمن للحكومة سندا دستوريا ثابتا يمكنها من حماية القوانين من طغيان القصر ، وهذا هو الحل لكل المشاكل العثمانية •

٦ ـ ان حكم السلطانعبد الحميد لا يستطيعان يقدم للامبراطورية العثمانية ولاوروبا سوى المتاعب والمشاكل •

ان القارىء اذا ما درس هنا المنهاج الآنف الذكر ، يتضح له ، ان هذا المنهاج صالح لمعالجة مشاكل دولة تتألف من اقليم واحد ذي قومية واحدة ، تشكو من فساد الادارة وطغيان السلطان ، لا من امبراطورية تتألف من أقاليم عديدة وقوميات متعددة ترغب كل منها في قيام نظام يحترم عاداتها وتقاليدها القومية ، ويطلق يدها في ادارة شؤونها ومعالجة مشاكلها الداخلية •

لذلك فانني اعتقد جازما بأن زعامة مراد لحركة « تركيا الفتاة »

كانت بمثابة اجتياز الحركة القومية التركية الدور الجنيني وخروجها الى النور • لقد كان مراد مفترق الطرق بين قوميات الامبراطورية العثمانية ، وعند ذاك المفترق،تناثرت القومية العثمانية فأمست قوميات عرقية ، ضربت كل واحدة منها على درب ان التقى بدرب الاخرى ، فانما يلتقي لبرهة كلها احتراب وصراع ، لاتصاف واتحاد • لقد قضى مراد في اقل من سنة على امبراطورية تعب اسلافه مئات السنين لتشييدها وصيانتها وعمدوا الى كل الوسائل من وجل ومخاتلة ودسائس ورشاوى وارهاب وقمع وتنكيل للحفاظ على الوحدة بين ولاياتها والاتحاد بين قومياتها • لقد اراد مراد للقومية التركية ان تسود لا ان تأتلف والقوميات الاخرى ، وأراد للاتراك أن يستعمروا لا أن يتعايشوا والشعوب الاخرى ، ولمراد العذر فيما أراد ، فلقد كان صورة صادقة عن عصره ، لذلك لم يكن امام الشعوب الا ان تنبذ العثمانية وتتبنى القومية مذهبا وناظما • وهنا ، ومن هذا المحط ، يمم العرب شطر العلمانية المادية • بدأ مراد يمارس سياسته القائلة بضرورة اللجوء الى العنف والتآمر للتطويح بالسلطان عبد الحميد ، فأخذ يعد بالاتفاق وبعض الزعماء العسكريين لجمعية « تركيا الفتاة » انقلابا عسكريا يخلع عبد الحميد عن عرشه ، لكن سوء الطالع خالف مسعاه ، اذ ان جماعة من الضباط المنتمين الى جمعية « تركيا الفتاة » كانت تأتمن تاجرا يونانيا على ايصال رسائلها الى الضابط السابق أحمد شركس الموجود في باريس • وكانت هذه الجماعة تضمن رسائلها معلومات عن نشاطها وتطلب بين حين وآخر بعض التوجيهات والارشادات • وكان التاجر اليوناني يطلع بدوره السلطات المسئولة على الرسائل قبل تسليمها الى أحمد شركس • ولما خيل للسلطان عبد الحميد ان معلوماته عن الحركة العسكرية قد اكتملت امر بالقاء القبض على الضباط الواردة اسماؤهم في الرسائل وتقديمهم الى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى • وقد بلغ

عدد من قدم منهم الى المحكمة ٨١ ضابطا حكم على ١٣ منهم بالاعدام.
اما السلطان عبد الحميد فانه لم يشأ ان يكتفي بالنصر الذي حققه ، بل اراد أن يجتث جمعيــة « تركيا الفتاة » مــن جذورها كي ينام قرير العين آمنا ، فكلف جاسوسه الداهية ، الشركسي الاصل ، أحمد جلال الدين باشا بالسفر الى باريس وبذل كل مجهود لاقناع مراد بالعودة الى اسطنبول واعلان خضوعه وولائه للسلطان . وبالفعل سافر احمد جلال الدين باشا الى فرنسا واتصل بمراد وتمكن من اقناعه والعودة به الى اسطنبول ليقبل قدمي السلطان طالبا عفوه ومغفرته . وقد حاول اعضاء الجمعية عبثا ان يثنوا مراد عن عزمه ، لذلك اضطروا امام عناده واصراره وحفظا على وحدة الصف ، ان يشترطوا على مراد الشروط التالية :

١ ـ يعتبر الحزب الهدنة بينه وبين السلطان عبد الحميـد هدنة مسلحة .

٢ ـ يرفض اعضاء الحزب كل ما يعرض عليهم من مال او عقـار أو مناصب .

٣ ـ بالاضافة الى موافقة السلطان عـلى الاصلاحـات العامة ، يتعهد السلطان باستصدار عفو ينفذ على صــورة تدريجية حتى يصبح عـاما .

٤ ـ يتولى أحمد رضا منصب رئاسة الجمعية

لم يكن مراد ينتهي من تقبيل قدمي السلطان عبد الحميد ، حتـى تبين للجميع ان السلطان لا ينوي القيام بتعهداته والوفـاء بوعوده ، فتقدم العربي اللبناني المسيحي ، خليل غانم الصفوف ليحمل الراية من جديد وليقود النضال ضد عبد الحميد فنشر في مجلة L'Eclair الفرنسية مقالا عنيفا هاجم فيه السلطان وقرع مرادا ، وكان مما ورد في مقاله قوله :

« اننا لا نؤمن بوعـود السلطان ، ولا نثق بعهوده وبوساطـاته ورسله ، فنحن نطالب باعمال لا بأقوال ، وليعذرني مراد اذا ما صرحت بأنه لم تكن هناك أية بارقة من أمـل لوضع نفسه رهينة بـين مخالب السلطان . ان أحداً لم يطالب مرادا بمثل هذه التضحية ، ..... وان منهاج حزبنا لواضح وصريح . »

نزلت مقالات خليل غانم وأحمد رضا على السلطان عبـد الحميد نزول الصاعقه ، وأدرك عبد الحميد استحالة شراء ذمتي هذين الثائرين الأصيلين ، فأمر سفيره ببذل كل جهد ممكن لدى السلطات الفرنسية لتعطيل صحيفة « المشورة » وطرد خليل غانم وأحمد رضا من فرنسا . وقـد وفق السفير فيما أمره بـه سيده ، فعطلت الحكومـة الفرنسية صحيفتهما وأمرتهما بمغادرة الاراضي الفـرنسية ، فـاختارا سويسرا لهما مقرا وملجأ . لكن ابعادهما ، عن فرنسا ، لم يطل اذ توسط لهما « كليمنصو » بالعودة ثانية الى باريس ، فعادا ليعادوا اصدار جريدة «المشورة» وليفتتحا حملتهما على السلطان بمقال عنيف زلزل أركان سفارته في باريس ، التي سارعت الى السلطـات الفرنسية لتحتـج وتطلب مقاضاتهما معتبرة ان ما كتباه يعتبر ماسا بشخص رئيس دولة صديقة. فاستجابت السلطات الفرنسية ثانية الى طلب السفارة العثمانية وقدمتهما الى محكمة دائرة رقم ٩ « السين » .

فأصدرت الدائرة المذكورة حكما يقضي بتغريم خليل غانم وأحمد رضا مبلغا قدره ١٦ فرنكا ، مع وقف التنفيذ ، ومن الطريف ان حيثيات الحكم جاءت بمثابة ادانة وتجريم للسلطان عبد الحميد لا لخليـل غانم وأحمد رضا .

واصل أحمد رضا وخليل غانم جهادهما وحيدين طريدين شريدين وبدا للجميع ان « تركيا الفتاة » تحتضر وأن خليل غانم وأحمد رضا

يحاولان عبثا اعادة الحياة اليها ، ويشاء القدر الساخر أن يفر الضابطان السابقان اسحق السكوني وعبدالله جودت من منفاهما في طرابلس الغرب . لكن ما كاد يستقر بهما المقام في جنيف ويصدران جريدة « العثماني » حتى اتصل بهما رسل السلطان وعرضوا على اسحق السكوني منصب طبيب السفارة في روما وعلى عبد الله جودت المنصب ذاته في سفارة فيينا لقاء اغلاق جريدتهما وتجميد نشاطهما السياسي فوافق هذان الضابطان على عروض رسل السلطان فطلقا السياسة وأغلقا الجريدة وأقسما مجددا يمين الولاء للسلطان ونسيا انهما كان عضوين مؤسسين في جمعية « تركيا الفتاة » داخل الجيش ، كل هذا لقاء منصبين تافهين حقيرين . ويشاء القدر ان يبالغ في السخرية من جهود وجهاد خليل غانم وأحمد رضا . فلقد كان الشيخ نائلي والضابط العربي صبري المكي قد أعدا العدة للقيام بانقلاب عسكري في اليوم العاشر من شهر آب عام ١٨٩٨ ، ولكن أحد كبار الضباط من المشتركين في المؤامرة والمدعو نادر بك بادر اسماعيل باشا المفتش العام للمدارس الحربية في ساعة من سكر قائلا :

« آه ! لو يعلم الباشا ماذا سيحدث غداً ؟ »

فأثارت جملة نادر بك هذه شكوك اسماعيل باشا فأخذ يغرقه بالخمرة ويستنطقه حتى باح له بسر الانقلاب فسارع اسماعيل باشا الى عبد الحميد وأطلعه على الحدث الهائل المنتظر فأمر عبد الحميد باعتقال الضابط نادر بك وأخضعه لتعذيب شديد جعل نادراً يبوح باسماء زعماء الانقلاب فألقي القبض عليهم واكتفى السلطان بنفيهم الى الولايات النائية من الامبراطورية العثمانية. وكانت الموصل من نصيب الضابط العربي صبري المكي الذي لم يلبث في منفاه طويلا ، اذ سرعان ما فر منه ولجأ الى باريس .

خبا نجم مراد سريعا كما تألق • ومع هذا فـان الفترة التي أمضاها رئيسا لجمعية تركيا الفتاة كانت كافية لتوطيد النزعة العنصرية داخلها ، كما وانها تركت لها أثرا بارزاً وفعالا في منطـق أحمد رضا وتفكيره ، اذ أصبحت الدعوة الى اللامركزية الواسعة في نظر أحمد رضا بمثابة الخيانة للعثمانية والعمل لحساب الـدول الاجنبية • واتضح أن احمد رضا قد بدأ في تفكيره وسياسته يسلك سلوكا قوميا عنصريا • وكان احمد رضا يتميز بالعناد ويعرف بالتزمت ، شأنه في ذلك شأن كل ثائر يؤمن برسالته ويعتقد بأن القدر قد أعده لانقاذ بلاده ، لذلك فعقب ان تسلم مقاليد زعامة الحركة من جديد ، عقد عزمه على الاحتفاظ بمركز الزعامة مهما كلفته هذه الغاية من مشاق وجهد ، فبدأ ينفخ في نار خابية دون كلل أو ملل ، وبدأ يوصل النهار بالليل عاملا دائبا مثابرا ومحاولا أن يستعيد ما كان للجمعية من نفوذ وهيبة قبل أن تتلقى تلك الضربات المميتة التي كالها لها السلطان داخل تركيا وخارجها ، لكن جهوده تلك بدت للجميع عقيمة غير مثمرة ، ولولا ايمانـه العميق برسالته وبرشاد دعوته ، وثقته بقوميته لاستسلم كغيره لعروض السلطان واغرائه • فلم تكن تلك الفترة مـن مرحـلة البعث القومي التركي تملك غير الفشل واليأس وخيبة الآمال بالرجال والاعمال لتقدمها لاحمد رضا وخليـل غانم • وبدا اقرب الناس الى ذنيـك الثائرين وأعمقهم ثقـة وأشدهم ايمانا بهما وبدعوتهما يبدي من الشك في نجاح الدعوة ما يثبط همم أشد الزعماء مراسا وأقواهم شكيمة ، لكن أحمد رضا وخليل غـانم بقيا ثابتين على موقفهما كصخرة شماء في محيط متلاطم الامواج عاصف الانواء يفري ايمانهما الوطيد بالمستقبل دياجير الحاضر وظلمات اليأس • وفجأة تدخل القدر ليمد، هذه المرة ، يد العون اليهما وليكافىء المؤمن الصابر الثابت اذ فر ، في شهر كانـــون الثاني عـــام ١٨٩٩ ، صهر السلطان ، الداماد محمود باشا ، من اسطنبول ويمم شطر فرنسا ليقود

الحركات المناهضة للسلطان عبد الحميد . وقد كان لفرار الداماد محمود باشا وقع القنبلة في قصر « يلدز » وكاد يطيش بلب عبد الحميد فأخذ السلطان يبذل كل مسعى ويلفق من التهم للداماد ، ما يبكي ويضحك ، ويطالب فرنسا بتسليمه له . لكن فرنسا لم تستجب هذه المرة لمطالب السلطان فاستقبلت الداماد وأنزلته في بلادها مع ولديه صباح الدين ولطف‌الله منزلا عزيزا كريما .

وقد وجدت جمعية تركيا الفتاة والجمعيات الأخرى المناهضة للسلطان في لجوء الداماد وعزمه على مكافحة السلطان ما أحيا آمالها ووطد ثقتها بالمستقبل فانتخبت جميع تلك الجمعيات والاحزاب الداماد محمود باشا رئيسا لها . لكن الاجل لم يمهل الداماد طويلا اذ توفي عام ١٩٠٢ وهو لما يزل في بداية صراعه والسلطان ، فتسلم ولده الامير صباح الدين الراية من أبيه ، واثناء وجوده في زيارة للقاهرة وجه نداء الى الشعوب العثمانية طالبها فيه بضرورة عقد اجتماع عام يحضره ممثلون عن جميع العثمانيين للتداول في اوضاع الامبراطورية العثمانية ، ولتقرير الوسائل التي يجب ان يلجأ اليها لاعادة الحرية والعدالة الى تركيا . وقد كان لنداء الامير صباح الدين الأثر المطلوب في نفوس الشعوب العثمانية فتقرر عقد مؤتمر عام في التاسع من شهر شباط عام ١٩٠٢ في مدينة باريس . وهنا حاول السلطان أن يحول دون عقد ذاك المؤتمر . فتدخلت السفارة العثمانية لدى السلطات الفرنسية طالبة منها عدم السماح للمؤتمرين بعقد اجتماعهم على الأراضي الفرنسية ، فاستجابت فرنسا لمطلب السلطان وأصدرت أوامرها بمنع عقد المؤتمر في المكان الذي عين له . فتقدم أحد الفرنسيين ، المدعو «لافيفر بوناطلي» ووضع منزله تحت تصرف اعضاء المؤتمر ليعقدوا فيه اجتماعاتهم . فرحب الاعضاء بعرض المسيو « بو ناطلي » شاكرين وعقدوا في منزله اولى جلسات المؤتمر ، ثم

انتقلوا الى قصر الأمير صباح الدين ليتابعوا جلساتهم .

وقد حضر ذاك المؤتمر ٤٧ مندوبا يمثلون الاتراك والعرب واليونان والأكراد والألبان والشركس واليهود، وقد انتخب جميعهم الامير صباح الدين رئيساً للمؤتمر . وعقب العديـد من الجلسات والطويـل من المناقشات اتخذ المؤتمرون المقررات الآتية :

١ ـ يرفض المندوبون أي هدنة او اتفـاق بين شعوب الـدولة العثمانية ونظام السلطان عبد الحميد فالنظام الذي عشنا في ظلاله مدة ربع قرن نظام يقوم على الطغيـان والمظالم وهو المسؤول عن جميـع الجرائم التي اقترفت في جميع انحاء الامبراطورية ، وعن اهدار حقوق الانسان وقيم الانسانية . »

٢ ـ يدعو المندوبون الجميع الى العمل لتوثيق الروابطبين شعوب الامبراطوريـة العثمانية ويطالبون بحق الشعوب في التمتع بحقوقها الأساسية وتخويلها ادارة شؤونها الداخلية وسيادة المساواة فيما بينها في الحقوق والواجبات . ويرى المندوبون أن العمـــل بموجب هذه النقاط الآنفة الذكر ، مما يستثير في الشعوب العثمانية ولاءها ويبعث كامن اخلاصها للعرش وللعائلة العثمانية الحاكمة التي باستطاعتها ، هي وحدها ، ان تحافظ على الاتحاد القائم حاليا بين شعوب الأمبراطورية.

٣ ـ يدعو المندوبون الى العمل بحزم واصرار ، وفي كـل الظروف للتنسيق بين أمـاني مختلف الشعوب العثمانية وبـين جهود المناضلين لتحقيق الأهداف الثلاثة الآتية :

أ ـ الحفاظ على كيان الأمبراطورية العثمانية ووحدتها .

ب ـ سيادة النظام والأمن في ربوع الامبراطورية كشرط أساسي للتقدم والتطور .

ح ـ احترام القوانين الأساسية للامبراطورية العثمانية ، وخاصة دستور عام ١٨٧٦ ، هذا الدستور الذي يقدم لنـــا اقوى الضمانات للاصلاحـــات العامة ويصون الحريات الأساسية للشعوب العثمانية من الاستبداد والطغيان •

د ـ احترام جميع المعاهدات الدولية وخاصة معاهدة برلين •

وافق المندوبون على القرارات الآنفـــة الذكر بالاجماع ، وفجـأة تقدم أحدهم باقتراح يطلب فيـــه الموافقة عليـــه ، وضمه الى مقررات المؤتمر ، وهذا الاقتراح يقول بضرورة التوجـــه الى الدول الاوروبية ومطالبتها بالتدخل لحماية الشعوب العثمانيـــة المستعبدة ، وقـــد لاقى الاقتراح المذكور معارضة شديدة من كل من احمد رضا وخليل غانم ، غير أن أكثرية المندوبـــين وافقوا عليـــه ، وهذا مما اضطر أحمد رضا وخليل غانم الى مخالفة مقررات المؤتمر والخروج على اجماع المندوبين • وقد ادلى احمد رضا بتصريح عقب ارفضاض المؤتمر ، عبر فيـــه عن أسفه لتبني الاقتراح واعطائـــه صفة القرار ، معللا رفضه بقوله : « ان الدول الكبرى تستوحي احكامها الضميرية من مصالحها » •

فشل المؤتمر بسبب معارضة احمد رضـــا وخليل غانم للاقتـــراح المذكور ، وبدأ احمد رضا وخليـــل غانم يعمـــلان مستقلين عن بقية الحركات المناوئـــة للسلطان عبد الحميد • والحق ان السبب الجوهري الكامن وراء خروج احمد رضا على الاجماع كان يمثل في نزعته القومية المتطرفة • فلقد لمس احمد رضا ان الروح التي تهيمن عـــلى المـــؤتمر وتوجهه ، هـــذه الروح المتجسدة في الامير صباح الدين ، هي روح عثمانية لا تمت الى الروح القومية بصلة او نسب • فـــأحمد رضا كان يريد اقامة حكومة مركزيـــة يشرف عليها الاتراك ، وكان يعتبر الدعوة الى اللامركزية بمثابة دعوة انفصالية يراد من ورائهـــا تقطيع اوصال

الأمبراطورية العثمانية ، أما الأمير صباح الدين ، فانه كما يلاحظ ، كان يصدر في كل أعماله ، عن ايمان بان اللامركزية والمساواة بين شعوب الامبراطورية العثمانية هما شرطان أساسيان من شروط الحفاظ على الامبراطورية العثمانية . وقد شعر الامير صباح الدين أن التيار القومي التركي يتزايد قوة يوماً بعد آخر ، وأحس بأن هذا التيار اذا ما جرف الأمة التركية الى شاطىء القومية ، فعندئذ سيصبح سقوط الأمبراطورية العثمانية قدرا محتوماً ، وتبين له أن جمود عبد الحميد وعجزه عن الارتفاع الى مستوى الاحداث التي تجري داخل الامبراطورية ليعرض الامبراطورية لعصف الزوابع القومية ويدفعها الى الانحلال والاندثار . ولمس ان الزمن يعمل في غير صالحه وصالح العثمانية وأن واجبه كعثماني اولا وكعضو في العائلة الحاكمة ثانياً ، يفرض عليه ان يقوم بعمل عاجل حاسم لاستباق الأحداث المرتقبة ، يحمله الى مركز يستطيع منه ان يسيطر على تلك الاحداث فيمنعها من تقرير مصيره ومصير الامبراطورية ، لذلك كله اقدم الامير صباح الدين تحت ضغط اندفاعات الحركة القومية التركية ، الى الاتفاق واسماعيل كمال بك ، الزعيم الالباني على احداث ثورة عسكرية تطوح بالسلطان عبد الحميد ، وترتفع به الى سدة الخلافة . فاتصل اسماعيل كمال بك بالمشير رجب باشا ، الالباني العنصر ، وقائد القوات المرابطة في طرابلس الغرب واتفق معه على انزال بعض القوات التركية في « سلونيك » حيث تهرع ، حال نزولها ، الى نجدتها جموع المتطوعين من الالبان . وقد أطلع اسماعيل كمال بك « السير » ادمون مولسون السفير البريطاني في باريس آنذاك على خطته هذه فزوده السفير بكتاب توصية الى اللورد لانسدو ، وزير الخارجية البريطانية . فسافر اسماعيل كمال بك الى لندن واجتمع الى اللورد ساندرسون الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية ، وعرض عليه مخطط الانقلاب ، فوافق اللورد

ساندرسون على الخطة وأكد له ان بريطانيا ستستعمل كل ما لديها من نفوذ لمنع روسيا من التدخل في حالة نشوب الثورة العسكرية ، كما أعلمه ايضا بأن بريطانيا ستساعد على تغطية نقل قوات المشير رجب باشا من ليبيا الى سلونيك وهي لذلك ستأمر باجراء مناورات بحرية تمتد من شواطىء ليبيا حتى شواطىء اليونان ، كي تستطيع سفن المشير رجب باشا أن تتسلل الى أهدافها آمنة مطمئنة . لكن الامير صباح الدين واسماعيل كمال ورجب باشا لم يتمكنوا من تنفيذ الخطة بسبب عجزهم عن تدبير السفن لنقل قوات المشير رجب باشا من ليبيا الى سلونيك . وهكذا قضي على آخر محاولة لانقاذ « العثمانية » من بين براثن القومية .

د ـ تنافر الاضداد :

فشل مؤتمر باريس ، وفشلت « العثمانية » كمذهب « وقومية » يؤلفان بين الشعوب العثمانية . وأخذت القومية العرقية تضرب جذورها عميقاً عميقا داخل تركيا وخارجها . وبدا جليا واضحا أن الاضداد تبقى متنافرة في طبائعها ،متعارضة في اتجاهاتها ، فللقومية سبيل ، وللأممية آخر ، وهذان السبيلان يسيران في خطين متوازيين لن يعرفا تلاقيا او تلاحما ، طالما أن منطق « الأنا » المحدود الطموح بالغريزة الحيوانية الضيقة الأفق ، هو الذي يرسم ، ويوجه ويقود ، وطالما أن مصير الانسانية مرهون بقرارات المشاعر الحسية ، لا لخلجات الضمير والوجدان . لقد أمست الحضارة في مطلع القرن العشرين ، حضارة علماء، لا حضارة انبياء، رأسها كبير ، كبير جدا، وقلبها صغير متناه في صغره ، فهي باردة كالجليد ، تصدر في كل نشاطاتها عن ميكانيكية بالغة الدقة في التنظيم ، تعرف دقائق كل شيء ، لكنها صماء ، لا تسمع التناغم المنبعث من هذه الدقائق والذي يعطي الشيء روحاً وجوهراً .

حضارة قلبها جيب ، وجيبها قلب ، وانسانها معدة وآلة جنس يناضل بقسوة وعنف لتأمين أسباب العيش ، ويزدري كل عمل يستهدف تأمين أبسط أسباب الحياة ، هدف الرأسمالي فيها الكسب ، والاشتراكي الرغيف ، وانجازات كل منهما ضخمة لكنها عاطلة من العظمة . فالمرء فيها ذو حس دقيق مرهف ، وشعور متبلد بليد ، همه أن يكسب لا أن يكتسب ، وأن يأخذ لا أن يعطي ، لعاطفته غاية ولشعوره هدف ، لذلك فعاطفته نزوة وشعوره حس ، أمنيته في الحياة أن يصبح تاجراً ناجحاً ، لا مصلحا او نبياً .

وموجز القول ان الحضارة في مطلع القرن العشرين أصبحت ، كليا ، حضارة أرقام لا حضارة بشر ينفعلون ويتفاعلون ويصدرون في كثير من أعمالهم عن أصالة انسانية ذات جوهر ثابت لا يخضع للظروف انما يخضع الظروف له .

في هذا الجو والمناخ الحضاريين ، نشأت الحركات القومية فى معظم اقطار آسيا وبعض الاقطار الافريقية . وقد أدرك العرب ، أن النهج الذي يراد لهم أن ينتهجوه ،نهج خطر يتنافى وأهم الأسس التي تستند اليها القواعد الاخلاقية للامة العربية ، وأعني به العطاء . لذلك اراد العرب مخلصين ، عسكريوهم ومدنيوهم ، أن يقوموا بدور المؤلف بين شعوب الامبراطورية العثمانية وقومياتها . وأرجو الا يتبادر الى ذهن القارىء ان العرب أرادوا أن يقوموا بهذا الدور ، دور المؤلف ، نتيجة لاحساس بضعف أووهن ، فهم على كل حال ، وعلى سبيل المثال ، كانوا أكثر من الارمن عددا وأندى من هؤلاء كفا وعطاء للحضارة الانسانية، لكن الامة العربية في قرارة نفسها أمة ابرز فضائلها الكرم والعطاء ، وأمة هذه حالها ، لا تعرف للخير الا صفة واحدة ، هي صفة الشمول . ونحن اذا ما راجعنا بعض ما قيل وورد في مناقشات مؤتمر باريس ،

نرى أن المندوبين العرب ، كانوا أبدا يقومون بدور الموفق بين وجهات نظر المندوبين ، من أتراك وأرمن ويونان وشركس ويهود وألبان ، وأن المندوبين العرب هم الذين استطاعوا أن يرغموا الاتراك في ذاك المؤتمر على اتحاد قرار بالموافقة على نظام الحكم المحلي ، وأن يكبتوا النزعات القومية الانفصالية التي كانت تضطرم بها أفئدة أبناء القوميات العثمانية الاخرى وتجيش . لكن الاتراك ، وجناح أحمد رضا على سبيل الحصر، كانوا يومذاك قد قطعوا اشواطا بعيدة على طريق القومية العرقية ، ولم يعد بامكانهم أن يتراجعوا ، لانهم أصبحوا من الامم المستعمرة ، لا يستطيعون أن يفكروا بمنطق غير منطق العصر . فأصبحت الامبراطورية العثمانية في نظرهم هي تركيـة ، وأمست تركيـة في اعتقادهم هي الامبراطورية ، ولم تعد الامبراطورية في مذهبهم ، تتألف من عرب وأتراك وأرمن ويونان وبلغار وألبان وشركس ، وانما صارت تشكل من عنصر سيد وقوميات مسودة . من هذا المنطق ، انطلقت جمعية « الحرية العثمانية » ، هذه الجمعية التي قدر لها فما بعد ان تعرف باسم جمعية « الاتحاد والترقي » تهدم الامبراطوريـة العثمانية وتدفع بالحركات القومية ، وبخاصة العربية الى معترك الوجود السياسي .

كانت جمعية « الحرية العثمانية » جمعية سرية تتألف من عسكريين

---

(١) الحق ان مصطفى كمال اتاتورك كان اول من شكل في تلك الحقبة من التطور القومي التركي ، جمعية عسكرية سريـة ، فعقب ان اعتقل ثم افرج عنه ، نقل الى دمشق حيث انشأ داخل الجيش ، في شهر تشرين الاول عام ١٩٠٦ جمعية عسكرية اسماها « وطن » وأنشأ لها فروعا في كل من مدينتي يافا والقدس ، وانضم الى جمعيته هذه عدد كبير من الضباط العرب ، ثم راى القائمون على جمعية « وطن » ان ينقلوا مركزها من دمشق الى سلونيك وذلك لان اسباب حرية العمل السياسي متوفرة في سلونيك اكثر من غيرها من مدن الامبراطورية العثمانية بسبب الحماية الدولية المفروضة على هذه المدينة . وقد فر مصطفى كمال من قطعته بدمشق الى سلونيك وعندما وصلها ادرك رفاقه خطورة فراره

ومدنيين، وقد أسسها رحمة بك (والي أزمير فيما بعد) وطلعت بك (باشا فيما بعد وموظف بريد سابق) واسماعيل جنبلاطبك،والكولونيل جمال بك (جمال باشا فيما بعد) وفتحي بك (وزير العدل فيما بعد) وكانت جمعية « تركيا الفتاة » لا تعلم بوجود جمعية « الحرية العثمانية » ولكن حدث ، في شهر آذار عام ١٩٠٧ ، ان اتصل طلعت باشا بالسيد عمر ناجي وبرفيق آخر له واعلمهما بان السلطان عبد الحميد قد أصدر أمرا بالقاء القبض عليهما ففرا الى باريس حيث اتصلا فيها بكل من احمد رضا والامير صباح الدين ليطلعا على منهاج كل منهما ، وعندما درسا المنهاجين ، كان لا بد لهما باعتبارهما يدينان بالقومية التركية أن يجدا في منهاج أحمد رضا منهاجاً يتفق في روحه ومنهاج جمعية الحرية العثمانية ، عندئذ كشفا لاحمد رضا عن ارتباطاتهما وأطلعاه على منهاج الجمعية التي ينتميان اليها ، فعرض عليهما ان يتصلا بزعماء جمعية « الحرية العثمانية » وأن يعملا لدمج الجمعيتين في جمعية واحدة. وعقب مشاورات عاجلة ومفاوضات قصيرة ، توصل الطرفان الى تفاهم تام على جميع النقاط واتفقا على أن يطلقا على الجمعيتين الموحدتين ، في جمعية واحدة ، اسم « جمعية الاتحاد والترقي . » وكان منهاج هذه الجمعية يتلخص في النقاط الاربع الآتية :

١ ــ العودة الى دستور عام ١٨٧٦ .

عليه وعلى الجمعية فاستحصلوا له على مأذونية مرضية لمدة اربعة اشهر يمضيها في سلونيك ، ولما انتهت مأذونيته استطاعوا ان يتدبروا أمر نقله من دمشق الى سلونيك حيث عين رئيسا لاركان حرب محمود شوكت باشا ، اما جمعية « وطن » فلم تستطع ان تثبت امام جمعية « الحرية العثمانية » اذ سرعان ما تلاشت وذابت فيها واصبح مصطفى كمال عضوا ثانويا في جمعية « الحرية العثمانية » .

٢ ــ يكون للجمعية مركزان رئيسيان ، اولهما في باريس ، والثاني في سلونيك •

٣ ــ يتعاون المركزان الرئيسيان على تأمين النفقات المالية اللازمة للجمعية •

٤ ــ تناط قيادة النشاطات الداخلية وتوجيهها بمركز سلونيك ، أما الشؤون الخارجية فيصرفها مركز باريس •

عقب ان تم تأليف جمعية الاتحاد والترقي دعا القائمون عليها الى عقد اجتماع لوضع منهاج نضالي للجمعية • وقد حضر مندوبون عن الارمن ذلك الاجتماع • وقرر المؤتمرون اللجوء الى الاساليب الارمنية في الصراع والنضال فكرسوا العنف ، من اضرابات ، ومظاهرات مسلحة ، وعصيان مدني ، أساليب للكفاح •

فبدأت الجمعية ببث الروح الثورية واثارة الاضطرابات الدامية ورفع راية العصيان • واجتاحت سلونيك عام ١٩٠٨ موجة طاغية من اعمال العنف والارهاب عمت جميع انحاء « مقدونيا » فأرسل السلطان عبد الحميد في السادس عشر من شهر حزيران ناظم بك ليتولى قيادة القوات المسلحة في سلونيك وليقوم باخماد الفتنة ، لكن اعضاء الجمعية لم يمكنوه من الوصول الى المدينة اذ اغتالوه وهو لما يزل في طريقه اليها ، كما أطلقوا في اليوم نفسه رصاصهم على سامي بك مفتش البوليس في « كروشيفو » فأصابوه اصابات بالغة• وفي أواخر شهر حزيران فر أنور باشا ونيازي باشا مع زمر من انصارهما الى التلال المحيطة بسلونيك وأعلنا الثورة على السلطان فكلف عبد الحميد المشير شمسي باشا باخماد الثورة وتأديب الثائرين ، لكن حظ شمسي باشا لم يكن بأحسن من حظ ناظم بك ، اذ اغتاله ارهابيو جمعية « الاتحاد والترقي » ظهيرة السابع عشر من تموز • وعندما شاع نبأ اغتياله

أعلنت القوات العسكرية المرابطة في مقدونيا انضمامها للثائرين وأنذرت السلطان عبد الحميد بانها ستزحف على اسطنبول اذا لم يستصدر مرسوماً يقضي باعادة الحياة الدستورية الى البلاد ، فاضطر السلطان ، صباح الرابع والعشرين من شهر تموز عام ١٩٠٨ ، للنزول على مطلب الثوار .

قابلت شعوب الامبراطورية العثمانية عودة الحياة الدستورية بفرح طاغ وسرور عارم . وخيل اليها أن جل آمالها أمست قريبة المجال سهلة المنال ، وانها باتت على أعتاب عصر ذهبي ، تتساوى فيه الشعوب وتتآخى القوميات وترتع في مرابع الحرية والعدل . فلم تسجل سجلات دوائر الشرطة خلال الايام الثلاثة التي تلت صباح الرابع والعشرين من تموز ، حادثة واحدة مخلة بالامن ، حتى قطاع الطرق أعلنوا عن توبتهم واستسلموا للسلطة طالبين منها منحهم فرصة جديدة في الحياة . وغدا عبد الحميد ، الطاغية والقيصر ، يمجد فضائل الدستور ويعظ بالحرية ويحاضر في العدل ، وبات كل من في الامبراطورية يترقب ، بفارغ صبر ، قيام مجلس نيابي منتخب يشرع القوانين ويراقب السلطة التنفيذية ويمنعها من الانحراف والطغيان . وتولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة وتربع زعماؤها سدة السلطان . وجرت أول انتخابات عامة فاذا بالروح القومية التركية الاثرة المستأثرة تذهب في توزيعها للمقاعد النيابية ، على الشعوب العثمانية ، مذهب الاسد . فالتمثيل النيابي ، وخاصة تمثيل العرب في المجلس ، لم يكن يستند الى العدل ، فالاتراك هم الذين يملكون الاكثرية في مجلس «المبعوثان» أما القوميات الاخرى من عرب ويونان وألبان وبلغار الخ ... فهي مجتمعة تشكل الاقلية ، لقد وزعت المقاعد النيابية على شعوب الامبراطورية على الوجه التالي :

الاتراك	:	١٤٢
العرب	:	٦٠
الالبان	:	٢٥
اليونان	:	٢٤
الارمن	:	١٢
اليهود	:	٥
البلغار	:	٤
الصرب	:	٣
الفلاخ	:	١
المجموع	:	٢٧٦

هـ ـ احتضار العثمانية

ما كادت جمعية الاتحاد والترقي تتسلم مقاليد الامور في الامبراطورية العثمانية حتى اخذت تنهج في سياستها نهجا قوميا استفزازيا مغرقا في تزمته القومي . فكانت بداية اعمالها « اشتراع » قانون للانتخابات العامة يخول اي رجل مستكمل الشروط إن يرشح نفسه عن اية دائرة من الدوائر الانتخابية في الامبراطورية العثمانية ، وذلك بغض النظر عن قومية الاكثرية التي تقطن تلك الدائرة التي يختارها المرشح . وقد استصدر اعضاء جمعية « الاتحاد والترقي » هذا القانون كي يمكنوا الاتراك من الفوز ببعض المقاعد النيابية في أقطار غير تركية . وحدث ان نائب دائرة الموصل في العراق ، على ما يذكر ، وقف مرة في مجلس « المبعوثان » يشكو ابناء دائرته ويقول :

«من الغريب ان أحدا لا يعرف اللغة التركية في دائرتي الانتخابية»

أضف الى ذلك أن اول انتخابات جرت عقب ثورة عام ١٩٠٨ ،

رافقها الكثير من حملات الضغط والتزوير والارهاب بغية فرض نواب اتراك على الدوائر الانتخابية في البلاد العربية •

ومن المحزن والمؤلم معا أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، اختاروا الامة العربية ، من دون كل ما في الامبراطورية العثمانية من قوميات ، ليخصوها بالاذلال والاخضاع والزرية ، فكانوا يتحينون كل فرصة تعرض لهم ، ليعرضوا بها وبلغتها وبتقاليدها •

فعندما اختتم شمسي باشا ، وزير الاوقاف ، خطابه في مجلس « المبعوثان » بتلاوة دعاء باللغة العربية ، ثار النواب الاتراك ثورة عنيفة ، محتجين غاضبين متسائلين عن الاسباب التي تخول وزيرا مسئولا التكلم بغير اللغة التركية في المجلس • ولم يستطع رئيس المجلس أن يهدىء ثورتهم الا بعد أن أعلن الدعاء الذي تلي باللغة العربية لا يشكل جزءا من خطاب الوزير • وقام أحد كبار الكتاب الاتراك المدعو جلال نوري ليطالب بتتريك العرب وتهجيرهم من بلادهم، فلقد وردت الفقرة التالية في كتابه المعروف باسم «تاريخ المستقبل»

« علينا ان نهجر السوريين من أوطانهم وأن ننشىء مستعمرات تركية في كل من اليمن والحجاز وأن نعتبر اللغة التركية لغة دينية ، هذه أمور يجب أن ننجزها بسرعة ، لان الجيل العربي الصاعد يتأثر يوما بعد يوم بالتيارات العنصرية» ثم انتشرت دعوة أخرى تقول بضرورة ترجمة القرآن الى التركية ، وفرض التدريس بهذه اللغة على المدارس الابتدائية • ولعل أحسن من عبر عن شعور الأمة العربية ازاء الاستفزازت التركية للعرب ومحاولاتهم الغبية لطمس التراث العربي هو عزيز علي المصري ، أحد الضباط العرب البارزين في جمعية الاتحاد والترقي اذ ورد في الصفحتين ٩٦ و ٩٧ من مذكرات أحمد جمال باشا ما يلي :

«ذهبت مرة الى الاستانة ، اثناء وجودي في منصب حاكم«أضنة» فقابلت عزيز علي بك ، فتبادلت معه بعض الملاحظات عن الخطابات الشهيرة التي نشرها شريف بك مراسل جريدة « اقدام » في سلسلة من المقالات بعنوان : « خطابات من بيروت وسورية » . ولما ذكرت له أن مثل هذه الخطابات المثيرة للعواطف، تلحق بالغ الضرر بالوحدة العثمانية وبسلطة الخلافة الاسلامية في الولايات العربية ، أجابني عزيز علي ، بلهجة تتدفق غروراً وكبرياء وقال :

« ان العرب لعلى حق ، فليت شعري ! ما الذي صنعتموه لنا معشر العرب ، سوى سعيكم لافنائنا واحتقارنا واهانتنا . وكيف تتوقعون منا ايها الاتراك المعاملة الودية وهذه هي حالكم معنا ؟ هل نسيتم أنكم في الاستانة اذا ما ناديتم كلبا ناديتموه بلفظة « عربي عربي ! »واذا ما أردتم أن تصفوا أمرا عويصا غامضا قلتم أنه يشبه الشعر العربي . ويبدو لي انكم لم تكتفوا بكل هذه الاهانات فتعمدتم في اليوم التالي لاعلان الدستور اثارة خواطر العرب . أفلم تعينوا في الجيش المرابط في سوريا مشيراً من سلالة هولاكو ورجلا يحتقر بغداد والعراق ، تتريا لاخلاق له ، رسول الجحيم ؟ انكم تعلمون حق العلم مدى سخط العرب على التتر ، وليس ثمة معنى لتعيين عثمان باشا قائداً للجيش الخامس المرابط في سوريا الا اذلال العرب » .

هذه بعض نماذج من ردود الافعال التي خلفتها سياسة جمعية الاتحاد والترقي في نفوس الامة العربية ، ونحن اذا ما تعمقنا في تركيب جمعية الاتحاد والترقي رأينا ان اليهود كانوا يسيطرون عليها سيطرة تامة ويوجهون نشاطاتها ويرسمون سياستها ويدفعون بها الى الايمان بقومية ضيقة انفعالية متزمتة ، بغية هدم الامبراطورية العثمانية وتمزيقها الى قوميات ودول ودويلات . ولقد استطاع اليهود وبخاصة

يهود سلونيك التغلغل في هذه الجمعية عن طريق الماسونية • ولقد رأت الصهيونية العالمية التي كان تيودور هرتسل قد ارسى أسسها ووضع مخططها وخرج بها كمذهب لقومية ونظام لدولة ، (وبخاصة عقب أن فشل هرتسل في مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد لفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين) ، أن لا سبيل الى انشاء الوطن القومي اليهودي في تلك البقعة من البلاد العربية ، الا في بث الحركة القومية التركية وطبع هذه الحركة بالطابع الطوراني ، واقامة نظام من المركزية الضيقة يجعل من اسطنبول المرجع الاول والأخير لجميع شؤون الولايات العثمانية ، كبيرها وصغيرها • وذلك لايمان الصهيونية العالمية بأن اندفاع الاتراك وراء المذهب الطوراني وتشبثهم بالمركزية الضيقة سينجم عنهما حتماً انفجارات ثورية في البلاد العربية تؤدي عاجلا او آجلا الى انفصال البلاد العربية عن تركيا وانهيار العثمانية انهياراً نهائياً وهذا مما يزيل الكثير من العقبات أمام الطموح الصهيوني الى انشاء الوطن والدولة اليهوديين في فلسطين ، ويساعد على تنفيذ مخطط الدول الحليفة لاقتسام البلاد العربية •

فرض الاستسلام على عبد الحميد ، لكن جذوة الصراع من أجل استعادة سلطاته لم تخمد في فؤاده ، فاتبع ازاء جمعية الاتحاد والترقي سياسية « ترقب ! واستعد ! » وكان كل خطأ يقترفه الحكام الجدد يبعث الأمل في نفسه ويشد من عزمه على استعادة سلطاته « المسلوبة » •

فكانت عيونه وارصاده تزوده ليل نهار بالمعلومات والاخبار ، وكانت انباؤهم تجمع على أن التنافر بين العرب والاتراك آخذ بالازدياد وأن القوميات الاخرى في الامبراطورية تشكو وتتذمر من استئثار العنصر التركي بالحكم وبهارج السلطان • وأخيرا ، وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٠٩ ، خيل الى عبد الحميد ان فرصة العمر قد واتته ، فدفع بجماعة من الدراويش بزعامة المدعو : « درويش

وجدي» الى اثارة خواطر حامية اسطنبول،واتهام اعضاء جمعيةالاتحاد والترقي بالكفر والزندقة ، فخرج الجنود من ثكناتهم وأخذوا يعملون في ضباطهم قتلا ثم هاجمت زمر منهم دور الحكومـــة وفتكت بوزير العدل وبنائب عربي • وعندما بلغت انباء العاصمة مسامع المشير محمود شوكت ، وهو قائـد عربي المنبت وآمر القوات العسكرية المرابطة في مقدونيا زحف بجيشه على العاصمة ودخلها في اليوم الرابع والعشرين من نيسان ، ثم ارغم السلطان على التنازل عن عرشه ، ونصب في السابع والعشرين منه ، محمد رشاد سلطاناً جديداً باسم محمد الخامس• وبذلك أعاد محمود شوكت الى جمعية الاتحاد والترقي نفوذها وهيبتها •

لم يتعظ الزعماء الجدد بالانقلاب المعاكس الذي قام بـه السلطان عبد الحميد ، ولم يدركوا أن عبد الحميد الداهية الأريب ، مـا كان ليقدم على مثل هذه الخطوة الجرئية ، وهو المشهور بحرصه وتأنيـه الشديدين لو لم يعتقد أن التطرف في النهج القومي التركي قـد وزع كلمة الشعوب العثمانية وأشاع الخلاف والفرقة بين العرب والاتراك • كما وأن اولئك الزعماء لم يحاولوا أبداً أن يتفهموا الاسباب الكامنـة وراء انسحاب الكثيرين من الزعماء العرب ، من جمعية الاتحاد والترقي وانتمائهم الى حزب «الحرية والائتلاف» والحق ان هذا الحزب كـان آخر محاولة عربية ــ تركية لانقاذ « العثمانية » والحفـاظ على وحدة ولاياتها واتحاد قومياتها •

وقد قدر للحزب الآنف الذكر أن يتولى مقاليد الامور عام ١٩١٢ ، عقب ثورة الشعب الالباني ، لكنه لم يبق في الحكم سوى فترة جـد قصيرة من الزمن ، اذ باغت زعماء جمعية الاتحاد والترقي الوزارة أثناء اجتماعها في قصر السلطان وقتلوا وزير الحربية ومرافقـه وارغموا رئيسها على الاستقالة واستعادوا أزمة الحكم ومقاليد السلطان •

و ــ العودة الى الاستبداد الحميدي :

من طبيعة القوة ان تبالغ في تأكيد ذاتها لفرض مهابتها. ومن طبيعة الفئة التي تعتمد على القوة في الحكم ، أن تبالغ في استعمال القوة عقب كل انتصار لها سبقته هزيمة نزلت بها . لذلك تتطور القوة لتصبح استبداداً وطغياناً ، وعندما تدخل القوة مرحلة الاستبداد تبدأ بالاحتضار والتلاشي ، لذلك فان القوي خطر على نفسه كما هو خطر على خصمه ، فهو وان كان يبدأ بالقضاء على الخصم ، لكنه ينتهي ، دائما وأبدا ، اذا ما بالغ في استعمال القوة ، الى القضاء على نفسه . أضف الى ذلك ، أن كل وظائف القوة غير الناشزة ، تنحصر كل فعالياتها البناءة في مجالين أن تهدم الطالح ، وأن تصون الصالح ، أما اذا ما أصرت القوة ، او اصر القائمون عليها ، أن يتجاوزوا هذين المجالين الى مجالات أخرى فعندئذ تصبح فعاليات القوة فعاليات هدامة ، تدعم الطالح وتهدم الصالح وتنشر القلق بين ابناء الامة والجزع في المجتمع فالقوة عاجزة عن التخطيط والبناء ، فالذي يخطط هو الفكر والذي يبني هو الزخم ، وهناك فرق كبير بين الزخم والقوة ، فالزخم قوة يرسم طريقها فكر ووجدان ، وتمارسها ارادة هي وليدة فكر حر ، لذلك فان الزخم يكون ، دائما وأبدا ، ذا فعاليات بناءة تدفع بعجلة التاريخ الى الامام . أما القوة فكثيرا ما تكون ذات فعاليات هدامة تجاهد لتجميد الزمن والتطور والتاريخ .

وهذه كانت حال جمعية الاتحاد والترقي ، التي ما كادت تستولي على الحكم حتى أطلقت للقوة العنان وحررتها من كل وازع أو رادع ففرضت على الامبراطورية العثمانية جوا خانقا من الارهاب والطغيان ، فأغلقت الجمعيات والاحزاب السياسية ، وتنكرت لابسط قواعد الحرية وحقوق الانسان . وهنا للمرة الأخيرة تقدم العرب لانقاذ « العثمانية »

وللتلطيف من ضراوة النزعة القومية التركيـة فأسسوا في شهـر ايلول عام ١٩٠٨ حزبا عرف باسم « جمعية الاخاء العربـي العثماني » وكانت مبادىء هـــذه الجمعية تقول بضرورة تقديم كل عون ممكن لجمعية الاتحاد والترقي ، وتنادي بالحفاظ على الدستور ، وقيام وحدة بـين جميع القوميات العثمانية ، بغض النظر عما بين هذه القوميات من فوارق عنصرية او مذهبية ، ثم تطرق منهاجها الى النواحي الاقتصادية فطالبت الجمعية المذكورة بانشاء المصانع وقيام تنسيق اقتصادي مثمر بين مختلف قطاعات الاقتصاد من زراعي وصناعي وتجاري ، وكانت هي اول جمعية سياسية عربية طالبت بتحضير العشائر .

ومع ان هذه الجمعية كانت تنشط ضمن دائرة الاخــاء العربي العثماني ، غير انها كانت تتحسس ، في الوقت ذاته ، بالمظالم العنصرية التي ينزلها الاتراك بالأمة العربية ، لذلك كانت تنادي بضرورة تقـديم كل عون ممكن لجميع العرب للحصول على حقوقهم من حريـة وعدالة ومساواة . وقد أنشأت هذه الجمعية فروعاً عديدة لها في شتى انحـاء العالم العربي . وكانت تملك وتوجه عدداً ضخما من الصحف والمجلات منها : « الاحوال ، والحرية ، والاهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، والنديم ، والهدى ، والحمراء» . وعندما حضر النواب العرب الى اسطنبول ،حيث كان مركزها الرئيسي ، اقامت لهم الجمعية حفـلة تكريم ضخمة ، كانت بمثابة أضخم مظاهرة عربية شهدتها اسطنبول طيلة تاريخها .

لكن السلطات التركية رأت في نشاط هذه الجمعية ، مع كل مـا في مبادئها من معالجات انشائية لمشاكل الامبراطورية العثمانية ، حركة ذات ميول قومية تتعارض وأهداف القومية التركيـة ، وتحول دون تنفيذ مشروعات « التتريك » التي أعدتها جمعيـة الاتحاد والترقـي ، لتطبيقها على الامة العربية ، لذلك اتهمتهـا السلطات بالازدواجية في

المنهاج وأمرت باغلاقها • فسارع العرب الى تأسيس «المنتدى العربي» وكانت أهداف المنتدى الظاهرة ، أهدافاً أدبية ثقافية ، ينصب نشاطها على القاء المحاضرات والقصائد وتمثيل المسرحيات • وكان القائمون على المنتدى العربي ، يختارون من المسرحيات والمواضيع كل ما من شأنه المساعده على ايقاظ الامة العربية على سالف أمجادها ويستحثها على النهوض والتقدم • والحق ان القومية العربية قد بدأت باستكمال تبلورها داخل المنتدى العربي ، حيث بدأ المثقفون العرب يفكرون بمنطق قومي ويناقشون مشاكل الامبراطورية العثمانية على ضوء مصالح الامة العربية • فلقد رأى العرب ان الارمن واليونان والبلغار وغيرهم من قوميات الامبراطورية العثمانية ، يضعون مصالح أممهم فوق مصالح الشعوب العثمانية ، ورأوا ان الاتراك يريدون عازمين على تأكيد المصالح التركية وتثبيتها على حساب شعوب الامبراطورية العثمانية ، لذلك نهج الواعون منهم ، مرغمين ، نهجا قوميا ، وأرغم المخلصون للعثمانية من العرب على التراجع أمام منطق القوميين العرب ومناقشاتهم ، ومن « المنتدى العربي » بدأ عزم الأمة العربية على ممارسة وجودها كقومية مستقلة ، تدين بالنظرية القومية الاوروبية ، فأصبحت منذ ذاك التاريخ جميع غايات ونشاطات الاحزاب والجمعيات العربية ذات جوهر قومي ولون عثماني فرضته ما تمليه السياسة من مناورات ومخاتلات • ومع أن الحزب اللامركزي العثماني ، الذي أسس في القاهرة في نهاية عام ١٩١٢ ، كان منهاجه ذا صبغة عثمانية ، لكنه كان في الواقع ، حزبا قوميا عربيا آمن بان « العثمانية » أصبحت عاجزة مشلولة • لذلك فان هذا الحزب كان حينما يطالب بتطبيق مبدأ اللامركزية في الولايات العثمانية ، يؤمن بان اللامركزية هي مرحلة حكيمة من مراحل البعث القومي العربي ، وتفرض الحقائق التاريخية علي ، أن أقرر ان موقف العسكريين العرب في تلك الحقبة لم يكن

موقفا يرد على التحدي بالتحدي ، وعلى الاستفزاز بالاستفزاز • فلقد أراد العسكريون العرب يومذاك أن يكونوا المخططين والمنفذين معا ، فاصطدم عزيز علي المصري وطه الهاشمي وياسين الهاشمي بالقادة السياسيين ، وصدام عزيز علي المصري وعبد الحميد الزهراوي مشهور وليس بحاجة الى ذكر او تفصيل • فلقد كان الساسة العرب ، في تلك الفترة ، من بعثنا القومي يصدرون في اعمالهم عن فكر فارادة ، أما العسكريون فكانوا يصدرون عن ارادة ففكر • ومنذ تلك الحقبة، حتى يومنا هذا ، لا يزال التوفيق بين العسكريين والساسة أمراً عزيز المنال بعيد المجال • ولا تزال نظرة الساسة الى العسكريين حتى اليوم ، كنظرة العسكريين اليوم الى الساسة ، اي انها نظرة عسكريي ١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢ • لقد كان العسكريون يريدون تشييد اسبارطة ، اما الساسة فكانوا يتوخون دمج اسبارطة في «أثينا» ، لايمانهم ، بأن قوة الفضائل الحضارية تتمثل في معطياتها الروحية لا في مادية القوة التي تملكها وتمارسها • لقد أراد العسكريون للقوة منطقا يترجمها ، وأراد الساسة للحق منطقا يفسره وزخما يجسده • لقد أراد العسكريون خالد بن الوليد ملكا وسلطانا وأراد الساسة عمر بن الخطاب خليفة وأميرا للمؤمنين وقائداً أعلى لكل قوة مسلحة •

ز ـ فراق لا تلاقي بعده :

وأخيرا ، وبعد طويل صبر ، انطلقت مواكب العروبة نحو اهدافها القومية • فتأسست في باريس عام ١٩١١ اقوى جمعية سياسية قومية عرفها تاريخ البعث القومي العربي ، وأعني بالجمعية ، جمعية « الفتاة » العربية • أما مؤسسوها فكانوا في معظمهم ، من أبناء العائلات المعروفة في كل من سوريا ولبنان وفلسطين • فكانت هذه الجمعية تضم الدمشقي ، جميل مردم ، الى اللبناني محمود المحمصاني الى الفلسطيني

عوني عبد الهادي ، وكان من أبرز اعضائها بالاضافة الى من ذكرت ، رستم حيدر « بعلبك » توفيق الناطور « بيروت » رفيق التميمي « نابلس » عبد الغني العريسي « بيروت » أحمد طبارة« بيروت » •

وكان من أهم أهداف هذه الجمعية تحرير الامة العربية من النير التركي ومن أية سلطة أجنبية أخرى • وقد نمت جمعية « الفتاة » العربية بسرعة مذهلة وضمت صفوفها الالاف من الأعضاء العاملين والمريدين والمحبذين • كما وعرفت بانضباط شديد ونظام دقيق وكانت ، منذ ولادتها حتى انحلالها ، سرية مغرقة في سريتها ، فلقد فضل شكري القوتلي أحد اعضائها ، الانتحار ، على افشاء سرها ، كما وان عبد الغني العريسي ، لفظ انفاسه الطاهرة على أعواد المشنقة دون ان ينبس ببنت شفة تهتك الستر عنها • وكان الانتساب اليها يخضع الى سلسلة من الاجراءات الطويلة المعقدة ، بغية الحفاظ على طابعها ونشاطها السريين • فكان العضو فيها ، اذا ما توسم الخير في أحد معارفه ، او اصدقائه ، يعرض اسم مرشحه ، دون اعلامه ، على الجمعية التي كانت بدورها تخضع المرشح لسلسلة من الاختبارات القاسية ، فاذا ما برهن المرشح على أنه جدير بالثقة ، وحائز على الشروط المطلوبة ، كاشفه صديقه ، بصورة غير مباشرة بالامر ، فاذا أبدى المرشح استعدادا وقبولا ، أطلع على سر الجمعية ثم ضم الى صفوفها •

اتخذت جمعية « الفتاة » من مدينة باريس مركزاً رئيسياً لها • وبقيت توجه نشاطات اعضائها من تلك المدينة طيلة عامين كاملين ، وفي عام ١٩١٣ رأى قادة الجمعية نقل مقرها الرئيسي الى مدينة بيروت ، حيث عادوا لينقلوه مرة أخرى عام ١٩١٤ الى دمشق •

وفي اليوم الرابع من نيسان عام ١٩١٣ وجه قادة جمعية الفتاة الدعوة الى جميع الهيئات والجمعيات والاحزاب العربية لعقد مؤتمر عام

في باريس • وقد لبت المنظمات العربية دعوة « الفتاة » فأوفد الحزب اللامركزي العثماني ، وجمعية الاصلاح ببيروت ، وغيرهما من المنظمات مندوبين عنها الى باريس • وفي اليوم الثامن عشر من شهر حزيران عقد المندوبون العرب اول اجتماع لهم في قاعة تقع في حي « سان جرمان » من مدينة باريس • وقد حضر الاجتماع ٢٤ مندوباً من أصل ٢٥ • وكان معظم المندوبين من أبناء سوريا ولبنان وفلسطين • وقد مثل العراق مندوبان ومثل المغتربين في الاميركتين ثلاثة ، كما وحضر الاجتماع ما ينوف على المئتين من المستمعين العرب واستمر الاجتماع ستة أيام كاملة •

عندما ترامى نبأ عزم الجمعيات العربية على عقد مؤتمر عام لها في باريس ، الى مسامع قادة جمعية الاتحاد والترقي الحاكمين في اسطنبول، بذلوا كل جهد لاحباط مسعى العرب لعقد ذاك المؤتمر ، فنظموا المظاهرات في طول البلاد العربية وعرضها ودفعوا بالمأجورين من أعوانهم لالقاء الخطب التهجمية على المندوبين ونعتهم بالخونة والمتآمرين والضالعين مع السلطات الاجنبية ، ثم ذهبوا في مسعاهم الى حد الضغط على الحكومة الفرنسية لتحول دون عقد المؤتمر على أرضها • لكن جميع مساعيهم هذه ، باءت بفشل ذريع ، لذلك اضطروا الى ارسال مدحت شكري السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي للتفاوض والمندوبين العرب الذين كانوا قد توصلوا الى الموافقة بالاجماع على النقاط التالية •

١ ــ اطلاق الحريات السياسية •
٢ ــ منح كل ولاية استقلالا اداريا واسعا •
٣ ــ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في مجلس النواب •
٤ ــ يمضي المجندون العرب مدة خدمتهم العسكرية داخل البلاد

العربية .

٥ ــ تقديم المساعدات المالية الى لبنان .

٦ ــ معاضدة الارمن في كفاحهم من أجل اللامركزية .

وبعد طويل مفاوضات استطاع مدحت شكري ان يصل والمندوبون العرب الى الاتفاق على النقاط الآتية :

١ ــ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٢ ــ استعمال اللغة العربية للتدريس في المدارس الابتدائية والثانوية .

٣ ــ حصر خدمة المجندين العرب في البلاد العربية .

٤ ــ تعيين ثلاثة وزراء من العرب في الحكومة المركزية .

٥ ــ تعيين خمسة من الولاة العرب .

اما قضية تطبيق مبدأ اللامركزية في الادارة ، فان مدحت شكري رفض الموافقة عليه جملة وتفصيلا ، ومع هذا اعتبر المندوبون العرب الاتفاق الذي وقعوه ومدحت شكري نصرا مبينا وظفرا عظيما ، فكلفوا ثلاثة من المندوبين بمرافقة مدحت شكري الى اسطنبول لوضع الاتفاق موضع التنفيذ . وعندما وصل المندوبون العرب الى اسطنبول نظمت لهم جمعية الاتحاد والترقي استقبالات حافلة ومظاهرات شعبية ضخمة للترحيب بهم ، وأقامت على شرفهم المآدب والحفلات . ثم أخذت تسوف وتماطل في استصدار مرسوم يضفي الصفة القانونية على تلك المطالب . وأخيراً عندما ألح المندوبون العرب على ضرورة الخروج من حيز القول الى حيز العمل استصدرت الحكومة التركية في الثامن عشر من شهر آب عام ١٩١٣ مرسوما ملكيا جاء نصه غامضا مشوشا متناقضاً مطاطا ، يسترد بيسراه ما تمنحه يمناه يتغاضى عن اللباب ويتوسع في بحث القشور ، فهو ينص على الموافقة على استعمال اللغة العربية

للتدريس في المدارس الابتدائية والثانويـــة ثم يعود فيقرر وجوب التدريس باللغة التركية في المدارس الابتدائية . والثانوية في عواصم الولايات . كما وأن المرسوم لم يتطرق أبدا الى النص على اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات . ولم يأت على ذكر عدد الوزراء العرب في الحكومة المركزية ، او يحدد عدد الولاة الواجب تعيينهم من العرب. وكان كل ما فعله قادة جمعية الاتحاد والترقي ان عينوا خمسة من العرب أعضاء في مجلس الشيوخ . وكان عبد الحميد الزهراوي أحد اولئك الخمسة . لذلك قوبل المرسوم الصادر في ١٨ آب باستياء عام من قبل الأمة العربية.وأدرك قادة جمعية «الفتاة» العربية عقم التعاون والتفاهم مع اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فأخذوا يتحينون الفرص للانتفاض على السلطنة العثمانية والتحرر من نير الاتراك ، وقد واتتهم الفرصة عشية اعـلان الملك حسين الاول الثورة العربيـة الاولى ، في تاريخنا الحديث ، على السلطنة العثمانية .

ح ـ العسكريون يبرزون الى الميدان :

لم تنحصر النشاطات السياسية الهادفة الى تحرير الأمـــة العربية بالساسة من المدنيين ، وانما تجاوزتهم الى العسكريـين العرب ايضا . ومن العجيب ، المستغرب ، أن يكون العسكريـون العرب ، وخـاصة الضباط منهم ، مع انتمائهم للطبقة الوسطى ، اعمق ولاء وأشد اخلاصا « للعثمانية » من رجال الساسة العرب الذين كان معظمهم ، ان لم يكن كلهم من ابناء العائلات ذات الاقطاعات الواسعة ، وذات التفكير والمنطق الاقطاعيين . فلقد علمنا التاريخ ، وخاصة قوانين الحضارة الاوروبيـة المادية، أن الطبقة الوسطى ، او بالاحرى البرجوازية الوسطى هي المولد الأساسي الفعال لكل حركة قومية او اتجـــاه قومي ، وأن الطبقـة

الاقطاعية هي أبدا ودائما بحاجة الى خليفة ، او بابا POPE تستمد منه قوتها الروحية وتنجذب دائرة في فلكه . ولكن تاريخ بعث الامة العربية وأحداثه تثبت بما لا يقبل الطعن ، ان ابناء الطبقة الاقطاعية من الأمة العربية ، لا أبناء الطبقة الوسطى هم الذين قادوا الصراع القومي للتحرر من نير تركيا ، حتى النصر . وأن الضباط العرب في الجيش العثماني ، والذين كان معظمهم من ابناء الطبقة الوسطى وقفوا في تلك الحقبة موقف المتردد حينا وموقف المناصر للعثمانية والمنافح عنها في معظم الاحيان . أسست اول جمعية سياسية عسكرية سرية عام ١٩٠٩ . وعرفت تلك الجمعية باسم الجمعية القحطانية وكانت تجمع في صفوفها بين العسكريين والسياسيين من المدنيين . اما مؤسسوها فهم : عزيز علي المصري (ضابط) سليم الجزائري (ضابط) أمين وعادل ارسلان (من لبنان) خليل حماده (من بيروت) أمين قزما (من حمص) صفوت العوا (ضابط من دمشق) علي النشاشيبي (ضابط من القدس) شكري العسلي (من دمشق) . وكانت أهداف هذه الجمعية لا تختلف في جوهرها عن اهداف معظم الجمعيات السياسية العربية الاخرى ، أي انها كانت تريد تطبيق مبدأ اللامركزية في الادارة على الولايات العربية ، مع الحفاظ على الروابط التي تشد هذه الأمة الى العثمانية ، لذلك كانت تنادي بضرورة قيام اتحاد فيدرالي بين الولايات العربية وتركيا والولايات العثمانية الاخرى . ولقد أرادوا ان يكون الناظم لهذا الاتحاد نظاما ثنائيا يجعل من السلطان ملكا على تركيا وخليفة على العالم العربي . لكن هذه الجمعية لم تعمر طويلا اذ ترامى الى علم قادتها ان أحد الاعضاء قد أفشى سرها الى السلطات العثمانية كما وأحس زعماؤها بالرقابة الشديدة المفروضة عليهم ورصد نشاطاتهم وتركوا الجمعية تموت ميتة طبيعية . خلفت هذه الجمعية جمعية العهد التي تعتبر بحق أقوى جمعية عسكرية سرية عرفتها المراحل الاولى من

بعثنا الحديث . وقد أسست هذه الجمعية عام ١٩١٢ على حد رواية عزيز علي المصري ، غير أن أمين سعيد يقرر انها تأسست في ٢٨ تشرين الاول عام ١٩١٣ ، أما جورج انطونيوس فيقول بانها انشئت عام ١٩١٤ . وقد رأى القائمون على جمعية العهد ، أن يجعلوا هذه الجمعية جمعية عسكرية صرفة ، بحيث لا تقبل في صفوفها أحدا غير الضباط العرب وذلك لايمان هؤلاء القادة عقب فشل الجمعية العثمانية، أن المدنيين ثرثارون وغير قادرين على المحافظة على سرية الجمعية .

وقد سعت هذه الجمعية ايضا ، كغيرها من الجمعيات للحفاظ على العثمانية كناظم ومؤلف بين الشعوب العثمانية ، فلم تكن ترمي ، قولا وفعلا ، الى الانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، بل كانت تريد انشاء اتحاد فيدرالي بين ولايات الامبراطورية . وبالفعل كاشفت بعض الضباط الاتراك المثقفين الذين كانوا يروون في نظام الاتحاد الفيدرالي الحل الصحيح للمشاكل العثمانية ، بمراميها وأطلعتهم على أهدافها واتفقت واياهم على ضرورة نقل عاصمة الامبراطورية من اسطنبول الى مدينة حلب .

اتسع نشاط هذه الجمعية فامتد من سلونيك حتى اليمن والحجاز. وكانت خلاياها السرية تضم الكثيرين من الضباط العرب في مختلف ارجاء الامبراطورية . ويقدر الدكتور حسن صعب [1] في كتابه « الاتحاديون العرب والامبراطورية العثمانية » عدد الضباط الذين انتسبوا اليها بـ ٣١٥ ضابطا بينما يقرر جورج كيرك في كتابه . «موجز تاريخ [2] الشرق الاوسط » ان عدد الضباط المنتسبين الى

---

(1) The Arab Federalists of the Ottoman EMPIRE. Dr. H. Saab.

(2) Short History of the Middle East : George kirk.

جمعية العهد تجاوز الاربعة الاف ضابط •

وكان معظم هؤلاء الضباط من العراقيين أمثال طه وياسين الهاشمي ومولود مخلص ونوري السعيد وجعفر العسكري وجميل المدفعي وغيرهم • وكانت اسطنبول المركز الرئيسي لنشاطات الجمعية • اما منهاجها فكان يتلخص بالنقاط الآتية :

١ ــ العهد جمعية سياسية سرية ، تأسست في اسطنبول ، هدفها تحقيق الاستقلال الداخلي للبلاد العربية ، شريطة أن تبقى هذه البلاد مرتبطة بالحكومة العثمانية ، ارتباطا يشابه الارتباط القائم اليوم بين هنغاريا والنمسا •

٢ ــ ترى العهد ضرورة الحفاظ على الخلافة كوديعة مقدسة بين أيدي العائلة العثمانية •

٣ ــ تؤمن العهد بأن اسطنبول يجب ان تبقى تاجا للمشرق ، لذلك لن تقوم للمشرق قائمة اذا ما أقدمت دولة أجنبية على اغتصاب هذه المدينة ، لذا فان جمعية العهد تتعهد بأن تركز جهودها للدفاع عن اسطنبول بصورة خاصة ، ولحفظ الأمن داخلها •

٤ ــ لما كان الاتراك قد أقاموا ، لستة قرون خلت ، الخطوط الأمامية للدفاع عن الشرق ضد قوات الغرب ، لذا يتوجب على الامة العربية أن تقدم القوات الاحتياطية للقوات المدافعة عن الخطوط الآنفة الذكر •

٥ ــ يتوجب على كل عضو في جمعية العهد ، أن يقوم بكل عمل من شأنه أن يمكن الفضائل ويوطد الاخلاق الفاضلة في نفوس الشعب • اذ أنه لا تستطيع أية أمة أن تحافظ على مزاياها القومية ، ما لم تعتمد الاخلاق الفاضلة لها موجها ومرشدا •

اننا اذا ما تعمقنا في دراسة النقاط الآنفة الذكر والتي تعطينا نظرة عامة عن منهاج جمعيـة العهد ، نرى ان الروح المشترعـة للمنهاج ، هي روح عثمـانية اكثر منها عربية • ولا غرو في ذلك فلقد كانت العقلية العسكرية هي التي أملت على قادة جمعية العهد اشتراع تلك المبادىء• وكان العسكريون يرون أن منطقة الشرق الاوسط تشكل وحدة دفاعية، وأن تركيا تعتبر الخط الامامي للدفاع عن العالم العربي • لذلك كـان يعتقد قادة العهد أن انهيار تركيا يعني اولا وأخيرا انتقال ميدان القتال الى البلاد العربية ، لهذا رأوا أن « العثمانية » وسيلة فعالة من وسائل الدفاع عن البلاد العربية ، وأن الحفاظ على الارتباط القائم بين تركيـا والبـلاد العربية ضرورة عسكريـة ملحة من ضرورات بقـاء الامة العربية • لذا كانت جمعية العهد ، وهي تدعو للقومية العربية ، تطالب في الوقت ذاته بانشاء اتحـاد اسلامي يشمل معظم أقطـار الشرق الاوسط • وبهذا كانت فلسفة جمعيـة العهد تنبع من المقومـات الستراتيجية لا مـن الارادة القوميـة ، وهـذا ما يفسر كون ولاء العسكريين العرب للعثمانيـة ، أشد وأعمق من ولاء الساسة العرب للامبراطورية العثمانية •

وقد اتخذ قادة جمعيةالعهد عشية اعلان الحرب العالمية الاولى قرارا يقضي بعدم الانتفاض والثورة على الدولة العثمانية قبل حصول الامة العربية على ضمانات كافية من الدول المتحالفة • كما وأن جمعية الهعد متعاونة وجمعية ، « الفتاة » العربية ، هي التي وضعت المشروع الـذي جرت على أساسه المفاوضات بين الملك حسين والسير هنري مكماهون المندوب السامي البريطـاني في مصر ، وهي ايضا التي رسمت حـدود الدولة العربية كما يلي :

شمالا : مارسين ـ أضنة ـ حتى خط العرض ٣٧ ومن ثم الخط

المحاذي للخط الممتد من بيرجك ـ اورفا ـ ماردين ـ ميديات ـ الجزيرة •

شرقـا : من حدود ايران حتى الخليج العربي •
جنوبا : المحيط الهندي (باستثناء عدن) •
غربا : البحر الاحمر ، والبحر الابيض المتوسط حتى مارسين •

لم تكن جمعية « الفتاة » تعلم بوجود جمعية العهد العسكريـة • وقد تعارف قادة الجمعيتين لاول مرة عـام ١٩١٥ في مـدينة دمشق ، حيث اتفقت الجمعيتان على تهيئة الثورة العربية • وكان المرحوم الملك فيصل الاول ، الامير فيصل آنذاك ، عضوا في كلتا الجمعيتين ، وكان هو الذي يقوم بـدور المنسق بينهما وبـين والده • وكانت السلطات التركية تشتبه بنشاطات بعض الضباط العرب وتشعر بان هناك تنظيما يضمهم داخل الجيش ، لكنها مع كل ما بذلته من جهود ومن بثتهم من جواسيس وارصاد ، لم تستطع أن تكشف سرهـا وأن تتعرف على الشخصيات العسكرية المنتمية « للعهد » • وكان عزيز علي المصري ، أحد القادة البارزين لجمعية العهد ، يجاهر بعدائه وبنقمته على الاتراك • لذلك أقدمت السلطات التركية في اليوم التاسع من شهر شباط عـام ١٩١٤ على القاء القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى ، ثم قدمتـه الى المحاكمة بتهم تسليم ليبيا الى الطليان لقاء رشوة ، وبمحاولـة انشاء مملكة عربية في ذاك القطر ، وأخيرا باختلاس أموال من خزانة الجيش فأدانته المحكمة وقضت عليه بالاعدام • وقد أثار الحكم باعـدام عزيز علي نقمة شديدة بين الضباط العرب ، وبخاصة المنتسبين منهم لجمعيـة العهد ، حيث اقسم هؤلاء على الانتقام لعزيز اذا مـا نفذ فيـه حكم الاعدام • كما وقامت مظاهرات شعبية ضخمة في القاهرة والاسكندرية تستنكر الحكم الصادر على عزيز وتطالب بالافراج عنـه • فتدخلت بريطانيا لدى السلطان وطالبت بالعفو عن عزيز وكتبت جريدة «التايمز»

في عددها الصادر في ٩ نيسان عام ١٩١٤ مقالا افتتاحيا دافعت فيه عن عزيز علي المصري واستنكرت الحكم الصادر عليه ، وضمنته تهديدا صريحا لتركيا ، وكان مما جاء في جريدة التايمز قولها :

« اذا ما تطور الظلم الذي نزل بهذا الضابط العربي الشهم « عزيز المصري » فأصبح قتلا قضائيا ، فان العلاقات بين الحكومة العثمانية وبين مصر ستتأثر تأثرا خطرا ، وربما ستمتد خطورته لتشمل علاقات تركيا ببلد آخر غير مصر . »

كان للحملة الشعبية والرسمية ، للافراج عن عزيز علي ، الأثر المطلوب ، فأعلن السلطان في اليوم الخامس عشر من نيسان تخفيض عقوبة الاعدام الى السجن مع الاشغال الشاقة مدة خمسة عشر سنة ثم عاد ليستصدر في ٢١ نيسان مرسوما آخر يعفيه من العقوبة، فافرج عن عزيز علي المصري وغادر اسطنبول عائدا الى القاهرة ، ليلتحق فيما بعد بجيش الثورة العربية .

ط ــ الثورة العربية وجمعية العهد :

من المؤسف ان جيلنا الحاضر يريد أن يتنكر لماضينا وأن ينكر جهود وجهاد من تقدمنا من الآباء والاجداد على دروب البعث القومي ، ويريد أن يعتبر أن حضارتنا تبدأ به ، وأن كل ما ننعم به من حرية واستقلال وزخم اقتصادي واجتماعي ، انما يعود الفضل فيه كله الى هذا الجيل. ومن المؤلم أن نرى أنفسنا نحن معشر الشباب نفصم ظلما وبانفعال هستيري ، كل رابط يشدنا الى ماضينا ، وهذا هو السبب الاول والاخير للضياع والقلق اللذين نعانيهما ، لاننا لا نعرف لنا منطلقا أصيلا ذا قاعدة ثابتة نستطيع أن نعود اليها اذا ما ضلت بنا وتشاعبت الدروب ومفارق الطرق ، لنعاود الانطلاق من جديد ونحن لن نتمكن

من الافلات من دوامات الضياع والشفاء من نوبات القلق الا اذا فتحنا أعيننا على انجازات من تقدمنا واستطعنا أن نرى الايجابية فيها قبل السلبية ، والصالح منها قبل الطالح . ثم آمنا أخيرا بان كل حركة هي حركة تقدمية ما دامت قادرة على العطاء ، وكريمة في تزويد الجماهير بالغذاء الروحي والشجاعة الادبية في صراعها من أجل الحق في الحياة. وأن ما كان تقدميا في الامس قد يصبح رجعيا اليوم ، وأن هو تقدمي اليوم يمسي رجعيا غدا ، لكن انجازات الأمس ، كانجازات اليوم وانجازات الغد ، تشكل لبنات في صرح الحضارة الانسانية الذي لن يعرف البناء فيه توقفا او جمودا .

لقد أردت ان ابدأ بحثي الانف الذكر بهذه المقدمة ، لعلمي بالظروف الخطرة المحيطة بكل من يريد أن يجعل الموضوعية التاريخية المجردة ، دستوره في التقصي والبحث المنطقيين المدعومين بوجدان حي وضمير انسان . فالملك حسين الاول غفر الله له ، نعم الملك حسين الاول ، هو الذي أنزل بالعثمانية الضربة القاضية وفصل القومية العربية عن الاسلام ووجه جميع العقائد والافكار والنزعات والتيارات وجهة قومية رأت في اطراح « العثمانية » وتحطيم الاغلال التركية سبيلها الى الحياة والتكامل . وهو لذلك يعتبر أول سياسي عربي مسؤول ارسى القواعد الاساسية للدولة الحديثة ، هذه القواعد التي تنادي جميعها بوجوب فصل الدين عن الدولة والقانون عن الشرع . فلقد نشر الشريف حسين في جريدة « القبلة » المكية وفي أحد اعدادها الصادرة عام ١٩١٨ خطابا كان قد بعث به الى أحد أصدقائه ، وقد وردت في ذاك الخطاب الفقرة التالية :

« منذ أن تبوأت سدة الامارة وضعت أمام عيني هذا الغرض الاسمى ، ألا وهو تحرير العرب ، فلم أدخر وسعا لتحقيق هذه الغاية .

ومن أجلها وطدت العلائق بيني وبين كبار القبائل العربية ، ومما يدلك على عظيم مجهوداتي ، اشتراكي في حملة عسير ، عندما ارسلت قوة مسلحة بقيادة ولدي عبدالله لرد الغزوة التي قام بها الامير بن الرشيد، بايعاز من الاتراك ، على الامير بن سعود . »

مما ورد يتضح ان الملك حسين الاول ، كان عربيا قبل أن يكون مسلما ، وكان قوميا وجد أن القومية تفرض عليه اطراح العثمانية ، واعتبارها مخدرا للحس القومي ، ومعطلا للركب العربي المنطلق الى تجسيد قوميته في دولة قومية . ولا غرو أن يتأثر الحسين بالقومية وأن يدين بها مذهبا ووسيلة لتحقيق الوجود وممارسته، فلقد أمضى الحسين ما يقارب العشرين عاما وهو رهينة معززة مكرمة في بلاط السلطان عبد الحميد في اسطنبول . وأحس بكل مشاعره بعنف التيارات القومية التي كانت تجتاح يومذاك الامبراطورية العثمانية ، وآمن بان هذا المزيج العجيب الغريب من القوميات والولايات التي تشكل ما يعرف بالامبراطورية العثمانية ، هو مزيج متعارض متناقض يعيش ضد أبسط قوانين العصر ، ويكبل الامم والشعوب داخل الامبراطورية العثمانية بأغلال ثقيلة تمنعها من التطور وتحول بينها وبين الاخذ باسباب الرقي والحضارة . كما وشاهد بأم عينه الحركة القومية التركية تنمو ويشتد ساعدها وتفرض وجودها كقوة تعتمد مبدأ التمييز أو بالاحرى التفرقة العنصرية ، لها دستورها وقانونها . لذلك آمن بأن العثمانية قد استنزفت كل اسباب وجودها ، وانها مذهب فاشل لربط الولايات بعضها ببعض والقوميات الواحدة منها بالاخرى.وأدرك بحسه أن القوميين الاتراك ، يتخذون من العثمانية مبررا لاذلال القوميات الاخرى واستعمار الولايات المرتبطة بتركيا . فاذا أضفنا الى الاسباب الانفة الذكر ، مرارة من يشعر بانه رهين سجين ، نفهم عندئذ السبب الذي دفع بالحسين منذ اليوم الاول لاستلامه منصب أمارة مكة الى

السعي الحثيث لتحرير العرب من الطغيان التركي ، وسلوكه كل درب ، من مفاوضات ، الى تآمر ، الى دسائس ، الى مخاتلة ، فالثورة لتحقيق هذه الغاية . لذلك كلف ابنه فيصل بالاتصال بالجمعيات السياسية والعسكرية في كل من سوريا ولبنان واسطنبول ، وارسل بابنه عبدالله الى مصر ليفاوض اللورد كتشنر وغيره من المسؤولين البريطانيين للانتفاض والثورة على الامبراطورية العثمانية . وقد قام فيصل بالاتصال بقادة جمعية العهد العسكرية ، لكن قادة هذه الجمعية وضعوا الكثير من الشروط والتحفظات ، غير أنهم وتحت ضغط رجالات جمعية « الفتاة » العربية اضطروا عام ١٩١٥ للموافقة على مبدأ الثورة على الامبراطورية العثمانية . وقد جرت تلك المفاوضات في مدينة دمشق . وكانت تعسكر حينذاك في سوريا ولبنان ثلاث فرق عسكرية عربية ، فرقتان في محافظة دمشق وفرقة في محافظة حلب . وقبيل نشوب الثورة طلب الحسين من قادة الفرق الثلاث القيام بانقلاب عسكري وفصل سوريا ولبنان عن تركيا وتحرير فلسطين من بعض الافواج التركية المسيطرة عليها ، لكن القادة العسكريين العرب اشترطوا للقيام بالانقلاب أن تنزل بريطانيا قوات عسكرية ضخمة في الاسكندرون ولوائها كي تساند تلك القوات الفرق العسكرية العربية وتحول بينها وبين قوات تركية تزحف من تركيا لاستعادة سوريا ولبنان وفلسطين . فاتصل الحسين بالانكليز وعرض عليهم مخططه للانقلاب العسكري في سوريا ، وطلب اليهم انزال قوات بريطانية في الاسكندرون ، لكن بريطانيا كانت يومذاك تعد عدتها لغزو الدردنيل وتوجيه الضربة الى تركيا ، قلب الامبراطورية العثمانية ، لذلك لم تستجب بريطانيا الى مطلب الحسين ، ولم يقم العسكريون بانقلاب في سوريا . والحق ان العسكريين العرب تخلوا منذ تلك اللحظة عن الثورة العربية ، واندفعوا يقاتلون تحت لواء العثمانية ، أما من التحق بالثورة العربية من

الضباط فكان معظمهم أسرى حرب في معسكرات الاعتقال البريطاني، ومن المؤلم أن الضباط العرب في الجيش العثماني هم الذين وطدوا سيطرة تركيا على سوريا ولبنان وفلسطين أثناء نزول القوات البريطانية في الدردنيل ، فلقد ورد في الصفحة ٣٥٣ من مذكرات أحمد جمال باشا ما نصه بالحرف الواحد :

« تلبية لرغبة القيادة العليا ارسلت الى الاستانة الفرق الثامنة ، والعاشرة ، والخامسة ، والعشرين ، ثم لحقت بها فصائل الرشاشات باسرها ، كل ذلك ، في حين ، لم يبق تحت امرتي سوى فرقتين من العرب وكتيبة من متطوعي المولوية الدراويش ، ولكن نظرا للثقة التي وضعتها في الاهالي لم أتردد في أن أنيط بالجنود العرب سلامة البلاد واترك المناطق الساحلية بلا رقابة او حراسة .»

ثم يعود جمال باشا ليفضح الموقف السلبي الذي اتخذه العسكريون العرب من اعدام القادة الاحرار الذين علقهم السفاح جمال قبيل الثورة العربية على أعواد المشانق في كل من دمشق وبيروت والقدس . اذ يقول جمال باشا في الصفحة ٣٦٨ من مذكراته ما يلي :

« لم يكن في سوريا اذ ذاك (حين محاكمة واعدام الاحرار العرب) من الجنود سوى الكتائب العربية ، فلو خطرت لهذه الكتائب فكرة التمرد ، لما كان لدي من وسيلة لكبح جماح الثورة . فمعركة الدردنيل كانت يومذاك تدور بمنتهى العنف والشدة ، وكان سحب كتيبة ، فضلا عن فرقة ، من تلك الجبهة أمرا غير مستطاع ان لم يكن مستحيلا . »

ولا يسعني وأنا استعرض هذا الواقع الأليم المفجع الا أن أندد

بموقف شخصيتين من الشخصيات العربيــة هما أسعــد الشقيري [1] ، مفتي الجيش وكامل الاسعد زعيم الجنوب ، فجمال يقرر في مذكراته ان اسعد الشقيري جاءه في اواخر شهر حزيران وأعلمه بأن هناك ثورة تعد في سوريا وانه استقى معلوماته من كامل الاسعد ، زعيم الجنوب، فاستدعى جمال باشا كامل الاسعد الى القدس ، فأطلعه المذكور على أن رضا الصلح وعبد الكريم الخليل يعدان العــــدة لاشعال الثورة في قضاءي صور وصيدا ٠

ومن الطريف المفجع الطرافة ، أن الشيخ بـــدر الدين الحسني ، عندما جاء برفقة وفد ليتوسط لدى جمال باشا للعفــو عن المحكومين أن أفتى هذا الشيخ ، قائلا :

« لقد ورد في كتابه العزيز قوله :

انما جزاء الذين يحاربون الله ورسولــه ، ويسعون فــي الارض فسادا أن يقتلوا او يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم مــن خلاف ، او ينفوا من الارض ٠ »

كان علي ان أمر بذكر هذين الحدثــين المؤلمين ، خيانــــة أسعد الشقيري ، وكامل الاسعد ، وفتوى الشيخ بدر الــدين الحسني ، في الاحكام التي صدرت على اولئك القادة الابرار الاحرار الذين لفظوا أنفاسهم الطاهرة وهم يهتفون بحياة القومية العربية ، اذ أن للتــاريخ أحكامه المطلقة في عدالتها ، وان حاول البعض وحــالت الظروف دون اشهارها ٠

أما العسكريون العرب ، فان أحداث الثورة العربية ، لم تلق منهم

(1) Memories of a Turkish Stateman : Ahmad Djamal Pasha : Hutchinson, London, PP. 206

سوى أذن صماء ، وقلب ان نبض فانما ينبض فرحا بانتصار عثماني او ألما لهزيمة نزلت بالعثمانية • لقد برهن العسكريون العرب في تلك الحقبة التاريخية على أنهم عسكريون لا ثوار ، وهناك كبير فرق بين العسكري والثائر ، فالعسكري لا يقدم على خوض أي صراع ما لم يقتنع بأنه قد استجمع كل أسباب النصر، أما الثائر فانه يضع روحه على كفه ويقدم غير هياب او وجل ، وذلك لان الثائر يستمد قوته من أيمان عميق أصيل بأمته والانسانية ، ايمان يحطم كل قاعدة وعرف ويسمو فوق كل الاعتبارات المادية لانه وطيد القناعة بان للثورة المظفرة الظافرة سلاحا وحيدا أحدا هو الايمان بعدالة القضية وبنبل الغاية التي يصارع في سبيلها ، وذلك ليقينه الراسخ أن الخير أقوى من أن يهزم وأن الشر أضعف من أن ينتصر •

لقد أراد الساسة العرب في تلك الحقبة المشرقة من تاريخنا أن يجعلوا من العسكريين العرب ثوارا ، وأراد العسكريون أن يصنعوا من الثوار جنودا ، لذلك لم تلتق ارادة الساسة بارادة العسكريين ، فاشمأز اولئك من تردد هؤلاء ، وسخر هؤلاء من سخف اولئك ، واعتقدوا بأن الثورة العربية مقضي عليها بالفشل ، وان ابطالها سيلقون عما قريب مصير من أعدموا في ساحات دمشق وبيروت والقدس ، لكن الايمان الفاعل في القدر والمروض له خيب ظن هؤلاء واثبت ان النصر في الثورات لن يكون أبدا من نصيب القوي الماهر ، وانما هو وقف أبدي على المؤمن المغامر الجريء • لقد أرادها الساسة ثورة على الاتراك ، وارادها العسكريون حربا عليهم ، لذلك انتصر الساسة وانتصرت الثورة ، لان طبيعة المرحلة التي كانت تجتازها الامة العربية آنذاك كانت ثورية بكل ما لكلمة الثورية من معنى ومفهوم، ولو أن الساسة حينذاك أذعنوا لمشيئة العسكريين وسلكوا السبيل التي أرادوها لهم لما نشبت حرب او ثورة ، لان قانون استجماع القوى واعدادها وحشدها،

هذا القانون الحديدي الذي يخضع له العسكريون ، لم يكن في تلك الفترة ممكن التطبيق ، وكانت كل الظروف السياسية تجعل تطبيقه أمرا مستحيلا • لقد نجحت الثورة في تحقيق مبادئهـا الاوليـة وارساء القواعد الثابتة للقومية العربية ، واصبحت القاعـدة التي انطلقت وتنطلق منها القومية العربية عـلى سبل التحرر السياسي والعـدل الاجتماعي ، والايمان بالله والانسان ، مهمـا انتكس الركب ومهما ضلت بنا الطريق • ولا يسعني قبل أن أختتم هذا الفصل الا أن أشيد بمجهودات الضابط العراقي الثائر مولود مخلص ، هـذا العربي الأبي الشهم النبيل ، الذي كان ، وبحـق ، يمثل الثـائر العربي الاصيل ، ويصدر في كل أعماله عن ايمان عميق بالقومية العربية وبحق أمتـه في التحرر والاتحاد •

الفصل الثاني

ما بعد الحرب العالمية الأولى.

٢ ــ الثورة العربية ما لها وما عليها :

استقبلت دمشق في الثلاثين من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨ فيصل وجيوشه استقبال الفاتحين • وبدا للامة العربية في اقطارها الاسيوية ، أن الولايات العربية المتحدة أمست أمرا واقعا وفي طريقها الى تشكيل كيان دولي مستوف لكل الشروط • لكن آمال العرب لم تعمر طويلا فما كادت تدخل حيز الحقيقة، حتى تهاوت وانهارت تحت وطأة الاستعمار وثقله • فبدت فرنسا وبريطانيا تناوران وتحاوران بغية تطبيق اتفاقية « سايكس ــ بيكو » • وكانت هذه الاتفاقية التي وقعها « سازانوف » وزير خارجية روسيا القيصرية ، تعتبر الامبراطورية العثمانية ، في كل ولاياتها ، أسلابا حربية ، وتنظم توزيعها على الدول الاستعمارية الثلاث ، بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية • لذلك ما كاد فيصل الاول يتبوأ سدة العرش في سوريا حتى أدرك الاخطار والمهالك التي تحيط بمملكته الفتية ، فحاول بالحسنى أن يصل الى اتفاق مع لندن وباريس يصون استقلال مملكته ويحافظ على وحدتها • فطار الى لندن ليذكر بريطانيا بوعودها وعهودها ، وطار الى باريس ليعبر « لكلمنصو » عن نواياه الطيبة واستعداده للتعاون وفرنسا الى أقصى حد مستطاع أو غير مستطاع • وذهبت به مساعيه الحثيثة الى حد ابرام اتفاق وحاييم وايزمن ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية آنذاك ، ورئيس ما عرف

بدولة اسرائيل فيما بعد • وكان الاتفاق الذي وقعه فيصل الأول وحاييم وايزمن يعترف ، بوضوح وجلاء ، بفلسطين وطنا قوميا لليهود ويقول بضرورة التعاون بين اليهود والعرب للعيش معا في سلم ووفاق دائمين • وقد علق فيصل تنفيذ الاتفاق العربي الصهيوني على تطبيق المشروع الذي قدمهالى كل من وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية•

ولكن جميع ما بذله فيصل من جهود ومساع ذهبت به رياح الاستعمار وبددته عواصف المطامع بددا بددا ، فتهاوى عرشه في سوريا واندثر ، ودخل الجنرال غورو دمشق ، ليقف امام ضريح صلاح الدين وليخاطبه بغرور لئيم قائلا : « ها أننا قد عدنا يا صلاح الدين • »

والحق ان العسكريين ، وعلى رأسهم يوسف العظمة ، قد فرضوا الحرب على فيصل فرضا • فلم يكن فيصل يريد حرب فرنسا ، ولم يكن يؤمن بجدواها ، وانما كان يرغب رغبة أكيدة في الوصول الى اتفاق ، او معاهدة تبقي عليه ملكا على سوريا وتوطد النفوذ الفرنسي في سوريا • لقد كان فيصل يومذاك قد استهلك قواه الثورية وبدا يدرج على سبل المحترفين من الساسة ، لذلك كان يستهدف في كل اعماله الحفاظ على عرشه ، وابعاد كل خطر يحيق بتاجه او يهدده • لكن فرنسا لم تكن تريد ان تبقي سوريا مملكة ، تحكمها من وراء ستارالعرش وبمخالب فيصل ، وانما كانت قد عقدت العزم على حكم سوريا حكما مباشرا واعتبار هذا البلد مستعمرة فرنسية تصول فيها وتجول كيفما ترغب وتشاء • لهذا دفعت ببعض المأجورين الى القيام بمظاهرات تنادي باعلان الحرب على فرنسا ، وشهدت محافل سوريا وانديتها الذهب الفرنسي يوزع يمنة ويسرى لتعبئة الشعور العام ضد فرنسا وفرض الحرب على فيصل وجيشه فرضا • أضف الى ذلك أن عددا عديدا من الوطنيين الاحرار ، الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بمضاء الروح

الثورية ، رأوا أن في حرب فرنسا وفي الهزيمة العسكرية أمام جيوشها اللجبة ، عملا أسمى في نبله من الاستسلام ، واسطع اشراقا من الاذعان والخنوع للمطالب الفرنسية والاستعمار الفرنسي ، وهكذا التقى الخونة بالمخلصين حول هدف واحد ألا وهو اشهار الحرب على فرنسا .

فكان ما كان ، وحدث ما حدث . لكن لتلك الفترة من تاريخنا أهمية خاصة ، ففيها انقسم الثوار العرب الى معسكرين يختلفان على وسائل الصراع وأساليب الكفاح ، فكان يتزعم المعسكر الاول ابراهيم هنانو وسعد زغلول والحاج أمين الحسيني وعبد المحسن السعدون ورياض الصلح ، وكان هؤلاء يقولون باللجوء الى الثورة ، واعتبار الثورة ضد الاستعمار الوسيلة والاسلوب الوحيدين للنضال . اما المعسكر الثاني فكان يتزعمه ، فيصل الاول وأخوه عبد الله ونوري السعيد ، وكان هؤلاء يرون السير وفقا لمبدأ : خذ ! وطالب ! الوسيلة الايجابية الفعالة لحصول العرب على استقلالهم . وهذا الامر ليس بغريب او مستغرب من أمثال هؤلاء القادة ، فلقد كانوا قد استنزفوا قواهم الثورية عقب دخولهم دمشق ، ولم تستطع الثورة العربية الاولى أن تبعث في نفوسهم الثقة بالجماهير العربية والاعتماد عليها كقوة ضاربة فعالة حاسمة . لذلك فان نظرتهم الى المستعمرين الجدد من بريطانيين وفرنسيين لم تتبدل في جوهرها عن نظرتهم الى المستعمرين الاتراك ، حيث بقي الخوف والهلع ، والرغبة في المحافظة على امتيازاتهم ، تشكل المبادىء الاساسية لنضالهم . لقد تعودت هذه الفئة على أن تفتش عن أسباب القوة خارج بلادها وأمتها ، لا أن تلتمس هذه الاسباب داخل بلادها ولدن أمتها . وفي هذا يكمن سر النكبات المتوالية التي نزلت بها في سوريا ومصر والعراق .

وقبل أن أختتم هذه الفقرة ، أرى لزاما علي ان اقرر ، أن الثورة العربية الاولى ، قد أسدت ، من الوجهة المعنوية خدمات جليلة لقضايا

التحرر العربي ، فلقد أثبتت هذه الثورة ، بما لا يقبل النقض ، أن الحس الجماعي في الامة العربية حس سليم رهيف مرهف ، وان القرون الطويلة من عهود استعمار بدائي ، لم تستطع أن تردم منابع الحس القومي او ان تعطله عن الانفعال والتفاعل . فلقد اشترك ، في الثورة العربية الاولى ، العراقي والسوري والحجازي والفلسطيني واللبناني والمصري ، وخاضوا غمراتها جنبا الى جنب . أضف الى ذلك أن الثورة العربية ، هي التي جعلت ، فيما بعد ، استقلال سوريا ولبنان ومصر والعراق امرا ممكنا ، لانها نظمت جهود الامة العربية وفقا للعقيدة القومية وصانتها من التشتت والضياع ، لذلك أؤمن بأن الثورة العربية الاولى ، مع كل ما على قادتها من مآخذ ، هي خطوة جبارة في ميدان التحرر السياسي العربي، ولبنة ضخمة في صرح القومية العربية وبداية مجيدة لكفاح الامة العربية ضد الاستعمار والصهيونية العالمية والتخلف في ميداني الاجتماع والاقتصاد . كما انها مرحلة بالغة الاهمية من مراحل الطريق الى انشاء الولايات العربية المتحدة، واقامة صرح الاتحاد الاسلامي ، وتحقيق اول نظام اممي يستند الى الحق والخير والجمال.

الانقلابات العسكرية في العراق وسوريا :

انتهت الحرب العالمية الاولى بانتصار الحلفاء وهزيمة المانيا والنمسا وتركيا . فاحتلت بريطانيا العراق وفلسطين . وارتجلت في الاردن دولة تخضع لانتدابها ، وعززت قواتها العسكرية في مصر ودعمت سلطانها في ارض الكنانة . وأبقت المشيخات في الخليج العربي وعلى سواحل المحيط الهندي مستعمرات ومحميات . وفتحت ابواب الهجرة اليهودية الى فلسطين . ثم أخضعت فرنسا لبنان وسوريا لانتدابها وتابعت استعمارها لتونس ومراكش والجزائر . وبقيت ايطاليا تحكم ليبيا حكما مباشرا ، أما السودان الحبيب ، فظل مستعمرة

بريطانية ومزرعة للقطن تستغلها الشركات البريطانيـــة من وراء ستار الاتفاقية الثنائية • وهكذا استيقظ العرب ، في اعقاب الثورة العربيـة الاولى ، ليروا بلادهم نهبا لاستعمار امبريالي بريطاني فرنسي ايطالي • وقد عمد الاستعمار الامبريالي الاوروبي الى تنفيـذ مخطط رهيب في الاقطار العربية • وكان هذا المخطط يهدف في كلياته وجزئياتـــه الى الحيلولة ، مستقبلا قريبا أو بعيدا ، دون قيـــام اتحاد فيدرالي ، او كونفدرالي ينتظم الامة العربية في دولة عربيـــة اتحاديـــة • فأخـذت الروح الامبريالية توجه اقتصاد كل قطر عربي وجهة من شأنها أن تبقي الاقتصاد العربي اقتصادا متشتتا فتمنع بذلك قيام سوق عربية واحـدة وتعليق مثل هذه السوق ، كي يلحق الاتحـاد بين قطر عربي وآخـر الضرر البالغ بكلا القطرين ، لان اقتصاد كل منهما بعيد كل البعـد عن مبدأ التكامل • ثم أخذ الاستعمار يدعم هذا المنهاج الرهيب بحمـلة دعاوية ترمي الى تغذية الانانيات الاقليمية وصبغ قومية الشعب العربي في كل اقليم بالصبغة الاقليمية • فعرفت اللغة العربية لاول مرة قومية سورية ، وأخرى « فينقية »وثالثة فرعونية ، ورابعة مغربيـــة وخامسة سودانية الخ ••• وكانت كل هـــذه الاسماء والمسميات تستهدف اولا وأخيراً طمس لفظة « عربي » واطراح مفهوم العروبة من أذهان الشعوب العربية وأفئدتها • كما أقامت القوى الامبريالية الحدود والحواجز بين كل قطر وآخر ، وأصبح لكل بلد عربي حكومته الخاصة وادارتـــه الخاضعة لتوجيهات المستشارين • وحـاولت فرنسا في المغرب العربي أن تقطع كل صلة قومية من روحية أو مادية ، تشد بلدان المغرب العربي الى الاقطار العربية الاسيوية • فلم تكـد تمضي بضع سنوات حتى أخذت الأمة العربية ، في مختلف اقطارها ، تجابه ، نتيجة لهذه السياسة الامبريالية الآنفة الذكر ، اوضاعا أسوأ بكثير من الاوضاع التي كانت تعانيها ابان عهود الاستعمار التركي ، اذ ان الاوضاع التي نشأت عـن

الاحتلال الامبريالي الغربي ، كانت اوضاعا ، يترتب على سيطرتها ، تفتيت الامة العربية وتدمير القومية العربية كقوة جاذبة للتآخي والتعاون ، وتوزيع العرب الى شعوب ذات قوميات مستقلة متنافرة متعارضة . غير أن روح التحرر اذا ما دبت في أمة من الامم ، فعندئذ يصبح من المستحيل على القوة المادية العارية ، مهما اتسمت اجراءاتها بالقسوة والعنف ، واسترشدت خطواتها بالخبث والمخاتلة والدهاء ، أن تطفىء جذوة التحرر وتخمد نيران الثورة والتمرد في نفس الامة وضميرها . لذلك انطلقت مواكب العروبة في كل قطر تناضل ضد الاستعمار وتصارع ايدولوجياته القومية السقيمة وتصرع المذاهب التي أراد لكل شعب عربي أن يعتقد بها ويؤمن . فكانت الثورة الشعبية الكبرى في مصر ، وكانت مواقف البطولة الرائعة المشرفة التي وقفها اول جيش عربي عرفته الامة العربية بعد زوال مجدها ، في ميسلون ، وكانت الثورة العظمى في العراق ، وكان عرش فيصل الاول فيه ، وكانت الثورة الكبرى في سوريا ، وكانت الثورات الدامية في فلسطين . وهكذا تتابعت مشاهد البطولة في كل بلد ، وتتالت قوافل الشهداء في كل قطر .

كان العراق اول بلد عربي عرف الانقلابات العسكرية في تاريخنا الحديث . وذلك لان العراق كان عقب الحرب العالمية الاولى البلدالعربي الوحيد الذي يملك جيشا ينسجم ضباطه وجنوده والاماني القومية ويساير رغبات الامة العربية في التحرر والاتحاد . والحق أن الجيش العراقي ، كان في تلك الحقبة التاريخية من بعثنا القومي الحارس الامين للانجازات الشعبية ، والمولد للنشاطات القومية داخل العراق ، والمعاضد للقوميين العرب في كل بلد عربي آخر ، والى الجيش العراقي يعود الفضل كل الفضل في صيرورة العراق ، طيلة المرحلة الفاصلة بين

الحربين العالميتين الاولى والثانية ، القاعدة الرئيسية للقومية العربية المتحررة والمنافح الاول عن كل قضية عربية في اي قطر عربي • وكان للمواقف المشرفة التي وقفها جيش العراق من الصراع العربي في كل من سوريا وفلسطين وغيرهما من الاقطار العربية الاثر البالغ في توطيد مفاهيم القومية العربية في أذهان الامة العربية وأفئدة شعوبها فالجيش العراقي هو وحده الذي حافظ في تلك الفترة المظلمة من تاريخنا على الروح الثورية في الامة العربية ، وحال بينها وبين الهزيمة امام جحافل اليأس والقلق والضياع ، وهو الذي فتح عيون الامة العربية على مناهج الاستعمار الخبيثة وعلى نواياه السيئة وفضح العملاء والخونة من قادة العرب يومذاك ، وخطط للامة العربية سبيلها الثوري ، وحدد لها أهدافها القومية ، وأراد للسياسة والساسة أن يرتفعوا في أعمالهم فوق الانانيات والمصالح الشخصية والامتيازات الطبقية ، لذلك فان الجيش العراقي كان في تلك الحقبة من تاريخنا الحديث جيشا شعبيا يؤمن جنوده وقادته ، بأنهم ملك للشعب العراقي وللامة العربية ، لا قوة تلهب بسياطها ظهور الشعب بغية توطيد سلطان حاكم او فرض جبروت طاغية يرى في التبعية والقيصرية طريق الامة العربية الى انشاء الولايات العربية المتحدة ، وهكذا أمسى جيش العراق جيش ثوار اصلاء في ثوريتهم لا جيشا من جنود وعساكر يؤمرون فيطيعون دونما مناقشة او محاكمة • والحق ان تدخل الجيش العراقي في تلك الفترة في السياسة كان خيرا وبركة ونعمة من النعم الجزيلة التي من بها الله على الامة العربية في كل اقطارها •

ونحن نستطيع ان نرد الانقلابات العسكرية في العراق الى الاسباب الاربعة التالية :

١ ــ الحفاظ على القومية العربية •

٢ ــ تسليح الجيش العراقي

٣ ـ الثورات العربية التحررية في كل من سوريا وفلسطين .

٤ ـ استسلام الفئة الحاكمة للاستعمار البريطاني ، او تزمتها في التقيد بمبدأ « خذ وطالب ! »

١ ـ الحفاظ على القومية العربية :

يقول لورنس ، في كتابه أعمدة الحكمة السبعة ما ترجمته :

« لو اننا كنا نؤمن (نحن معشر البريطانيين) بأن اضرام الثورة العربية ، سيؤدي الى قيام دولة عربية قوية في هذه المنطقة ذات الاهمية الحيوية في العالم، لترددنا طويلا قبل ان تقدم على مثل تلك المحاولة.»

هذا ما يقوله لورنس ، لكن الاستعمار البريطاني سرعان ما ادرك ان القوى القومية التي استيقظت في مطلع القرن العشرين ومارست وجودها ممارسة فعالة في الثورة العربية الاولى ، هي في نمو متزايد وتقدم مستمر في جميع الاقطار العربية الممتدة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . لذلك ركز الاستعمار كل جهوده على تفتيت هذه القوى وتشتيتها بغية تأمين اسباب البقاء لاحتكاراته البترولية ومشروعاته الاستثمارية ، والحفاظ على قواعده العسكرية ، وتدعيم نفوذه السياسي في هذه البقعة من العالم ذات الاهمية الستراتيجية البالغة الخطورة . وهذا مما دعى الاستعمار البريطاني الى ضرب القومية العربية بالصهيونية العالمية في فلسطين . اما في العراق فانه سعى اولا الى اضعاف هذا البلد العربي بواسطة اشاعة الانقسام والخلافات بين عناصر الشعب العراقي ومذاهبه . فأخذ يغذي الانانيات القومية ويدفع بها الى الاصطراع والصراع . وعندما لمست بريطانيا ان الجيش العراقي بدأ يملك بعض اسباب القوة دفعت بالاشوريين الى الثورة بغية استنزاف قوى الجيش العراقي الفتي، وخلق المبررات لوجود قوتها

في العراق وزرع الاحقاد والغضب سدودا تحول دون تضافر جهـود شعب العراق على التحررمن الاستعمار. غير ان الجيش العراقي الباسل سرعان ما أخمد تلك الثورة واجتث جذورها وقضى على أسبابها وضرب على ايدي المأجورين بقسوة وعنف ، فأعاد الامور الى نصابها وأبقى بذلك العراق الرئة الطبيعية للعروبة والقاعدة الرئيسية لقوى التحـرر في كل بلد عربي آخر .

لم تدخل هزيمة الاستعمار ، في المعركة التي كان ويا للاسـف الاشوريون وقودها ، اليأس في قلب بريطانيا ولم تثنها عن عزمها على متابعة صراعهـا ضد الروح التحرريـة التي تقمصت الجيش العراقي واستهوت قلوب قادته وافئدة جنوده ، لذلك التفتت بريطانيا الـى اخواننا الاكراد ، هؤلاء الاخوان الابرار الذين يشدنا اليهم نحن معشر العرب روابط لا تنفصم من تاريخ مشترك خططنا صفحاته سويـة بمداد من نور . فحاولت ان تجعل من اخواننا الاكراد قوة معطلـة للركب القومي ، وعقبة كؤوداً في طريق الأمة العربيـة الى التحرر والاتحـاد . فدفعت بالفريق بكر صدقي ، في ٢٨ تشرين الاول الى القيام بانقلابه المشهور . وكان بكر صدقي هذا ، كما هو معروف عنه، قوميا كرديا شوفانيا ، ورئيسا للحركة الكردية في العراق . وكان من أبرز مؤيديه الجاسوس البريطاني المشهور الميجر (ادي) وزميله العراقي توفيق وهبة . ومن غريب المصادفات ، وقد تكون ليست بالمصـادفة او الصدفة ، ان يجري انقلاب بكر صدقي قبيل انتهاء الهدنة بين الثوار العرب والقوات البريطانية في فلسطين. قذف بكر صدقي بغداد بالقنابل كي يرغم الوزارة العراقية على الاستقالة وأمر الملك غـازي بتكليف حكمت سليمان بتشكيل وزارة جديدة حدد هو أسماء أعضائها . وانذر الملك بالاستجابة الى مطلبه خلال مدة لا تتجاوز الساعات الثلاث ، من تسلم الملك للانذار . فكان لبكر صدقـي ما أراد ، فشكل حكمت

سليمان الوزارة ليحكم باسم بكر صدقي ولينفذ اوامره . لذلك ما كادت الامور تلقي بأزمتها اليهحتى أخذ يسلك الطريق التي رسمها الاستعمار ، فبدأ يستفز العرب ويستثير اخوانهم الاكراد عليهم، وتناسى أنها أخوة لا تنفصم لها وشيجة تربط بين العرب والاكراد ، وتغاضى عن ان العنصر العربي تضرب جذوره عميقا في تربة العراق الحبيب ، وان الجيوش العربية بقيادة خالد والمثنى بن الحارثة الشيباني هي التي حررته من عبودية فارس، وان الأمة العربية هي التي أعطته دينه وتقاليده ولغته . كل هذه الاعتبارات ، ضرب بها بكر صدقي عرض الحائط . فأغرق في سياسته الخرقاء البلهاء وبلغ به الطموح مبلغا جعله يطمع في تنصيب نفسه ملكا على العراق . وهكذا اندفع بكر صدقي في تيار الاستعمار وعمل على ردم منابع الحس الجماعي الذي يوحد بين الشعوب العربية ويوءاخي بينها وبين الاكراد ، ويجعل من هذه الشعوب أمة واحدة ، وخير أمة أخرجت للناس . أمة لم تقترف طيلة تاريخها المجيد اثما استعماريا ، ولم تضطهد طوال حكمها فئة او جماعة او قوما بسبب اختلاف في العنصر او العرق ، وانما فتحت صدرها للانسان وبلغ تسامحها والقوميات الاخرى حدا ، اضطر معه كل المستشرقين والمؤرخين المنصفين أن يقروا بالاجماع أن العرب كانوا أعمق الفاتحين رأفة واوسع الحاكمين تسامحا وعدلا .

ابتهج الاستعمار وهو يرى بكر صدقي ينتقم له من الجيش العراقي عقب أن أخمدت ثورة الاشوريين . وخيل لبريطانيا أن كراهية بكر صدقي للعرب والعروبة ستعزل العراق الحبيب عن دنيا العرب . لكن غباء الاستعمار يعادل ذكاءه ، وأحيانا يفوقه ، اذ ان كل نجاح يحققه انما هو نجاح وقتي بسبب أنه نجاح يحمل جرثومة الفشل، فسرعان ما برز الى المسرح البطل الشهيد العقيد صلاح الدين الصباغ ، لينزل

الضربة القاضية بالاستعمار وليلقي بمشاريع بريطانيا الى مهاوي الفشل وليعيد المبادرة الى العناصر النظيفة في الجيش وليؤكد أن الحس الجماعي في الامة العربية حس أصيل ذو جوهر ثابت يؤلف بين الشعوب العربية ويؤكد وجود الامة العربية، كأمة تملك جميع مقومات الأمة وشروطها ، فاذا بالعقيد الشهيد يكتب في مذكراته في الصفحة ٦١ منها ما نصه بالحرف الواحد :

« فلما انتهت مراسيم تشييع مصطفى كمال أتاتورك ، مررت بسوريا في طريقي الى بغداد • رأيت سوريا مهد العروبة ومبعث الجهاد الوطني، سوريا الزاهية الخضراء ذات الجبال الشامخة والسهول الفسيحة ، يرزح أهلها تحت كابوس الذل والجور ، ويعاني شعبها الخوف ، يتجرع مرارة الفقر ، ويخنقها الجشع الفرنسي ، وتشاد فيها أبنية الرق والاستعمار ونوادي اللهو والخلاعة للقضاء على الروح العربية والعادات القومية • ثم انتقل بي الفكر الى فلسطين ، يوم مررت بها عائداً من اوروبا ، وكيف تولى علج صهيوني فحص أمتعتي، ورأيتها بأم عيني ، تسام وتضام وقد حرمت العروبة فيها وبيعت للصهيونية بيع الانعام • ثم استعرضت بلاد العرب ، فاذا في كل بلد بلوى • أما العراق فعليه أن يرعى مصالح الامبراطورية البريطانية ، وأما سوريا فعليها أن تخدم المصالح الفرنسية ، وأما باقي البلاد العربية فعليها أن تخضع للطليان والاسبان • »

ان كلمات العقيد الشهيد ، صلاح الدين الصباغ ، هذه الكلمات البسيطة غير المنمقة ، والتي تكشف عن براءة كبراءة الاطفال ، لتوضح غباء الاستعمار وجهله بابسط قواعد سيكولوجية الأمم والشعوب • وهذا الجهل هو سبب فشل الاستعمار والمستعمرين في كل معركة يخوضونها ضد القومية العربية • فهم يرفضون الايمان بالقانون

الحديدي القائل بأن لكل فعل ردة فعل ، وان محاولة اضعاف القومية العربية بواسطة ايقاظ حركات قومية أخرى داخل البلاد العربية، يؤدي حتما الى تنبه القومية العربية الأصيلة المتحرزة ، والى استنفار جميع قواها وتعبئة كل مواردها بغية الارتفاع الى مستوى الاخطار . وهذا الواقع هو الذي دفع بالجيش العراقي الى التطويح ببكر صدقي ، والعقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ يعلن عن ذلك بوضوح في الصفحة ١٧ من مذكراته اذ يقول :

« كان بكر صدقي ينكر الدين ولا يعترف بعروبة العراق ، لذلك اودت به هذه النزعة الى حتفه ، اذ قتله الجيش عام ١٩٣٧ بسببها حفظا لعروبة العراق . وما اكثر الضحايا العزيزة التي تقتل وتفنى ما دامت يد الاجنبي في البلاد . »

قد يلمس القارىء فيما تقدم شيئا من عنف او بعضا من قسوة في نقدي لبكر صدقي وانقلابه .

وقد يذهب البعض من القراء الى الاعتقاد بأنني قومي عربي أرى ان الانسانية تنتهي عند حدود بلادي الممتدة من الاطلسي الى الخليج كما وقد يذهب البعض الاخر الى اتهامي بأنني أدين بقومية عرقية عدوانية تؤمن بالتفوق العنصري وبالامتيازات العنصرية . لذلك أريد أن أقرر وأعلن عن أنني لا أرى في القومية العربية ، وفي الولايات العربية المتحدة ، سوى مرحلة من مراحل الطريق الى الانسانية المجسدة في الدولة العالمية ذات المجتمع الذي يؤمن بأن للكون ناظما والها .

وانني بوصفي قوميا عربيا أدين بالانسانية وأحتقر الفاشستية والقيصرية ، أرى من واجبي كعربي اولا وانسان ثانيا أن أحارب بكل قواي كل نشاط او مسعى يهدف الى افتعال قوميات لا تملك أبسط مقومات القومية . وذلك لأنني أؤمن بأن مثل هذا النشاط ، او المسعى

لا ولن يخدم القضية الانسانية التي نصارع من اجل حلها ، وانما يخدم أغراض الدول الكبرى من استعمارية او غير استعمارية . لذلك علينا كانسانيين قبل ان نكون عربا ، ألا تتسامح ، وفي كل الظروف ، بجعل القومية العربيةكقضية انسانية، وذات جوهر أصيل في انسانيته، خاضعة للظروف السياسية من اقليمية ودولية . فالقومية العربية ، في كل أهدافها ، ترمي الى تحرير الاقطار العربية من الاستعمار والتبعية والقيصرية ، وقيام دولة اتحادية لا تكون الكلمة المسموعة فيهـا لقطر واحـد يمارس دور السيد ، او لفرد يتقمص روح قيصر او كسرى ، وانما يكون فيها القول النافذ للأمة والمواطن . ان الخطوط الداخليـة للقومية العربية خطوط عميقة جدا ، انها خطوط تبلغ المحيط الاطلسي غربا وحدود ايران شرقا ، وتركيا شمالا ، والخليـج العربي والمحيط الهندي جنوبا . لذلك فان الأمة التي لساحاتها مثل هــذه الخطوط الداخلية البالغة العمق لا يمكن أن تغلب وهي حتما لن تغلب ما دامت تؤمن بما ورد في كتابه العزيز :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم قبائل وشعوبا لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم . »

ان القضايا الانسانية الكبرى لا تعرف في تطورهـا مواربـة او مخاتلة او مداهنة ، وهي دائما وأبـدا فـوق المساومات السياسية او المجاملات الدبلوماسية . والقومية العربية ، كما اؤمن ليست اليـوم قضية قومية كبرى فحسب ، وانمـا هي قضيـة انسانية كبرى ايضـا لذلك أرى أن كل حركة او نشاط يرمي الى تجميد هـذه القضية ، هي حركة هدامة ونشاط غير انساني ، فنحن نعيش اليوم في عصر يقـاس فيه صلاح العقائد والمذاهب والنظم ، بمقدار ما تستطيع هذه جميعـا أن تقدمه من خير للمواطن بوصفه انسانا قبل أن يكون فردا من افراد

أمة ، أو ابنا من ابناء شعب ، ومثل هذا العصر يحتم على كل قوميـــة أن تكون قومية منفتحة لا قومية منغلقة ، تعطل كل تفاعل بين الشعوب والأمـم •

٢ ـ محاربة تسليح الجيش :

ليس امساك الدول الاستعمارية أيديهـــا عن تسليح الجيوش العربية بالامر الجديد • فلقد كانت بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية تبذل كل جهد من شأنه أن يبقي الجيش العراقي ضعيفا لا يملك مـن السلاح ما يرفعه فوق مستوى القوة البوليسية • ومـــع أن المعاهدة البريطانية العراقية كانت تلزم بريطانيا بتزويد الجيش العراقي بجميع ما يحتاج اليه من معدات وذخائر حربيـــة ، وكانت تبيح للعراق ، في حالة عجز بريطانيا عن تقديم ما يطلبه الجيش العراقي من اسلحة ، أن يشتري السلاح من أية دولة أخرى • غير ان بريطانيا ، كعادتها أبدا ، لا تطبق من مواد المعاهدات التي تعقدها مع الدول الضعيفة ، الا تلك التي تتفق ومصالحها ، وتحافظ على التبعية، لا المساواة كناظم لعلاقاتها بالدول المتعاهدة معها • لذلك كانت بريطانيا حـــين امدادها الجيش العراقي بالاسلحة تراعي ضرورة ابقاء الجيش ضعيفا لا حول لـه أو طول ، ليقينها بأن الروح التي تسيطر على الجيش العراقي وتوجهه هي روح ثورية متمردة ، ولايمانها بأن هذه الروح اذا ما امتلكت الاسلحة الفعالة فانها ستوجه ، اول ما توجـه سلاحها الى صدر الاستعمـار والتبعية • وعندما أدرك قادة الجيش العراقي حقيقـة نوايـا بريطانيا ورأوا أن واجبهم القومي يحتم عليهم أعداد جيش قوي يمد العروبـة باسباب المنعة والقوة ، ابرموا عام ١٩٣٩ ، بواسطة العقيـد شتيفان ، مع ألمانيا صفقة ضخمة من الاسلحة وباسعار مغرية جدا•والحق أن ابرام تلك الصفقة ومع المانيا بالذات ، وخلال فترة عصيبة من فترات التوتر

الدولي الذي كان سائدا حينذاك ، كان يتطلب شجاعة ادبية تتجاوز الاقدام الى المغامرة الخطيرة الخطرة ، المحفوفة بالمهالك . فبريطانيا كانت تترقب اجتياح المانيا لاوروبا بين لحظة وأخرى ، وكانت تعلم أن النازية قد استكملت عدتها لاعلان الحرب العالمية الثانية ، وان قلوب العرب تجيش بالمرارة والحقد عليها ، لذلك فنحن اذا ما أخذنا كل هذه الظروف بعين الاعتبار وقارنا بين صفقة الاسلحة الالمانية التي أبرمها قادة الجيش العراقي ، وبين صفقة الاسلحة التشيكية التي عقدها قادة جيش مصر ، لوجدنا ان قادة الجيش العراقي قد سموا فوق كل مراتب الشجاعة وتجاوزوا في عملهم البطولي ذاك ، كل ذرى الاقدام والمغامرة .

ما كادت بريطانيا تعلم بأمر هذه الصفقة التي عقدها اولئك الابطال الميامين حتى بادرت الى الاحتجاج وبذلت بواسطة أعوانها أمثال نوري السعيد وعبد الاله وغيرهما من الضالعين معها ، الجهود الحثيثة لالغائها ، ومع هذا تمكن الجيش العراقي من الحصول على قسم لا يستهان به من الصفقة المتفق عليها والمانيا . ولم يحل بينه وبين حصوله على ما تبقى من الاسلحة الالمانية سوى تعهد بريطانيا بتقديم اسلحة مماثلة في فعالياتها للاسلحة الالمانية وبالشروط ذاتها . وبالفعل حولت وزارة الدفاع العراقية مبلغ سبعماية وخمسين الف دينار الى لندن ثمنا للاسلحة المطلوبة . وانتظر الجيش العراقي طويلا وصول الاسلحة ، وأخيراً وصل السلاح البريطاني فاذا به أكياس من الخيش وأحذية للجنود وخيام بالية .

هذا مثال واحد من امثلة كثيرة يدل على مدى « اخلاص » بريطانيا في تطبيق المعاهدة العراقية البريطانية وعلى مدى « حسن النوايا » التي كانت تكنها بريطانيا للجيش العراقي الباسل ، . ولا شك في أن

مثل هذا التعاون «المثالي» بين بريطانيا والعراق على تسليح الجيش العراقي ، لن يكون له من حصاد سوى نقمة قواد الجيش وحقدهم الاكول على بريطانيا وعلى من يتعاون معها من رجالات العراق •

والحق! ان لمنطق الاستعمار العذر كل العذر فيما أتته يداه • فلقد كانت بريطانيا مطلعة على ان الجيش العراقي ، عقب أن تولى قيادته صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد ، وغيرهم من الضباط الاشاوس، قد أصبح حصنا للتحرر القومي وحاميا للعرب وقادتهم من الاحرار المناضلين كالحاج أمين الحسيني وسعدالله الجابري وشكري القوتلي وغيرهم من قادة النضال العربي ضد الاستعمار في مختلف الاقطار العربية • أضف الى ذلك ان بريطانيا كانت تدري ان الجيش العراقي يمد المناضلين في فلسطين بالسلاح والذخائر والمال • كما وانها كانت وطيدة القناعة بانها لن تستطيع في حالة دخولها حربا عالمية أن تستخدم الجيش العراقي لتحقيق أغراضها العدوانية فتستعمله حرسا لطرق مواصلاتها ومطاراتها ومستودعات ذخائرها ، او طعاما للمدافع في معاركها •

هذا فيما يتعلق بموقف بريطانيا من تسليح الجيش العراقي ، اما واجبات البعثة العسكرية البريطانية لدى الجيش ، هذه الواجبات التي حددتها المعاهدة باعداد الجيش وتدريبه والعمل على رفع مستواه ، فانها ترجمت تجسسا على الجيش وتثبيطا لروحه المعنوية ومطاردة للضباط الاحرار • وهذه الحقيقة تشكل سببا جوهريا من اسباب انفجار الجيش العراقي وثورته ضد الاستعمار البريطاني عام ١٩٤١ • ولقد كان لهذه الثورة ، ثورة جيش العراق ، لا ثورة رشيد عالي الكيلاني ، كما يسميها البعض ، الاثر الفعال في دفع موكب التحرر العربي أشواطا بعيدة الى الامام ، اذ أن ثورة الجيش العراقي ارغمت

بريطانيا على الاعتراف ، بصورة غير مباشرة ، بالقومية العربية كقوة صاعدة في منطقة الشرق الاوسط .

فلقد وقف المستر انطوني ايدن ، وزير خارجية بريطانيا آنذاك ، عقب دخول الجيوش البريطانية مدينة بغداد بايام قلائل ، ليعلن في مجلس العموم البريطاني ، كذبا وخداعا عن ان بريطانيا تعطف على حركة الاتحاد بين الاقطار العربية ، وانها تناصر كل مسعى يستهدف تحقيق هذا الهدف . ومن ثم دفع انطوني ايدن باعوانه من أمثال نوري السعيد للدخول في مفاوضات وحكام البلاد العربية الاخرى لانشاء ما نعرفه اليوم باسم جامعة الدول العربية . ونحن اذا ما أردنا ان نعتبر الجامعة العربية خطوة الى الامام ، فانما الفضل فيها يعود الى الجيش والى ثورته الوطنية على الاستعمار .

٣ ـ الثورات التحررية :

حمل العراق ، او بالاحرى ، حمل الجيش العراقي العبء الاكبر في الثورات التحررية ، التي نشبت في الاقطار العربية الاسيوية ، وبخاصة في فلسطين . فمن العراق ، ومن معسكرات الجيش العراقي انطلق فوزي القاوقجي عام ١٩٣٦ ، ليشنها ثورة لاهبة شعواء ضد المستعمرين والصهاينة في سهول فلسطين وجبالها . وفي العراق وعلى ايدي ضباط الجيش العراقي كان الثوار العرب يتدربون على فنون القتال . وفي العراق ، وفي الكلية العسكرية العراقية ، كان الشباب العربي المثقف يتعلمون ويدرسون ويتخرجون ضباطا ليقاتلوا ويستشهدوا كما استشهد القائد البطل عبد القادر الحسيني في فلسطين . ومن العراق ، ومن مستودعات جيش العراق كان المناضلون العرب في فلسطين وفي سوريا يحصلون على الاسلحة والذخائر الحربية .

ولنستمع الى ما يقوله بهذا الصدد العقيدالشهيد صلاح الدين

الصباغ ، فلقد ورد في الصفحة ١١٩ من مذكراته قوله :

« عرفت عز الدين الشوا بواسطة الدكتور امين رويحة ، يوم كان صديقي فوزي القاوقجي ، وغيره يتابعون جهادهم في فلسطين • وكنت انا واخواني من ضباط العراق نمدهم سرا بما يتيسر لدينا من سلاح وعتاد • وكنت اسلم السلاح والعتاد للسيد عز الدين الشوا مباشرة • وكان ذلك يجري بصورة سرية • فلم يعلم به احد • وكتمنا هذا الامر حتى عن قادتنا وعن يس الهاشمي ورئيس اركان الجيش حسين فوزي • ثم زادت هذه الامدادات بعلم من وزير الدفاع طه الهاشمي ورئيس اركان الجيش ومدير الحركات العسكرية (أنا) واستمرت الامدادات حتى توقف القتال في فلسطين حين لجأت بريطانيا الى فتح باب المفاوضات وتوسط ملوك العرب وزعمائهم بالامر » •

ويستطرد هذا العسكري الشهم النبيل فيقول في مذكراته وفي الصفحة ١٢٠ منها :

« ولما كان من المنتظر أن لا تتمسك بريطانيا بوعودها للعرب كعاداتها، بعد أن خمدت نار الثورة ، فقد قمت بتجهيز فوزي القاوقجي سرا بألف بندقية ومائة الف طلقة والف حقيبة وتجهيزات اخرى مما يحتاج اليها الجنود • وقد تسلمت السلاح والعتاد المذكور بتوقيعي وبموافقة طه الهاشمي على أنه امدادات لعشائر الحدود في منطقة الفرقة الثالثة ، ثم سلمتها الى فوزي القاوقجي مع مبلغ من الدنانير بحضور المجاهد النبيل (استاذي) عادل العظمة • »

ولنر الآن مقدار استعداد الجيش العراقي ومدى حماسته ورغبته في مساعدة كل انتفاضة تحررية ضد الاستعمار في كل قطر عربي أفلسطين كان أم سوريا أم غيرهما• ولنتأمل متبحرين فيما يورده العقيد الشهيد الصباغ في مذكراته ، صفحة ١١٨ :

« اوقفني فوزي القاوقجي ذات يوم وأنا في طريقي الى معسكر الرشيد ، حيث مقر فرقتي • وكانت دارته تقع على ذلك الطريق • وقال لي ان السيدين جميل مردم وسعدالله الجابري يرغبان في مقابلتي على انفراد • في داره في اليوم التالي ، وفي الموعد المحدد قابلت السيد جميل مردم (أما سعدالله الجابري فكان غائبا) ودار الحديث بيننا حول اعلان الثورة في سوريا والترخيص لفوزي القاوقجي باثارتها وحول اشتراكي أنا واخواني في هذا الرأي ، فأجبته :

ان الامر منوط بكم ، أما نحن فسيان عندنا أن تكون الثورة في سوريا او في فلسطين او في ••• وأقول هذا بالنيابة عن اخواني • »

الحق ! أنني كلما قرأت هذه الكلمات البسيطة فيأسلوبها والخالية من كل تكلف أو تصنع او غرور انتابني احساس غريب ينفض بعنف كل خلية في جسدي ، وربما كان هذا الاحساس هو مزيج من الاكبار والاعتزاز والفرح والفخر بمثل هذا البطل من صانعي تاريخنا الحديث• فالجيش العراقي ، كما يريد أن يقول صلاح الدين الصباغ ، قد اعلنها حربا شاملة على الاستعمار في العالم العربي ، ولذلك فالامر سيان عنده ، أبدأت هذه الحرب في فلسطين او سوريا ، او ليبيا ، او تونس او مراكش الخ ••• فالمهم عنده أن تبدأ الحرب وأن تتابع الأمة العربية صراعها وكفاحها ضد الاستعمار والمستعمرين ، ولهذا فان الجيش العراقي لا يميز بين جنسيات الاستعمار أو بين البريطاني منه والفرنسي، وبين الايطالي منه والاسباني ، فالاستعمار في مفهوم الجيش العراقي واحد أحد موحد الاهداف والغايات • اننا لا نستطيع ان نتحسس بالجرأة النادرة المثال التي أبداها الجيش العراقي في كفاحه ضد الاستعمار ، الا اذا أحطنا بالظروف التي عاشها صلاح الدين الصباغ ورفاقه • فلقد كان الاستعمار يومذاك في أوج قوته ، وكان بالغ

السطوة مرهوب الجانب ، وكانت اشارة واحدة من السفير البريطاني في القاهرة كافية لاستقالة وزارة وتشكيل أخرى ، وغمزة واحدة من فرنسا كفيلة باسقاط رئيسي الجمهوريتين اللبنانية والسورية • وكانت تقطيبة واحدة من بريطانيا في وجه أي أمير من أمراء المحميات كافية لالقاء الذعر والرعب في قلبه • أما صلاح الدين الصباغ ورفاقه من قادة جيش العراق الذين لم يكونوا ملوكا او أمراء أو رؤساء جمهوريات ، فانهم لم يعبأوا بما لدى الاستعمار من قوى وبما يملك المستعمرون من نفوذ ومال وجاه • وذلك لان طبيعة الثائر الأصيل تفرض عليه آليا أن يخوض غمرات كل صراع حالما يدعوه الواجب ، غير مكترث لنتائجه ، لايمانه بان حرب التحرر والاستقلال هي حرب طويلة الأمد عديدة المعارك غفيرة الضحايا ، وهي ليست حربا عادية تحسمها بعض معارك واشتباكات ، وتنتهي بعد سنة او سنتين او اربع او خمس ، وذلك لانها حرب ثورية ، انها حرب الحرية ضد الاستعباد ، ومثل هذه الحرب لا تعرف هدنة وانما تبقى مشتعلة حتى تنتصر ويندحر الاستعباد • وقد تستغرق الحرب الثورية قرنا او قرنين من الزمن ، وقد يخوض غمراتها جيل بعد جيل كحربنا ضد الصليبيين مثلا، او صراع الشعوبيين ضدنا • فالمهم في الحرب الثورية أن تنشب • وليس المهم أبدا في مثل هذه الحرب أن يحسمها الجيل الذي بدأها،وذلك لان حرية الأمم في تشعباتها السياسية والاجتماعية لا يمكن أن تكون من تناج جيل واحد ، لانها هي دائما نتاج صراع الاجيال المتعاقبة وكدحها • لهذا لم يسأل صلاح الدين الصباغ عن امكانات الثورة في النجاح ، وانما سأل عن توقيت اشعالها ، وذلك لأن الثائر الاصيل يعرف حق المعرفة بأن الثورة لا تدحر وانما تنتصر أبدا ودائما ، لان الثورة تختلف عن الحرب اختلافا جوهريا ، اذ أن الحرب تلد الحرب ، أما الثورة فانها تلد السلام الدائم، أضف الى ذلك ان الحرب تستهدف

فرض سيطرة دولة على أخرى ، أو طبقة على غيرها ، أما الثورة فتهدف اولا وأخيرا الى اشاعة العدالة بين الأمم والمساواة بين المواطنين • بهذا السبب تبقى الثورة مشتعلة الأوار مهما طال الزمن وتعاقبت الاجيال حتى تحقق الاهداف التي نشبت من أجلها • لقد أدرك الجيش العراقي ان على الأمة العربية أن تخوض غمار حرب ثورية ضد الاستعمار ورأى ان واجبه يملي عليه أن يساندها ويغذيها ويضع تحت تصرفها كل ما يملك من امكانات مادية ومعنوية غير عابيء بالمصاعب والعقبات التي كان يزرعها الاستعمار وأعوانه من أمثال عبد الاله ونوري السعيد وجميل المدفعي الخ •• في طريقه الى غاياته القومية •

٤ ـ الفئة الحاكمة والاستعمار :

ما كاد فيصل الاول يتوج ملكا على العراق ، حتى غدت دار المندوب السامي البريطاني في بغداد ، ومن ثم السفارة البريطانية ، قبلة الطامعين ومحج المستوزرين ومورد المستشارين وكبار الموظفين في البلاط ودوائر الوزارات • وقد بلغ تكالب ابناء الفئة الحاكمة آنذاك وتهافتهم على اكتساب ود بريطانيا والتمتع برضائها حدا جعلهم لا يتورعون عن خيانة شعوبهم والغدر بأمتهم ، اذا رأوا أن الخيانة والغدر يقربانهم من أهدافهم ويحققان لهم غاياتهم • فلقد حدث ان علم يوما نوري السعيد بأن الجيش العراقي يقوم بتدريب المجاهدين الفلسطينيين داخل معسكراته ، فما كان منه الا أن سارع ليحمل هذا النبأ الى السفارة البريطانية في بغداد • ويروي العقيد الصباغ تفصيل هذا الحادث في الصفحة ١١٩ من مذكراته ويقول :

« لم يكن نوري السعيد عالما بما عند فوزي القاوقجي من أسلحة وذخائر • فقد كنا نكتم هذه الامور عن نوري وأمثاله ، وأغلب الظن أنه لم يتوصل الى ذلك الا بعد أن اتصل به السيد جميل مردم ، اذ

يحتمل أنه حدث نوري السعيد بما عند فوزي القاوقجي ، ويدفعني الى هذا القول أن نوري بعد أن اتصل بالسيد المذكور أخذ يسألني ويراوغ في حديثه معنا ويقول زاعما ان بعض اقربائه من صغار الضباط قد أخبروه بالنشاط الذي يقوم به فهمي سعيد وكامل شبيب ، واشرافهما على تدريب المجاهدين من احرار فلسطين تدريبا عسكريا يجري بصورة سرية في معسكر الرشيد وفي دار فهمي ايضا ... بعد هذا أخذ الانكليز علما بالأمر ، وبلغهم خبره ، لكننا لم نعرهم اهتماما واستمر تدريب المجاهدين الفلسطينيين ، أما الانكليز فكظموا غيظهم ولم تبدر منهم أية بادرة . »

هذا مثال يدل على مدى الانحطاط الاخلاقي المروع الذي بلغه ابناء تلك الفئة المحيطة بالعرش العراقي ، والتي كانت تسند اليهم الوزارات والسفارات والمناصب الرفيعة . لقد كان العراق يومذاك يعيش أوضاعا شاذة غريبة : مستعمرون يستعبدون الحكام ويستغلون الشعب ، وحكام خانعون أذلاء يتعاونون والمستعمرين على استغلال الشعب واستعباده ، وزارات تشكل ثم تستقيل ، وسر تشكيلها واستقالتها عند الله والانكليز، جواسيس يتنكرون بأزياء وزراء وخونة يلبسون جلابيب نواب يشترعون القوانين لتدعيم نفوذ الاستعمار وسيطرته . لذلك لم يكن من سبيل لتصحيح مثل تلك الاوضاع الشاذة ، غير نشوء قوة من الشعب تؤمن بالشعب لا بالانكليز وتجاهد لتحقيق ارادة الشعب لا لتنفيذ رغبات بريطانيا وتأكيد مصالحها . قوة تضرب الخائن وتسحق الخيانة ، قوة تراقب وتعاقب تسمح وتمنع ، تأمر وترشد ، قوة من الشعب وللشعب ، وهكذا اندفع الجيش العراقي الى المسرح السياسي ، اندفع لا ليحكم ، ولكن ليمكن الشعب من حكم نفسه بنفسه ، وليضع ارادة الشعب ومصالحه فوق ارادة الانكليز ومصالحهم . فأحس حكام العراق الاذلاء بأن هذا الجيش

الذي شكلوه وأعدوه ليخدم أغراضهم وأغراض أسيادهم البريطان ، وليكون مطرقة في أيديهم يحطمون بها كل انتفاضة شعبية ويسحقون تحت ضرباتها كل ثورة على الاستعمار او تمرد على امتيازاتهم الطبقية، قد انتقل الى أيدي الشعب وأصبح خادما أمينا للعروبة ومنفذا مخلصا لارادة القومية العربية ، يؤمن بأن واجبه لا ينحصر في الدفـــاع عن العراق وشعبه وانما يتجاوزه الى الدفاع عن جميع البـــلاد العربيــة وشعوبها . وهكذا أعاد الجيش العراقي للمفاهيم القومية معانيهـــا الحقيقية في النظرية والممارسة ، فاصلح ميزان القيم والاخلاق بعـد طويل اختلال ، ورسم خطا واضحا يفصل بين الخيانة والوطنية ، فاستعاد الشعب ثقته بنفسه وايمانه بقوميته وشحذ فيه ارادته وعزمه على التحرر والاتحاد . ومن البدهي ألا تلاقي مثل هـــذه الانتصارات الشعبية الباهرة ، التي حققها الجيش العراقي ، لـدن بريطانيا سوى الامتعاض والغضب والحقد ، ومن الطبيعي أن يقابلها أذناب الاستعمار بالحـذر الشديد وبقلوب ترتجف ذعرا ووجلا ، اذ تيقنوا بأنهم لم يعودوا احرارا طلقاء يسرحون ويمرحون في رحاب العراق وضمن الدائرة التي خططها لهم الانكليز دونما رقيب أو حسيب . ولم يعد باستطاعتهم أن يوجهوا سياسة العراق وفق ما تشتهيه رغبـاتهم المنسجمة وارادة الانكليز في استغلال العراق واستعباد شعبه . ولم تعد كلمتهم هي الكلمة العليـا بعد كلمة الانكليز ، ولم تعد دار السفارة البريطانية والبلاط هما اللذان يشكلان الوزارات ويقيلانها ، وانما أمسى الجيش صاحب الكلمـــة المسموعة والارادة المرهوبة . وهكذا ادركت الفئة الحاكمة في العراق، وأدرك الاستعمار معها أن قوة خطرة تملك كل امكانات الحسم ، قـد برزت الى المسرح السياسي ، وأن هذه القوة تتمتع بتأييـد جماهيري وتشجيع شعبي . لهذا تآخى كبار المـــلاك من العراقيين والاستعمار وتحالفت الفئة الحاكمة التي تمثلهم ، مع بريطانيا ، وعقدوا مشتركـين

العزم على مكافحة هذا الخطر الداهم واستئصال جذوره • فسعوا الى ضرب الشعب بالجيش بغية حفر هوة سحيقة تفصل الجيش عن الشعب وتحرم قادته من تأييد الجماهير ومناصرتها لهم • فحاولوا أن يدفعوا بالعشائر العراقية الى الثورة ، كي يرغموا الجيش على أخمادها ، غير أن العشائر لم تنزلق في المنزلق الذي أراده لهم المستعمرون وانصارهم وعندما فشلوا في ذلك التفتوا الى الاغراء في شتى اشكاله وجعلوه يخطر أمام قادة الجيش ويراودهم على وطنيتهم ؛ لكن هؤلاء القادة الابرار كانوا نساكا زاهدين في المال ومشتقاته ، فهم ذوو رسالة سامية لا تعرف المساومة ولا تضعف أمام بريق الذهب ورنين الفضة وبهرج المنصب وزيف الرسائل والدعوات • وعدما أيقن المستعمرون والاقطاعيون بفشل مساعيهم عمدوا الى افتعال عدم الاستقرار في الحكم ، فكانوا ينسفون الوزارات من الداخل بواسطة الوزراء من أعوانهم ، وذلك بغية استعداء الشعب على الجيش واظهار قادة الجيش بمظهر الطفل الذي ينتهي لهوه بالدمية الى تحطيمها • ومن المؤسف ان هؤلاء الخبثاء قد لاقوا بعض النجاح في هذا الميدان فكان الجيش يوافق أحيانا على استقالة الوزارات دون عميق امعان أو طويل روية •

أعلنت الحرب العالمية الثانية فاذا بنوري السعيد يسبق جميع دول الارض الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين العراق وألمانيا ويتبع عمله هذا باعتقال الرعايا الالمان وتسليمهم الى الانكليز•وقد وجد الاستعمار والفئة الحاكمة في الحرب العالمية فرصة ذهبية للتخلص من الجيش العراقي ورأوا ان الوسيلة الفعالة لتحقيق هذا الغرض تمثل في اعلان الحرب على المانيا وترحيل معظم القطعات العسكرية العراقية الى ميادين القتال • ومع أن المعاهدة البريطانية العراقية لا تلزم العراق بدخول الحرب الى جانب بريطانيا ، غير أن الوصي على العرش ونوري السعيد

وغيرهما أخذوا يضغطون ضغطا شديدا على قادة الجيش ، كي يوافقوا على اعلان الحرب • لكن ضغطهم لم يجدهم نفعا فلقد كان الجيش العراقي يرى آنذاك ، كما نرى نحن اليوم ، في الاستعمار الغربي العدو اللدود الذي يتوجب عليه أن يحاربه لا أن يحارب الى جانبه • لذلك بادر نوري السعيد في كانون الثاني عام ١٩٤٠ الى تقديم استقالته • ومن الطريف أن نوري السعيد هو الذي شجع واقنع رجالات الجيش على استقالته وطلب منهم أن يضغطوا على رشيد عالي الكيلاني ليشكل وزارة جديدة تخلف وزارته وأن يسند اليه في الوزارة الكيلانية منصب وزير الخارجية • وقد قام نوري السعيد بهذا العمل بالاتفاق والسفارة البريطانية ، بغية اشاعة الفرقة والانقسام بين صفوف الجيش العراقي ، ومن ثم دفع قطعاته الى الاقتتال بعضها مع بعض • فلقد كان نوري السعيد والسفير البريطاني يعرفان حق المعرفة بأن رئيس أركان حرب الجيش الفريق حسين فوزي ومساعده أمين العمري لن يوافقا أبدا على اشتراك نوري السعيد وطه الهاشمي في وزارة رشيد عالي ، وأن عدم موافقتهما ستذهب بهما الى اللجوء الى السلاح للحيلولة دون تعيين السعيد والهاشمي وزيرين في وزارة الكيلاني • أما العقيد الصباغ ورفاقه فكانوا يرون ضرورة اشتراك نوري السعيد وطه الهاشمي ، وقد صح ما توقعه السفير البريطاني ونوري السعيد ، اذ لم يكد الفريق حسين فوزي وأمين العمري يطلعان على أن هناك اتجاها يرمي الى اشراك الهاشمي والسعيد في الوزارة المنوي تشكيلها حتى قصدا البلاط وأعلما الوصي بأن الجيش لن يوافق أبدا على تشكيل أية وزارة يدخلها نوري السعيد وطه الهاشمي• ولما كان الوصي يعلم ايضا بأن ما أبداه رئيس الاركان العامة ومعاونه يتعارض وقرار الشهيد الصباغ ورفاقه استدعى الوصي العقيد الشهيد وأخبره بما نقله اليه الفريق حسين فوزي ، فأعلمه صلاح الدين الصباغ

أن الجيش قرر أن يترك له حرية تشكيل الوزارة ، كما وان قادته عزموا على ألا يتدخلوا في هذا الموضوع ، وانهم لن يعترضوا على الوزارة اذا ما اشترك فيها نوري السعيد وطه الهاشمي • وبهذا تم للاستعمار وأذنابه ما أرادوه فانقسم الجيش العراقي الى معسكرين ، أولهما يناصر صلاح الدين الصباغ ورفاقه ، وثانيهما يعاضد رئيس الاركان ومساعده • وبادر الفريق حسين فوزي الى استنفار الجيش للقضاء على فريق الصباغ وقصد أمين العمري معسكر الوشاش ليقصف أعوان الصباغ بالمدافع ، وخرج الرئيس محمود خورشيد على رأس كتيبة لاعتقال قادة الجيش ، لكن سرعان ما تمكن الصباغ ورفاقه من اخماد الفتنة واستصدروا مرسوما يقضي باحالة رئيس الاركان ومساعده على التقاعد • وقد اشترط أمين العمري للرضوخ للمرسوم احالة صلاح الدين الصباغ على التقاعد ايضا ، لكن شرطه لم يلق قبولا من دوائر الجيش المسؤولة • وقد اتضح فيما بعد أن هذه الاحداث جاءت متفقة والخطة التي رسمها نوري السعيد وعبد الاله والسفير البريطاني • وكانوا هؤلاء يؤملون ، من وراء تنفيذها ، نشوب نزاع مسلح بين قوات الجيش يؤدي الى اضعاف مركز الجيش واعادة مقاليد الأمور الى السفارة البريطانية وأعوانها •

شكل رشيد عالي الكيلاني وزارته ، ودخلها نوري السعيد وطه الهاشمي واتضح للاستعمار أن قادة الجيش الحقيقيين هم صلاح الدين الصباغ ورفاقه ، وعاد نوري السعيد يطالب الوزارة والجيش باعلان الحرب على المانيا ، غير أن رشيد عالي وقادة الجيش رفضوا مرة أخرى هذا الطلب • ولما تبين لنوري السعيد أن الجيش لن يقبل بمثل هذا الامر اوعز الى أذنابه في مجلس النواب العراقي بشن حملة عنيفة على الجيش فتبارى الاذناب من أمثال جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي

وجلال بابان بالقاء الخطابات العنيفة ضد الجيش وكيل الاتهامات جزافا لقادته ووقف جلال بابان ، ليفضح دون قصد منه ، العوامل الحقيقية في الحملة الظالمة على الجيش فقال :

« ان على العراق أن يختار بين ثلاثة أمور :

١ ـ « الوقوف على الحياد في الحرب وتطبيق نصوص المعاهدة العراقية البريطانية • واتباع هذه الخطة دليل على عدم التروي ؟!! لأنه لا يتفق والصداقة التقليدية ؟!! التي تربطنا ببريطانيا ، ولا مع حرص بريطانيا على كياننا ؟!! لذلك يتوجب علينا أن نوفي الصداقة حقها ؟!!»

٢ ـ الانحياز الى الجانب المعادي لبريطانيا ، وهذا هو الجنون بعينه ؟!! بل انه لخطة جهنمية وخيانة وطنية ؟!! »

٣ ـ الدخول في الحرب الى جانب بريطانيا ، وهذه هي الخطة القويمة ؟!! التي يتوجب على العراق اتباعها ليوفي الصداقة لحليفته العظمى حقها ؟!!

هذه بعض نماذج من صرخات الخيانة وحملات الاذناب على الجيش العراقي الأبي ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على فقدان الفئة التي يمثلها بابان ، لابسط المشاعر القومية ، والمفاهيم الانسانية • لكن صرخاتهم تلك تحطمت على صخرة وطنية الجيش ، ولم تفلح في دفع قادته الى الموافقة على ما يريده الانكليز وأعوانهم • وهنا أقدم الاستعمار بعد أن أعيته الحيل ، على الايعاز الى عبد الاله بالفرار الى لواء « الديوانية » والاتصال بقادة الجند المعسكر فيها والطلب اليهم التمرد على قيادة الجيش • فاذعن الوصي ، وقصد لواء الديوانية واتخذ من مقر قيادة الفرقة الرابعة مركزا له وأخذ يتصل بحكام الالوية ويطلب اليهم عدم تنفيذ الاوامر والتعليمات الصادرة عن بغداد ، كما

اتصل بآمر منطقة الموصل آنذاك ، العقيد عبد الرزاق حسيب وأمره بالتمرد على القيادة العامة ، ثم استدعى بعض رؤساء العشائر وطلب منهم الثورة على الجيش والزحف على بغداد ، غير أن مساعي الوصي باءت جميعها بالفشل ، فأبت القوات المسلحة المعسكرة في لواء « الديوانية » تنفيذ اوامر الوصي واتصلت بالقيادة في بغداد وأطلعتها على ما يقوم به الوصي من نشاط ، كما أن رؤساء العشائر رفضوا الاستجابة الى أوامر الوصي ، وعندما وجد الوصي ان خطته قد افتضحت ، وأن مسعاه قد باء بالفشل ، طالب باصرار والحاح باستقالة وزارة رشيد عالي الكيلاني ، هذه الوزارة التي أبى معظم اعضائها ـ ما عدا نوري السعيد طبعا ـ الاستجابة الى رغائب الانكليز وأوامرهم باعلان العراق الحرب على المانيا وايطاليا . وحبا في تجاوز هذه الازمة الحادة والعمل على تفريجها ، ورغبة من قادة الجيش في احباط المؤامرة البريطانية لاثارة حرب أهلية تبرر تدخل القوات العسكرية البريطانية تدخلا مباشرا لاخمادها ، او بالاحرى للقضاء على قادة الجيش الاحرار، استجاب الجيش الى طلب الوصي فاستقالت وزارة رشيد عالي الكيلاني وخلفتها وزارة طه الهاشمي ، واذا بطه الهاشمي الرئيس الجديد للوزارة، والذي كانت تربطه اوثق العلائق بالجيش وبقادته ، والذي بسبب معاضدة صلاح الدين الصباغ ورفاقه له ، كاد الفريق حسين فوزي وأمين العمري أن يطوحا بهم ، أقول اذا بطه الهاشمي يقوم بالدور نفسه الذي كان يقوم به نوري السعيد ، فيطالب بضرورة قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا واعلان الحرب على المانيا ويصارح قادة الجيش علنا بأنه يتوجب على العراق أن يوافق على ما يريده الانكليز ، ومن البدهي أن يرفض القادة الاحرار هذا الطلب وأن يحولوا دون تحقيق هذا المأرب ، فلقد كان الانكليز ، حسب قناعة الصباغ ورفاقه الابطال، أعداء للعروبة والاسلام ، والجيش العراقي كما يقول الصباغ ، ليس

جيشا من المرتزقة ، او جنود المستعمرات ٠ وقد أعلن العقيد الشهيد ، فهو يكتب في الصفحة ٢١٣ من مذكراته مدونا ما دار بينه وبين طه الهاشمي ويقول :

« ان الجيش العراقي لم يتشكل ليكون مطية لبريطانيا التي قتلت أحرارنا ومزقت بلادنا العربية ، وانما تشكل ليكون السباق الى تحرير العرب ورفع نير الاستعمار عن كواهلهم ٠ لا ٠٠٠ والى الا بد لا ٠٠٠ لن يكون جندي واحد من العرب الأباة بجانب بريطانيا ، لان بريطانيا هي التي هدمت صرح العروبة والاسلام ٠ »

ويرد طه الهاشمي على هذا الثائر النبيل فيقول :

« ان على العراق أن يلبي ما يريده الانكليز ، هذا ما طلبه المستر انطوني ايدن ! »

وهكذا وضع طه الهاشمي بالاتفاق والوصي ونوري السعيد الجيش العراقي أمام خيار مروع ، فكان على قادته اما الموافقة على طلب الانكليز بدخول العراق الحرب ، وهذا معناه استسلام الجيش استسلاما مطلقا للاستعمار واما الحرب ضد الانكليز وقواتهم ٠ وقد كشفت الايام فيما بعد عن أن الوصي على العرش كان متفقا والانكليز على ضرورة التخلص من الجيش العراقي والاستعانة بالقوات البريطانية على اخماد الروح الوطنية السامية التي يتحلى بها قادته ٠

أبت المثل العليا التي يدين بها قادة الجيش الاستجابة الى رغبات طه الهاشمي وأماني الانكليز وارادة عبد الاله ونوري السعيد وصالح جبر وعلي جودت الايوبي وغيرهم ٠ فعقد قادة الجيش في شهر شباط عام ١٩٤١ اجتماعا برئاسة الحاج أمين الحسيني وحضور رشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت ويونس السبعاوي ، من المدنيين ، وصلاح

الدين الضباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان من العسكريين ، واتفقوا على تنفيذ المنهاج التالي :

١ ــ المحافظة على الوضع الراهن والتمسك بالمعاهدة البريطانية العراقية التي قررت ما لنا وما علينا ، حتى يتوفر الوقت اللازم لدراسة الوضع الحربي في العالم، وانتظار تطور الاحداث في المستقبل القريب، وهذا ما يوجب الروية والتبصر في الأمور .

٢ ــ التوسل بجميع الحجج المقنعة لحمل طه الهاشمي على العدول عن رأيه والانتظار ثلاثة شهور أخرى ، ينجلي خلالها الموقف وتتضح الحالة السوقية .

٣ ــ اذا كان لا بد من قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا والموافقة على مطالب الانكليز فورا ، فليوافق على هذه الأمور مجلس نيابي حر يمثل رأي الشعب العراقي ، لذلك لا يجوز الاكتفاء برغبة الوصي وقرار مجلس الوزراء .

٤ ــ لما كانت الاكثرية في مجلس النواب الحالي لا تمثل الأمة ، ولما كانت أغلبية النواب من المرتزقة الذين عينهم نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت تعيينا ، فمن الواجب حل المجلس الحالي واجراء انتخابات عامة تسفر عن قيام مجلس نيابي يمثل الأمة تمثيلا صادقا ، وعلى مثل هذا المجلس تعرض عندئذ مطالب الانكليز .

٥ ــ لما كان نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ، هم دائما السبب في كل خلاف ، فمن الواجب تعيين نوري السعيد سفيرا للعراق في واشنطن ، وجميل المدفعي سفيرا في دولة أخرى ، وذلك انقاذا للبلاد من عبثهم ابان الحرب الحاضرة وتحقيقا لسلامة الانتخابات النيابية .

٦ ـ لما كان الوصي على العرش غير مسؤول ، وهو مع ذلك يواصل القيام بنشاط مخالف للدستور ويتصرف تصرفات دكتاتورية ، على غرار تصرفاته التي أودت بوزارة رشيد عالي الكيلاني ، ولما كانت التجربة قد أثبتت ضعف المجالس النيابية أمام السلطة التنفيذية ، وعجزها عن استعمال صلاحياتها لايقاف الوصي عند حدوده وكبح جماح ميوله الاستبدادية أو الشخصية فمن الواجب أن تضاف مادة على الدستور تنص على طريقة معالجة هذا الأمر وتحدد السلطة التي تتولى هذه المعالجة .

٧ ـ التوسل بكل الوسائل لاستمالة الوصي ليعود عن غضبه على قادة الجيش .

٨ ـ يطلب الى طه الهاشمي الاستقالة اذا فشل في تحقيق ما ورد أعلاه ، أو امتنع عن تحقيقه ، وذلك صيانة لسمعته واستباقا للاحداث الخطيرة التي ينتظر وقوعها . ويعول على أخلاق طه الهاشمي الحميدة في الموافقة على هذا الرجاء فور التقدم به .

٩ ـ يقصد بعد استقالة طه الهاشمي وفد يتألف من كرام رجالات العرب ومن قادة الجيش ، البلاط ويرجون الوصي على العرش بتكليف رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الوزارة وبالموافقة على حل المجلس النيابي وانتخاب مجلس جديد يفصل في مطالب الانكليز التي تخرج على منطوق المعاهدة ومفهومها .

١٠ ـ يقطع الجيش على نفسه عهدا صارما على ألا يتدخل في أعمال الحكومة القائمة ، شريطة أن يتوثق من سلامة الانتخابات ويتأكد من أن السلطة التشريعية تمارس كل ما لديها من صلاحيات ، وانها ليست آلة بيد الوزارة او الوصي او الجالس على العرش ، وأن ما

من وزارة تتولى الحكم بتأثير الاجنبي او بدسائسه •

هذه هي النقاط التي تقدم بها قادة الجيش والمخلصون من زعماء العراق والعرب ، لمجابهة طلبات بريطانيا ومؤامراتها ومناوراتها ودسائسها • وهي كما ، لا شك ، يلمس القارىء مطالب معتدلة في لهجتها وعادلة في رغباتها ، على حق في اصرارها على اجراء انتخابات حرة ينبثق عنها مجلس نيابي جديد تكون له حرية الفصل في المطالب البريطانية الخارجة عن المعاهدة العراقية الانكليزية • ولكن متى كان الاستعمار يكترث للمنطق او الحق والعدل ، فالمصلحة في عرفه هي التي توجه المنطق وتقرر الحق وترسم للعدل حدوده • ومصلحة الاستعمار كانت تقضي بالتطويح بقادة جيش العراق ، وتأديب هذا الجيش الباسل ، لذلك ما كاد الوصي يسمع بنبأ استقالة طه الهاشمي حتى استقل والجاسوس البريطاني ، « دونفيل » ، سيارة اقلتهما الى الحبانية، ليطير هو منها الى الموصل فالبصرة فشرقي الاردن، وليعودفيما بعد الى العراق محمولا على حراب الانكليز ومحروسا بقواتهم ، وليمتع ناظريه بمرأى جثث الشهداء الابرار وهي تتأرجح على أعواد المشانق •

هذه قصة جيش العراق ، وتلك هي بعض مآثره وبطولاته في ميدان التحرر والانبعاث العربي ، وانها والحق لمفاخر ستبقى أبد الدهر ملاحم رائعة تشرق بالفخر وتشع بالامجاد ، ودليل ما بعده دليل على أن الجندي العربي ، انسان أصيل ، لن يكون أبدا في خدمة من يريد أن يستعمر أمته أو يستعبدها ولن تستعبده نزواته وأهواؤه ، وأنه سيبقى أبد الدهر ، ذلك الجندي الذي أهدى اليه الثائر النبيل العقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ مذكراته فوصفه كما يلي :

« الى الجندي الذي تأبى عليه حميته الوطنية ، أن تجتاح الجيوش الاجنبية بلاده فتهتك حرماتها وتسبي نساءها بل يحمل بندقيته مفضلا

الموت على خدمة الاجنبي وحراسة خطوط مواصلاتـه ، الى الضابط الملم بصناعة الخبير بالاركان الحربية • »

٥ ـ المغزى الاجتماعي للانقلابات العراقية :

لم تكن روح العصر في الفترة التي حدثت خلالها الانقلابات العسكرية في العراق ، روحا تشجع التيارات الهادفة الى اشاعة العدل الاجتماعي ، و تساعد على توجيه القوى للأخذ والعمل بمبادىء العدالة الاجتماعية • أضف الى ذلك ان النزعات الاشتراكيـة التي كانت تبرز بين فينة وأخرى في البلاد العربية ، كانت ، في حقيقتها ، تنبع من روح فاشستية وتتدفق من منطق نازي ، يهدفان الى تجميد الصراع الطبقي واقامة نوع من التوازن بين طبقات المجتمع •

وكانت تشد اكثرية القوى المناهضة للاستعمار في كل من آسيا وافريقيا ، روابط عاطفية وثيقة الى دول المحور بسبب الموقف العدائي الذي وقفته تلك الدول من الاستعمار البريطاني الفرنسي المهيمن على البلاد العربية • وكانت تلك القوى ترنو بأبصارها ، باعجاب واكبار ، الى النظام النازي في المانيا ، والفاشي في ايطاليـا ، والعسكري في اليابان ، وترى في مثل تلك الانظمة السبيل الصحيح الى بعث الأمـة العربية • ولم يمكن عداء العرب الشديد للاستعمار البريطاني الفرنسي معظم القوى العربية في تلك الحقبة التاريخية ، من ادراك حقيقة الصراع الدائر بين دول المحور وبين الدول الحليفة ، فاذا أضفنا الى هـذه الوقائع ، أن معظم قادة التحرر السياسي في كل من سوريا وفلسطين ولبنان ومصر وغيرها ، كانوا من أبناء فئة ضالعة والاستعمار وتهيمن على الموارد الاساسية للبلاد ، لذلك كان مـن البدهي ألا يشجع مثل هؤلاء القادة المرموقين في النضال الوطني ، النزعات التطورية التـي

ترمي الى ارساء قواعد العدل الاجتماعي بالاضافة الى تحرير البلاد العربية من الاستعمار • لهذا كله لم يكن للانقلابات العراقية مغزى اقتصادي اجتماعي واضح المنهاج محدد الاهداف معروف المقاصد • كما وأن الاستعمار والفئة الضالعة معه من العراقيين لم يتركوا لقادة الجيش العراقي ، فرصة واحدة تمكنهم من التفكير بالقيام باصلاحات اجتماعية جذرية ، اذ ان الاستعمار وأذنابه كانوا في حركة وتحرك دائمين ، وهذا مما اقتضى قادة الجيش العراقي أن يركزوا كل نشاطاتهم ويكرسوا كل مجهوداتهم لمجابهة موءامرات الاستعمار والخونة من أذنابه • ومع هذا كله ، فلقد كان للانقلابات العسكرية أثر سيكولوجي عميق في الشعب ، فلقد فتحت عيون الشعب على مساوىء الاستعمار ومخازيه ، وسلطت الانوار الكاشفة على الخونة وأذنا فحافظت بذلك على الروح الشعبية وغذتها بغذاء نضالي ، وهذا الغذاء ، وان لم يكن له من الأثر المباشر ذي الفعالية السريعة في الميدان الاجتماعي ، غير أنه كان يشكل موردا تعبويا ضخما •

فالشعب عندما يصبح قادرا على التحسس بمظالم الاستعمار ، يندفع الى التمرد والثورة ، وعندما يتحرر الشعب من نير التسلط الاجنبي يبدأ حتما بالتمرد على الانظمة البالية • فروح الثورة اذا ما اشتعلت حماسة فانها لن ترتاح أبدا الا بعد القضاء على جميع المظالم من استعمارية استثمارية ، او استعبادية استغلالية •

وختاما لهذا الفصل أرى لزاما علي أن أقرر أن العسكريين العرب ، والعراقيين منهم على وجه الحصر ، كانوا هم وحدهم الذين دفعوا بمواكب القومية العربية أشواطا واشواطا على طريق التحرر السياسي ودك صروح الاستعمار والمستعمرين ، وذلك طيلة الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية • اما باقي عسكريي البلاد العربية ،

وخاصة تلك التي كانت كالعراق شبه مستقلة ، فان موقفهم من قضايا العرب والعروبة كان موقف المتفرج حينا والمناهض لآمال الأمة احيانا ، لذلك فان الفضل كل الفضل يعود فيما حققه العرب ، ابان الحقبة الفاصلة بين الحربين العالميتين ، من مكاسب وطنية الى الجيش العراقي وحده .

الفصل الثالث

في الانقلابات والثورات

١ ــ الجامعة العربية :

قلت فيما تقدم ان الثورة المجيدة التي قام بها الجيش العراقي ضد الاستعمار عام ١٩٤١ ، قد أشعرت بريطانيا بأصالة القوميـة العربيـة وجبروتها ، وأقنعتها بأن القوة المادية العارية عاجزة وحدها عن تعطيـل فعاليات الروح القومية وعن كبح جماح نقمة الأمة العربية على الاستعمار والتجزئة الاقليمية التي فرضها المستعمرون على البلاد العربية . لذلك أخذت بريطانيا تفتش عن وسائل وأسباب من شأنها أن تلطف من حدة العداء العربي لها ، وتساعد على تحقيق بعض آمال الشعوب العربيـة حبا في الحفاظ على ما لبريطانيا من مصالح بترولية وعسكرية وسياسية في العالم العربي . لهذا عقب أن أخمدت القوات البريطانيـة الثورة العراقية وطردت قوات « فيشي » من سوريا ولبنان ، أذاعت الحكومة البريطانية وحكومة فرنسا الحرة بيانا على الشعبين العربيين في سوريا ولبنان تعهدتا فيه بمنح هذين القطرين استقلالهما التـام الناجز ، ثم وعقب فترة من الزمن اوعزت بريطانيا الى صديقها الاول في العـالم العربي نوري السعيد بالقيام باجراء مفاوضات مـع الدول العربيـة المستقلة منها ، وشبه المستقلة ، لايجاد نوع من الارتباط الحقوقي بين هذه الدول .

وقد اسفرت مساعي نـوري السعيد ، وبخاصـة المفاوضات التي

أجراها مع الزعيم الوطني الخالد مصطفى النحاس عن قيام ما نعرفه اليوم بجامعة الدول العربية • وقد لاقت ولادة الجامعة العربية ترحيبا حارا من الشعوب العربية ، حيث خيل اليها أن الجامعة هي خطوة في طريق الأمة العربية الى تجسيد الولايات العربية المتحدة ذات النظام الفيدرالي ، وانها تعتبر انتفاضة قومية ضد التجزئة السياسية التي فرضها الاستعمار على البلاد العربية • ولكن ما كادت الجامعة تمارس وجودها في الحقلين القومي والدولي حتى اتضح للأمة العربية أن الجامعة ليست سوى تكريس للتجزئة القائمة وتثبيت للانقسام الاقليمي السائد ، وأن القائمين عليها يؤمنون بأن الجامعة العربية اداة فعالة للمحافظة على كياناتهم السياسية الهزيلة • لهذا كله ادركت الجماهير العربية أن الجامعة العربية لم تكن ، ولا يراد لها أن تكون ، خطوة الى الامام في طريق الأمة العربية االى الاتحاد الفيدرالي فيما بينها ، وانما يراد لها أن تكون بمثابة اعتراف قانوني بالتفرقة بين شعوب العرب والتجزئة بين اقطارهم • وهذه الحقيقة جعلت الأمة العربية ، تنظر الى الجامعة العربية نظرة بعيدة كل البعد عن الولاء والتقدير ، وترى فيها جامعة حكومات لا جامعة شعوب •

والحق يقال ان الجامعة العربية هي أكبر خدعة نفسية عاناها ويعانيها العرب اليوم ، وهي تجربة فاشلة لا تستحق النفقات التي تكبدتها وتتكبدها الشعوب العربية لاعالة موظفيها وأمينها العام وإداراتها العديدة ، لذلك فان الجامعة العربية ، هي في نظري ، أقرب الى مأوى للعجزة ، منها الى مؤسسة قومية تستطيع أن ترضي حتى المعتدلين جدا في طموحهم من القوميين العرب • أما سبب عجز الجامعة العربية وكساحها فانما يعودان الى عامل وحيد ألا وهو محاولة دولة أو بعض دولمن أعضائها فرض ارادتها على بقية الدول العربية الاخرى،

لقد كان العرب يأملون بأن تحقق لهم الجامعة العربية نوعا من الاتحاد ينسق على الاقل بين اقتصاديات الأقطار العربية ويقيم سوقا عربية مشتركة ويقضي على التشتت الاقتصادي السائد اليوم في دنيا العرب، هذا التشتت الذي أنزل وينزل الأضرار البالغة بكل قطر عربي ويحول دون انشاء اقتصاد عربي موحد يمكن الدول العربية من رفع المستوى المعاشي للفرد العربي • هذا ما كان يأمله العرب بالجامعة ، ولكن ويا للأسف ان الجامعة ، كانت ، دائما وأبدا ، تبذل كل جهد لتدعيم الحواجز الجمركية وتثبيت الحدود الوهمية التي تفصل بين الاقطار العربية • لذلك فشلت الجامعة في كل حقل وهزمت في كل ميدان وأصبحت الساح الذي يؤكد فيه العرب خلافاتهم ويعلنون منه عن تنافرهم وتنابذهم •

ب ـ استقلال سوريا ولبنان :

ما كادت فرنسا تلمح تباشير النصر في الأفق حتى ندمت على العهد الذي قطعته باستقلال سوريا ولبنان ، فحاولت أن تقيد هذا العهد بمعاهدة يوقعها معها أقطاب هذين البلدين كي تحافظ على امتيازاتها السياسية والاقتصادية وتبقي سوريا ولبنان بلدين شبه مستقلين • لقد تناست فرنسا أن العملاق العربي قد انطلق من قمقمه وأن القومية العربية باتت حقيقة وواقعا وأن حسا جماعيا قوميا دفاقا مرهفا ينتظم الشعوب العربية من الاطلسي الى الخليج ، وأنه نتيجة لهذا الحس الجماعي الملتهب ، لم يعد بامكان الاستعمار أن يحارب قطرا بعد قطر ، وشعبا بعد شعب من شعوب الأمة العربية ، وانما أصبح لزاما عليه أن يحارب ، في وقت واحد ، في جميع الاقطار العربية وضد جميع الشعوب العربية • لهذا ما كادت فرنسا تقدم على اعتقال البطلين القوميين بشارة الخوري ورياض الصلح ، عقب تعديلهما للدستور

اللبناني ، حتى التهب العالم العربي من مشرقه حتى مغربه ومن جنوبه حتى شماله ، ووقفت الأمة العربية وقفة الرجل الواحد الى جانب لبنان الحبيب ، معقل الحرية وموئلها • وتلك كانت الحال ايضا عندما قصف الفرنسيون المدن السورية بمدافعهم وطائراتهم ، ولقد وقفت بعض القطعات العسكرية العربية في الجيش الفرنسي المرابط في سوريا آنذاك الى جانب الشعب وساندته بكل ما تملك من قوى في المعركة المريرة التي كان يخوضها ضد جحافل الاستعمار الفرنسي ونزواته • ففي اواخر شهر نيسان عام ١٩٤٥ أقسم الضباط العرب في القوات المدرعة من الجيش الفرنسي والمتمركزة في جبل الدروز على الانضمام الى جانب الشعب فيما اذا تطورت الأزمة بين فرنسا وسوريا الى نزاع مسلح • ثم بدأ كبار هؤلاء الضباط يعدون انقلابا عسكريا يطوح بالادارة الفرنسية وبالموظفين الفرنسيين من عسكريين ومدنيين ، في دوائر جبل الدروز • وعقب ان أعد الضباط خطتهم للعمل اتصلوا بالأمير حسن الأطرش محافظ جبل العرب آنذاك وأطلعوه على ما أعدوه وطلبوا اليه السفر الى دمشق واعلام الحكومة الوطنية فيها بالأمر والعودة اليهم بتوجيهاتها وارشاداتها • فسافر الأمير حسن الاطرش الى دمشق وأخبر رئيس الجمهورية والوزارة السورية بما نقله اليه الضباط ، فنصحت الحكومة السورية بضرورة تريث الضباط في القيام بانقلابهم حتى وقوع الواقعة ولجوء فرنسا الى استعمال القوة لفرض ارادتها على البلاد • فعاد الامير حسن الاطرش الى الجبل واجتمع بالضباط العرب وأطلعهم على ما نصحت به دمشق ، وطلب اليهم أن يلبثوا في حالة ترقب وانتباه شديدين ، وان يكونوا في حالة استعداد دائم لتنفيذ الانقلاب حالما يطلب اليهم ذلك •

قصفت فرنسا دمشق وحماة بالقنابل وخرج جنودها الى الشوارع

يعملون في السكان الآمنين قتلا وفي البيوت والمتاجر سلبا ونهبا ، وأخذ الكثيرون من الضباط والجنود العرب يفرون بأسلحتهم ويلتحقون بالثوار الوطنيين ، وأوفت القوة المدرعة في جبل الدروز بتعهداتها فاعتقلت الضباط الفرنسيين ونائب المندوب في الجبل وبقية الموظفين الفرنسيين وسلمتهم أسرى الى محافظ الجبل ، وبذلك سيطرت القطعات العربية على محافظة جبل العرب سيطرة تامة ، ثم أعلن قادة تلك القوة عن ولائهم للجمهورية السورية واستعدادهم لمتابعة الصراع ضد فرنسا حتى جلاء آخر جندي فرنسي عن الاراضي السورية • وحذا جنود حامية « ضمير » حذو حامية جبل الدروز فأعدموا تسعة من ضباطهم الفرنسيين ، ونزلوا الى شوارع دمشق ليساعدوا الثوار في نضالهم ضد فلول الجيوش الفرنسية • وعندما رأت بريطانيا أن سوريا قد عزمت على اشعالها ثورة شاملة ضد الاستعمار الفرنسي ، وان العالم العربي بأسره سيساندها معنويا وماديا في نضالها ضد الفرنسيين ، أمر المستر تشرشل الجيش البريطاني التاسع بدخول سوريا وفرض الحصار على الثكنات الفرنسية • وقد قام الجيش التاسع بمهمته على خير وجه فوفر بذلك على الشعب العربي السوري الكثير من الخسائر في الارواح والممتلكات • وان لبريطانيا في هذه المرحلة يدا بيضاء لن تنسى •

ولكن مما يأسف له ، أن هذا العمل النبيل الذي قامت به بريطانيا ، ازاء سوريا ، لم يكن صادرا عن نبل أصيل وشهامة مجردة ، اذ سرعان ما اتضح للشعب ان بريطانيا تريد وترغب في أن تحل محل فرنسا في سوريا • لهذا لم يكن من وسيلة أمام القادة في سوريا سوى اقناع بريطانيا بأن الشعب لن يرضى أبدا عن استبدال الاستعمار الفرنسي بآخر بريطاني ، فسارعت بريطانيا الى التشاور وفرنسا بغية الوصول الى وضع منهاج يمكن الدولتين الاستعماريتين من انقاذ ما يمكن انقاذه،

مما لهما من مصالح ونفوذ فعقدت الدولتان المذكورتان الاتفاق المعروف باسم « اتفاق بيفن ـ بيدو » • لكن سوريا رفضت ما جاء في ذاك الاتفاق جملة وتفصيلا ، وأبدت عزما صادقا على الحصول على استقلالها كاملا غير منقوص ، لا تقيده معاهدات ولا تحده اتفاقات ورفعت قضيتها الى هيئة الأمم المتحدة • وقد وجدت في الاتحاد السوفياتي وفي شخص المرحوم المسيو فيشنسكي بالذات ، وفي الضمير العالمي والوعي العربي ، الانصار لها والاعوان في حربها ضد الاستعمار وتثبيت دعائم استقلالها وحريتها •

ج ـ النكبة في فلسطين :

نزلت بنا النكبة في فلسطين فدحرت الجيوش العربية على بطاحها وجبالها ، وقامت دولة اسرائيل ، ولف الأمة العربية ليل مظلم داج جلبب أفئدة العرب بجلباب خشن ثقيل نسجته أنامل القلق وخاطته براثن الهول • وعاد الجنود من جبهات القتال يلعقون جراحهم ، ويتطلعون بحياء وخجل الى شعب أذهلته الفاجعة وهده الألم • لكن حتى النكبات والهزائم لا تخلو من فضائل وحسنات ، فالنكبة ، مع هولها ، لا تخلف في الأمة الحزن والالم فقط ، وانما تبعث فيها ايضا صادق العزم والارادة الجبارة للارتفاع الى مستوى الاخطار التي تحيق بها • وعندما تعزم الأمة على هذا الامر ، تبدأ أول ما تبدأ في دراسة اسباب الهزيمة التي نزلت بها ، وهذا مما يضطرها على سبرغور جميع مؤسساتها وأنظمتها والتفتيش عن مكامن ضعفها ، واطراح الناشز منها عن ارادة الحياة وغريزة البقاء •

كانت حربنا في فلسطين جريمة سياسية ومهزلة عسكرية تعاون العسكريون العرب والساسة على اعدادها واخراجها ، فجاءت انتاج

رغبة ضارية دنيئة في زعامة جوفاء وكسب رخيص مبتذل . فكانت الاعتبارات السياسية تسمو فوق كل اعتبار عسكري ، وكانت الأنانية المجرمة الحمقاء ، لا الضرورات الحربية ، ذات القول النافذ والامر المطاع . لقد ضربت الحرب التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين عرض الحائط بأبسط مبادىء الفن العسكري في حقلي الستراتيجية والتكنيك . ومع أن الدول العربية قبل دخولها الحرب ، قد اتفقت على انشاء قيادة موحدة للجيوش العربية السبعة ، لكنه قد اتضح فيما بعد أنه لم يكن هناك أي وجود فعلي لمثل هذه القيادة الا في مخيلة الأمين العام للجامعة العربية . فلم تقم قيادة تنسق فتوجه وتأمر ، ولم تكن للحرب جبهة موحدة مترابطة ، بل انما كانت هناك سبع جبهات مستقلة تقاتل فيها سبعة جيوش ، يحارب كل منها كقطعة عسكرية مستقلة لا تربطه بالجيوش الاخرى أية خطط مشتركة تنسق بين حركاته وحركات غيره من الجيوش العربية . لهذا غدا من المتوجب على كل جيش عربي أن يعتمد على عناصره فقط حين الهجوم او الدفاع او التراجع ، وأن يخوض المعارك وهو لا يثق او بالأحرى لا يدري ما الذي يستطيع الجيش المحارب في قطاع يجاور قطاعه ، أن يقدمه له من مساعدة واسناد . ومع أن لجنة عسكرية كانت تقيم في عمان مركز « القيادة العليا للجيوش العربية » يومذاك وكان يفترض في هذه اللجنة أن تضع الخطط العسكرية لجميع الجيوش العربية المقاتلة على جميع الجبهات ، غير أن هذه اللجنة كانت أشبه بالزوج المخدوع ، اذ أنها كانت آخر من يعلم بخطط الجيوش وبحركاتها ونواياها قادتها وحكوماتها . لذلك لم يكن هناك أي تعاون بين الجيوش العربية ، وبهذا فقدنا الميزة العسكرية الاساسية على اسرائيل . وأعني بهذه الميزة غزو اسرائيل غزوا جماعيا منهاجيا بحيث يمنعها من المناورة ويفقدها القدرة على اختيار الجبهة التي تريد لجيوشها أن تقاتل فيها ،

ويحول بالتالي بينها وبين حشد قواها الرئيسية في قطاع معين وتوجيه ضربتها الى جيش معين . أضف الى ذلك ، أن ضيق رقعـــة اسرائيل يسمر Carners الجيش الاسرائيلي ويشعره بأن القتال اذا ما انتقل الى خطوطه الداخلية ، فان قصر هذه الخطوط سيكون عاملا أساسيا من عوامل هزيمته . لهذا فان قادة الجيش الاسرائيلي كانوا طيـلة الحرب الفلسطينية يبذلون كل جهد لتجنب القتال على خطوطهم الداخليـة . وقد ساعدهم رجالات العرب من عسكريين ومدنيين على تحقيق غايتهم وأسدوا لهم العون والمساندة . فاستغلت اسرائيل انعـدام التنسيق والتعاون بين الجيوش العربية على مدى واسع ، وكان اصطلاح « ماكو أوامر » من العوامل الممتازة التي مكنت اسرائيل من الصمود في وجه الجيوش العربية وتوسيع رقعتها وطرد اخواننا من عرب فلسطين مـن بلادهم واغتصاب ممتلكاتهم . فلم يبادر أي جيش عربي ، طيلة الحملة الفلسطينية الى تخفيف الضغط عن جيش عربي آخر أمسى هدفا لهجوم اسرائيلي مركز ، وانما كان هم كل جيش أن يقف عنـد الخطوط التي وصل اليها وأن يتخذ موقف المدافع في حالة وقـوع هجوم اسرائيلي عليه . فالجيش العراقي مثلا ، عقب ان أنزل هزيمة ساحقـــة باليهود حينما حاولوا احتلال بلدة جنين اكتفى برد اليهود على اعقابهم خائبين، ولم يستغل هذا الانتصار فيطارد اليهود ويتعقب فلولهم ليوسع قطعـة الارض التي يحتلها . كما وأن الجيشين العراقي والاردني وقفا موقف المتفرج من المعارك الضاريـــة التي خاضها اللواء المصري المحاصر في الفلوجة . وهناك خطأ فظيع ارتكبه الساسة والعسكريون معا ، وذلك عندما سمحوا للسيد فوزي القاوقجي بدخول فلسطين على رأس جيش الانقاذ بقوة غير كافية . فنحن نعلم ان اليهود بدأوا باحتلال القسـم المخصص لهم من فلسطين قبل جلاء الانكليز عنها بأسابيع قليلة ، وان المناضلين العرب من الفلسطينيين هم وحدهم الذين تكفلوا قبل دخول

جيش الانقاذ بمقاومة التوسع الصهيوني ، لذلك كـــان يتوجب على الساسة والعسكريين أن يلحقوا اقوى العناصر العسكريـــة بجيش الانقاذ وأن يزودوه بأحسن ما لديهم من أعتدة وذخائر كي يحول هذا الجيش « غير الرسمي » دون احتلال اليهود المواقع والمدن العربية • كما وأنه كان يتوجب على مصر أن تزود متطوعيها بالعناصر والقـوى العسكرية الفعالة كي يتمكن هؤلاء ، بالتعاون وجيش الانقاذ ، مـــن ايقاف تقدم اليهود ورفع معنويـات السكان العرب • لكن افتتاحيـة المعركة **Prelude** ، هذه الافتتاحية المتمثلة بدخول جيش الانقاذ وقوات المتطوعين فلسطين ، كانت افتتاحية فاشلة ، وكثيرا ما تكـون للافتتاحية كل صفات الحسم في الحرب ، لهذا فانني أرى أن العرب قد دحروا في فلسطين قبل اليوم الخامس عشر من أيار ، فمدينة يافا سقطت مثلا في ٢٧ نيسان وكذلك حيفا والقدس الجديدة وغيرهما من المـدن العربية الكبيرة • وقد أدرك اليهود أهمية افتتاحية المعركة ، وجـاء ادراكهم هذا واضحا فيما ورد في كتاب الارهابي اليهودي المشهور « مناحيم بيجن » زعيم منظمة الارغون • يقول الارهـابي « بيجن » في الصفحة ٢١٩ [١] من كتابه « الثورة » •

« كان باستطاعة العرب ، وبارشاد بريطانيـــا ، وأثناء الاسابيع الثلاثة الباقية على الغزو العربي ، أن يغرقوا يافا بالرجال والعتاد لقصف تل أبيب وفوق ذلك لم يكن رحيل البريطانيين مؤكدا في ١٥ أيــار • فقد بقـوا في بعض المنـــاطق الى منتصف تموز • ولكن نفترض ان القوات البريطانية كانت ستجلو في ١٥ أيار ، فاننا عندئذ لن نقابـــل عدوا قويا فحسب وانما ستتغير الظروف ايضا • ففي صباح ١٥ أيـار كانت الطائرات ستبدأ بقصف تـل أبيب ، وستعطل المواصلات ، وفي

---

(١) « الثورة » لمناحيم بيجن : تلخيص سمير صنبر

حالة كهذه لم نكن لنستطيع تحريك قواتنا ونجداتنا وذخائرنـــا الى جبهات القتال • »

ثم يستطرد الارهابي فيقول مزهوا مفاخرا :

« ثم ان يافا لا تبعد كثيرا عن غزة ، والقـوات التي نزلت في غزة كانت تستطيع أن تنزل في يافا • وفي ١٤ أيار لم نكن نملـك طائرات او بواخر حربية ••• لقد انقذ احتلالنا يافا شعبنا اليهودي من الدمار • لقد كان احتلال يافا حدثا عظيما في حرب التحرير اليهودية • » ولكن هل هزمت حقا الجيوش العربية عسكريا في فلسطين ؟! وهل كـانت حربنا في فلسطين حربا بالمعنى العسكري لهذه الكلمة ؟! أم كانت حربا سياسية لا تمت الى العسكرية والعسكريين بوشيجة او صلة ؟! انني أترك الجواب على هذين السوءالين للمشير طه الهـاشمي ، اذ ورد في حديث له أدلى به عام ١٩٥١ جاء فيه قوله :

« ان القوات العربية لم تحارب بالمعنى الصحيح حتى يقال انهـــا خسرت المعركة • واذا كانت نتيجة القتال قد جاءت في صالح اليهود ، فمرد ذلك الى اسباب سياسية لا عسكرية• وعلى الرغم من أن الجيوش العربية لم تدخل فلسطين بقوات كافية ، الا أنها كانت قادرة دون ريب على منع قيام الدولة اليهودية، لو استخدمت هذهالجيوش في الاغراض العسكرية البحتة • فالحركات التي سبقت الهدنة لم تكن تجري طبعا لخطط واغراض عسكرية ، وانما كانت تسير وفـــق أهواء السياسة النفعيـة • »

أدرك واضعو الستراتيجية اليهودية جميـع هـذه الامراض التي كانت تفتك بالجسد العربي آنذاك ووضعوا خططهم على هداها وكانوا يعلمون حق العلم بأنهم سيخرجون ظافرين منتصرين على العرب، وذلك

بفضل العقد النفسية التي كانت تسيطر على العالم العربي يومذاك •
ولقد جاء في تقرير رفعته قيادة « الهاغانا » في ٢٥ آذار عام ١٩٤٦ الى لجنة التحقيق « الانجلو أميركية » ما ترجمته بالحرف الواحد :

« لا تستطيع الحكومات العربية القيام بأية مقاومة فعلية في فلسطين فيما اذا تقرر تحويلها الى دولة يهودية • كما ولن تستطيع الشعوب العربية السادرة في جهلها وغفلتها ان تثور ضد حكوماتها• واننا لقانعون بان العراق لا يقدر على ارسال فوج واحد الى فلسطين لان حكومة بغداد انما تعتمد دائما على الاسلحة البريطانية • ومن السخف حقا ان نتصور ان يرسل العراق جيشا لشن حرب لا تريدها بريطانيا • ومن ناحية اخرى فان مرور القوات العسكرية العراقية في اراضي شرق الاردن لا يمكن ان يتم الا بموافقة بريطانيا ، وهذه لن تسمح لها قط بالمرور • »

مما ورد يتضح ان الاستعمار والانظمة وغفلة الشعوب العربية هي الاعمدة الثلاثة التي قامت عليها الستراتيجية الصهيونية في الحرب اليهودية العربية • وقد خيل الى الصهيونية ان الانظمة المدعومة بالاستعمار وغفلة الشعوب العربية ستمكنها من الانتصار الحاسم في حربها ضد العرب ، وستنتهي بها الى انشاء الدولة اليهودية الممتدة من النيل الى الفرات ، لذلك لم يكن امام العرب الا ان يقوضوا تلك الانظمة ويطردوا الاستعمار ويفتحوا اعينهم على حقهم في الحياة • وهذا ما بدأ في سوريا ليمتد فيما بعد الى مصر فالعراق • لقد ادركت الامة العربية ، ان معركتها ضد الاستعمار والصهيونية انما تبدأ اول ما تبدأ في دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من عواصم العالم العربي ، ولفظ الشهيد العقيد احمد عبد العزيز انفاسه الاخيرة فى فلسطين وهو يدمدم :

« ان معركتنا الكبرى هي في الداخل ، في القاهرة ! »

د ـ انقلاب حسني الزعيم :

خرجت سوريا ظافرة من معركة الاستقلال . وتسلم مقاليد الامور فيها رجالات قادوا المعارك الجماهيرية ضد الاستعمارين التركي والفرنسي بشجاعة ونبل وشهامة . لكن معظم هؤلاء القادة كانوا عاجزين عن فهم القاعدة الذهبية القائلة بأن الشعوب حينما تحارب من اجل تحقيق تحررها السياسي من الاستعمار ، انما ترمي ، وهي قد لا تدري ، ان تحرير الفرد من الفاقة والعوز وبناء نظام يكفل الانسان من المهد ، الى اللحد ، ويشعره بان المجتمع والدولة مسؤولان عنه مسؤولية كاملة وان حقهفي الحياة تضمنه حقيقةكونه انسانا وان الوطن في نظر السلطة ليست رقعة من الارض يدب الشعب فوقها كالسائمة ، وانما هو شعب من حقه ان ينعم ويسعد في ربوع بلاده .

يكمن السبب الرئيسي ، في عجز رجالات سوريا آنذاك عن تفهم هذه الحقائق ، وراء منطق الطبقة الاجتماعية التي تحدر منها الحكام . فلقد كان جل الوزراء والنواب وكبار الموظفين في تلك الفترة ، من ابناء العائلات الكبيرة ذات الاقطاعات الواسعة. وكانت مفاهيمهم وتقاليدهم تبنع وتحدد وفقا لمصالحهم السياسية والاقتصادية . لهذا كان من العسير جدا على اولئكالقادة ان يروا الجوهر الانساني فى الفلاح ، فاتبعوا حين ممارستهم السلطة اساليب « باشاوات » الاتراك ومناهج الحكام منهم . وهم بدلا من ان يتجهوا الى نفس الاسس التي كان يستند اليها الاستعمار في حكم سوريا ، دفعتهم غريزتهم المصلحية الى اعتمادها والسعي لتشييد صرح الاستقلال عليها . فبقيت جميع التشريعات المعمول بها في سوريا ، وطيلة عهد الاستقلال ، تشريعات عثمانية

فرنسية . وقد وجد الحكام الجدد فيما خلفه لهم العثمانيون والفرنسيون من قوانين وقرارات ما يفي بأغراضهم ويدعم نفوذهم ويصون سلطانهم السياسي على المجتمع والدولة . ونتيجة لهذه السياسة الظالمة الخرقاء ، بقيت الطبقة الفقيرة تتحمل العبء الاكبر في تأمين موارد الموازنات العامة ، وبقي الفلاح رقيقا للارض والمالك سيدا مرهوب الجانب مطاعا . اما المناصب الكبرى ، من وزارات ونيابات ووظائف مرموقة ، فأمست وقفا على ابناء العائلات الكبيرة ، وهكذا حول الاستقلال سوريا من مزرعة كان يملكها ويديرها الاتراك فالفرنسيون، الى مزرعة يملكها ويديرها ابناء عائلات القوتلي ومردم والجابري والعظم والاتاسي والبرازي الخ ... فمن اجل تأمين مصالح هذه العائلات كانت تسن القوانين وتتخذ القرارات . كل هذه الحقائق جعلت رجل الشارع ينظر مذهولا مفجوعا بما حمله اليه الاستقلال ، فهو لم يجد يومذاك من فرق بين الاستعمار والاستقلال ، سوى أن مستعمرا أجنبيا قد جلا ليحل محله مستعبد مستغل من أبناء وطنه وهكذا بقي تركيب المجتمع طيلة العهد الاستقلالي الاول يرتكز على الدعامة ذاتها التي كان يرتكز اليها طيلة عهود الاستعمار ، وأعني بهذه الدعامة الفئة الحاكمة بشكليها العائلي والعشائري . لذلك لم تكد تمضي سنتان على جلاء آخر جندي أجنبي عن البلاد حتى هبت زوابع التذمر والسخط على رجالات الحكم، وجاءت الانتخابات النيابية العامة للدورة التشريعية الثانية لتخذل مرشحي الحكام في كل من دمشق وحلب وحمص خذلانا ذريعا ، مما اضطر رجالات العهد على اللجوء الى التزوير المفضوح كي يؤمنوا انجاح من بقي في الميدان من مرشحيهم في الانتخابات التكميلية .

ومع ان تلك الانتخابات قد اظهرت لكل ذي رشد ان الذين قادوا معارك التحرر السياسي بنجاح ضد الاستعمار ، قد فشلوا فشلا ذريعا

في قيادة الجماهير في حربها ضد الفقر والجهل والمرض ، غير ان رجالات العهد سرعان ما تمكنوا من السيطرة على المعارضين، او بالاحرى المنافسين الذين اصبحوا نوابا وذلك لان هؤلاء «المنافسين» لم يكونوا ليختلفوا في روحهم ومنطقهم ونظرتهم الى الطبقة الفقيرة ، عنهم ، فوافقوا على تعديل الدستور بغية تجديد ولاية السيد شكري القوتلي الذي انتخب للمرة الثانية رئيسا للجمهورية وباكثرية ساحقة . لم يأت انتخاب القوتلي للمرة الثانية بمثابة تدعيم للنظام الاقطاعي ، وانما كان ترميما لنظام مخل استنزف ضرورات وجوده . فدخل المجتمع ابان ولاية القوتلي الثانية ، في مرحلة من الجمود التام ، بحيث اصبح معها عاجزا عن التطور بصورة سلمية ، دون ما انفجار او ثورة . فلقد ضرب القوتلي ورفاقه عرض الحائط بالناموس الحديدي الذي ينتظم الكون ، هذا الناموس القائل بان كل شيء في هذا الكون الكبير : من الجبلة الاولى حتى الانسان ، ومن الجماد حتى النبات فالحيوان ، انما يخضع لناموس الحركة ، وان ما نشاهده من سكون في الطبيعة فانما هو حالة وقتية من حالات الحركة . وكذلك هي حال الامم والشعوب ، فهي حتى حينما تغفو وتنام في احضان رقاد عميق ، فان نومها هو حالة وقتية من حالات حركتها ، لهذا فان كل نظام أو هيئة أو طبقة تسعى لتعطيل ناموس الحركة في الطبيعة ، تدخل حتما في صراع ميؤوس منه ضد طبيعة الاشياء ، وهذا ما حدث بالضبط للفئة الحاكمة التي كان يمثلها في الحكم آنذاك السيد شكري القوتلي ورفاقه ، فحاولت هذه الفئة ان تقمع المظاهرات الدامية التي شهدتها شوارع دمشق وحمص وحماة وحلب بالقوة ، وأن تفرض سلطانها بالارهاب فاستصدرت المرسوم الشهير بمرسوم « ٥١ » وكان هذا المرسوم يمنح السلطة التنفيذية سلطات دكتاتورية واسعة ، ويخولها حق اعتقال من تشاء وفرض الاقامة الجبرية على من تختار ضحية لعسفها واضطهادها .

لذلك ما كاد المذيع في راديو دمشق يعلن في صباح الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ عن أن انقلابا عسكريا قد وقع ، وأن الجيش قد تسلم مقاليد الأمور واعتقل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وبعض الخطرين حتى خرجت جماهير الشعب لتعانق الجنود فرحة مغتبطة ، فسارت المظاهرات الجماهيرية في شوارع دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية الرئيسية تعلن عن تأييدها للجيش وتبارك انتفاضته التحررية وتصب اللعنات على نظام اندثر ورجالات عهد باد ، أرادوا أن يفرضوا الجمود على الطبيعة وأن يمنعوا مواكب الأمم من الانطلاق وعجلة التاريخ عن الدوران .

لقد رأى الشعب يومذاك في ثورة الجيش فجرا لنظام جديد ، وبداية مطمئنة لعهد جديد ، وادرك أن عهد السلبية ، عهد التهديم ، قد انتهى ، وأن عهدا ايجابيا انشائيا قد بدأ فاقبل الشعب بكل جماهيره ليتبنى الثوزة العسكرية ، وليرتفع بقائد الجيش ،الزعيم حسني الزعيم ، الى أعلى ذرى الزعامة والقيادة ، اذ تبدى حسني الزعيم في الاسبوعين الأولين للانقلاب ، بطلا منقذا ومحررا استطاع أن يوفر على الشعب الكثير من الضحايا والقاسي من الالام ، التي كانت تستوجبها ثورة شعبية لهدم نظام بال مخل . وهكذا دخل حسني الزعيم التاريخ من اوسع ابوابه ، ووصل الى سدة الحكم من اقصر طرقه ، فما كان عليه ، بعد ان اجتمعت له كل أسباب النجاح ، وشقت الجماهير أمامه كل دروب الطموح والمجد ، الا أن يخطو بالشعب نحو أمانيه ، فيثبت مقدرته على مجاراة الزعامة لمواكب الأمم ، وقدرتها على أن تكون (الزعامة) قوة دافعة للركب لا قوة معطلة له . لقد أمسى، يومذاك ، حسني الزعيم ربان سوريا ومثلا أعلى للشعوب العربية وجيوشها ، فاصبح محطا للآمال ، آمال الفلاح والعامل بعيش كريم ، وآمال العربي

المستعمر بالتحرر من ربقة الاستعمار ، وآمال الفرد العربي بتحقيق الاتحاد العربي وتجسيده في الولايات العربية. كل هذه المثل العليا ألقت بطموحها الوثاب في صدر حسني الزعيم ، فكان على حسني الزعيم اما أن يستوعبها ، أو ان يندثر وينهار .

١ ـ اخطاء حسني الزعيم :

تسلم حسني الزعيم مقاليد الأمور وهو يجهل جهلا مطبقا بجميع العوامل التي دفعت بالشعب الى تأييده واحاطة حركته بهالة من القداسة ، ومحضها حبا خالصا واخلاصا مكينا لم يكن أبدا ليتوقعهما نظرا لجهالته بقوانين التطور والرقي . فلقد كان حسني الزعيم صباح انقلابه وجلا خائفا مذعورا ، وكان يرهب ان يقابل الشعب انقلابه بثورة مناهضة ، وكان يعتقد بان للعهد البائد أنصارا أقوياء ، وأن الشعب لم ينفض عن العهد المندثر بقضه وقضيضه . ونحن اذا ما عدنا اليوم الى القرارات والبلاغات التي أصدرها حسني الزعيم في الايام الاولى لانقلابه لوجدنا أن زعيم الانقلاب كان يحاول مكافحة الخوف المتمكن من نفسه باخافة الشعب وارهابه . فلقد أصدر قرارا يقضي بمنع التجول وآخر يحظر حمل السلاح تحت طائلة الاعدام ، ثم اقدم على تعليق عدد من المجرمين المدانين على أعواد المشانق في المدن السورية الرئيسية رغبة منه في ارهاب الشعب والقاء الخوف في قلوب أبنائه . وهنا اقترف حسني الزعيم الخطيئة الاولى من سلسلة أخطائه . فهو بدلا من أن يسند نظامه الى ولاء الشعب وحبه ، أراد أن يسنده الى اخافة الجماهير وارهابها ، فأشاع الوجل والقلق في قلوب المواطنين ، فالبلاغات تنذر والبيانات تحذر والقرارات تتوعد والسلطات تعتقل قافلة تلو أخرى ، والجواسيس يحصون على الناس انفاسهم ، وخيل الى الناس ان الانقلاب قد انقلب على نفسه فغدا انقلابا تأديبيا مفرطا

في تأديبه ، بدلا من أن يكون انقلابا انشائيا بناء • ويشاء القدر ان يكون قائد الانقلاب ، حسني الزعيم ، من اولئك الناس المنحرفين الذين طبعوا على التفتيش عن السعادة في تحدي الناس واستفزازهم ، فلقد كان رحمه الله وغفر له أحمق مغرورا ذا ثقة عرمة كاسحة بمعصوميته عن الخطأ ، ولم تكن ثقته وليدة عقل يخضع لمنطق يترجم أعماله وجدانا، بل انما كانت وليدة تؤمن بان القوة المجردة كفيلة بحل كل عقدة ، وان البطش والارهاب يكنسان كل عقبة ويعطلان كل لغم • لهذا تناثرت ثقته بنفسه غرورا ، تحديا ، استفزازا واحتقارا للبشر ، وكان رحمه الله لا يشعر بأنه يحيا الا اذا مارس في المجتمع ما ذكرته فيه من خصال، وكان اذا ما أرغمته الظروف على الانكماش النفساني ، ينسحب الى كهوف الحقد ليرضع آماله الشخصية لبان الذحل والموجدة ، يتربص الفرص ، فاذا ما واتته انفجر انتقاما مدمرا مروعا في عنفه وقسوته • لذلك كان اول أمر أصدره حسني الزعيم حال احتلال الجيش مدينة دمشق ، يقضي باعتقال النائب فيصل العسلي الذي سبق له ان هاجم حسني الزعيم في البرلمان السوري بخطاب شهير مشهور • وطلب الى ابراهيم الحسيني ، آمر شرطة الجيش آنذاك ، أن يحلق رأس النائب العسلي بالموسى ، وأن يأتيه بشعره في غلاف ، وهذه الحادثة ،انْ دلت على شيء فانما تدل على أن حسني الزعيم كان مريضا « بالساديزم » ذا نفسية يأكلها الحقد وتنهشها نقمة افعوانية الأنياب ، ويسيرها منطق صبياني شرير •

كان على حسني الزعيم ، عقب نجاح انقلابه ، أن يختار النظام الذي يريده لسوريا وأن ينتقي العناصر التي يرغب في التعاون معها فالشعب في سوريا شعب طموح يتعجل الزمن وأحيانا يريد أن يستبقه ، ظنا منه ، أن في استباقه للزمن ، تمسي أمانيه حقائق • وكان على اختياره

لنوعية النظام ورجالاته يتوقف مصير حسني الزعيم كقائد ورئيس دولة • ولكن الاختيار يقتضي الانسان أن يكون متمتعا بملكة التمييز بين ما هو غث وما هو سمين ، ومن المحزن أن حسني الزعيم كان فاقدا لهذه الملكة ، التي هي عامل حيوي في نجاح رجل الدولة ، فغروره لم يترك له منذ أن كان فتى يافعا حتى أعدم ، فرصة واحدة ليطبق مبدأ النقد الذاتي على نفسه ، هذ المبدأ الذي يعتبر وبحق والد ملكة التمييز وأمها• لذلك لم يستطع حسني الزعيم أن يفهم طبيعة المرحلة التي يجتازها المجتمع في سوريا ، وأن يدرك أنها مرحلة تقتضي علاجات جذرية ، لا علاجات انقلابية تستبدل أشخاصا باشخاص ووجوها بوجوه دون أن يطرأ على الجوهر تبديل أو تعديل• وقد اكتشف البعض مكامن الضعف في نفسية حسني الزعيم ، فتسللوا الى قلبه تحت ستار كثيف من الرياء والنفاق والدجل ، فاذا بمحسن البرازي يصبح رئيسا للوزراء ، واذا بمستشاريه وخلصائه حثالات من المرتزقة والانتهازيين ، واذا بانصاره عصبة شريرة لا يلذ لها أن تأكل رغيفها الا اذا كان معجونا بدم الفضيلة الذبيحة ، فاذا بالشعب في سوريا يرى يومه كأمسه ، فالاشخاص هم هم وان اختلفت اسماؤهم الاولى ، والقوانين هي هي وان شابها عنف وخالطتها قسوة في التنفيذ ، والاحوال هي الاحوال ، وان غيب برلمان وألغي دستور ، والعرف العام ، هو نفسه لم يتبدل او يتغير ، والجيش يقف بدباباته ومدافعه وطائراته ليوفر له الحماية ويصد عنه عاديات التقدم والتطور •

فتوارت الحرية وانسحبت من المجتمع حزينة مفجوعة ، وتنكر الرياء بثياب الحكمة والعقل ، واختبأت الحقيقة في سراديب مظلمة ، وأصيب المنطق بشلل جعله يتوكأ على عصى نخرها سوس الارهاب والذل ، وأخذت الأماني تمشي حذرة هيابة على دروب كلها عقبات وحفر ،

وبدأ الشعب يأكل أصابعه ندما على عهد اندثر ، وعلى رئيس جمهورية كان على الأقل يراعي الدستور والقانون • فاتضح للجميع أن حسني الزعيم لم يأت ليحرره وانما جاء ليستعبده ويذله ، فاغتنمت بشتى العوامل فرصة خيبة أمل الشعب فدفعت بسامي الحناوي ليخط وأعوانه من الضباط نهاية حسني الزعيم المحزنة المفجعة •

هـ ـ انقلاب سامي الحناوي :

حطم المد حسني الزعيم ، وانتهى الى النهاية الفاجعة التي ينتهي اليها كل طاغية ، وكل فرد او جماعة تؤمن بان السلطة هدف وغاية •

واندفع اللواء سامي الحناوي ، ورفاقه من الضباط ، كالعقيد علم الدين القواص والرؤساء حمود الرفاعي وعصام مريود ومحمد معروف وخالد جادا ، متضافرين مع غيرهم من عناصر حزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب السوري القومي والشيوعي ، داخل الجيش ، ليطوحوا بحسني الزعيم وبوزارته ونظامه • وقد استقبلت الاوساط السورية ، التجارية ، انقلاب سامي الحناوي بفرح واغتباط اذ رأت في مخططه فرصة ذهبية لتناسل ثرواتها وتكاثرها وذلك نظرا لتوافر عناصر التكامل في الاقتصادين السوري والعراقي • أما جماهير الشعب فرأت في انقلاب الحناوي ، العودة الى العمل بدستور يحترم الحريات ويمنع العسف والاضطهاد والتنكيل ، لذلك خرجت الجموع الشعبية مرة ثانية لترحب بانقلاب جديد ولتعانق جنود الجيش وضباطه بالشوق واللهفة ذاتهما اللذين عانقت بهما جنود حسني الزعيم وضباطه من قبل •

وفى سامي الحناوي بعهده ، فشكلت وزارة ائتلافية برئاسة هاشم الاتاسي ، ضمت جميع النزعات والميول منها الرجعي وعملت هذه الوزارة على اشاعة الاطمئنان والثقة في نفوس الجماهير فأفرجت عن

المعتقلين السياسيين ، ثم أعلنت أن البلاد بحاجة الى دستور جديد ، فأجرت انتخابات عامة اسفرت عن قيام جمعية تأسيسية عهد اليها باشتراع دستور جديد للبلاد .

لكن تلك الجمعية لم تكد تباشر المهام المنوطة بها حتى بدأ العراق يضغط على سامي الحناوي ويطالبه بالوفاء بالتزاماته وعهوده بضم سوريا الى العراق ،وقامت بريطانيا من جانبها بالضغط على سوريا والعراق معا لقبول مشروعها الدفاعي عن الشرق الاوسط ، فألقت مصر بثقلها في المعركة وأخذت تبذل كل جهد للحيلولة دون انضمام سوريا الى العراق ، اذ كانت ترى ان مثل هذا الانضمام ، يهدد ما وضعه القصر الملكي المصري من مشروعات لفرض النفوذ المصري على العالم العربي . كما وان الاستعمار الاميركي رأى في قيام اتحاد عراقي سوري توطيدا للنفوذ البريطاني في منطقة الشرق الاوسط . ويجب ألا يغرب عن بالنا ، ان الصراع على النفوذ بين اميركا وبريطانيا في منطقة الشرق الاوسط عامة والبلاد العربية خاصة كان قد بلغ ذروته آنذاك . وهكذا غدت سوريا ميدانا واسعا من ميادين الحرب الباردة ، هذه الحرب التي كانت تدور رحاها بين الحليفتين الغربيتين ، اميركا وبريطانيا . وقد شعر الشعب السوري بما يبيت له ، وايقن الجيش أن الاستعمار يسعى ليعود من جديد عن طريق الاحلاف الى سوريا ، وايقن بعض قادة الجيش ، أن القيادة العامة للجيش ضالعة مع الاستعمار البريطاني ومتفقة معه على توطيد نفوذه تحت ستار قومي ، ألا وهو الوحدة ، او الاتحاد بين سوريا والعراق . فانشطر الجيش السوري الى فريقين ، تزعم الفريق الاول منه اللواء سامي الحناوي ، أما الفريق الثاني فالتف حول العقيد أديب الشيشكلي الذي أخذ على نفسه الحيلولة وبكل الاسباب الممكنة من اتحاد سوريا والعراق ، والوقوف

في وجه كل محاولة ترمي الى فرض الاحلاف العسكرية على سوريا بغية اعادة سوريا الى حظيرة الاستعمار • وقد بلغ الصراع بين الفريقين ، فريق اللواء سامي الحناوي ، رئيس الاركان العامة آنذاك ، وفريق أديب الشيشكلي قائد اللواء الاول ، ذروته في اواخر عام ١٩٤٩ اذ أن اللواء سامي الحناوي قرر يومذاك ضرب منافسيه في الجيش والقضاء عليهم ووضع مشروعاته موضع التنفيذ العاجل • فحاول ان يستدرج قادة الفريق الثاني الى بيته ليعتقلهم ويزج بهم في السجون ، غير أن الشيشكلي ورفاقه من الضباط أمثال العقداء محمد ناصر وعزيز عبد الكريم ومحمود بنيان وغيرهم من الضباط أطلعوا على مرامي الحناوي من وراء توجيه الدعوة اليهم فرفضوا أن يستجيبوا الى دعوته وأمروا القطعات المدرعة المعسكرة في القابون باعتقال الحناوي ورفاقه من الضباط الاخرين فاطاع قادة تلك القطعات اوامر الشيشكلي فاعتقلوا الحناوي وانصاره وزجوا بهم في غياهب السجون •

و ــ انقلاب الشيشكلي :

تضافرت جميع الاحزاب غير المخضرمة من يسارية ومحافظة على انجاح انقلاب الشيشكلي • والحق أن هذا الانقلاب ، الذي وان كان قائده قد انحرف فيما بعد عن اهدافه ، يعتبر اعمق الانقلابات العسكرية وطنية وأعرقها عروبة وذلك لانه حال دون عودة النفوذ الاستعماري الى سوريا •

وكاد اديب الشيشلي يدفع حياته ثمنا لاحباط تلك المحاولات ، وذلك عندما أقدم حسين توفيق ورفاقه على محاولة اغتياله في اواخر خريف عام ١٩٥٠ • أضف الى ذلك ان انقلاب الشيشكلي هو الذي عمق المفاهيم الاجتماعية للدولة وساعد نزعات العدالة الاجتماعية • على

التطور والنمو ، لذلك تفرض علي الأمانة التاريخية ان اقرر أن ذاك الانقلاب كان المحاولة الجدية الاولى لارساء الدولة على قواعد من العدل الاجتماعي • زد على ذلك أن الشيشكلي كان اول قائد عسكري عمل بكل ما اوتي من جهد لجعل الجيش مؤسسة عربية •

وقد انجز الشيشكلي جميع هذه الاعمال النبيلة ابان الفترة التي شغل فيها منصب معاون رئيس الاركان العامة • لكن الشيشكلي لم يرد لطموحه أن يتوقف عند منصب معاون رئيس الاركان ، أو حتى منصب رئيس الاركان نفسه ، فلقد كان الشيشكلي يتطلع بلهفة وشوق الى الرئاسة الاولى في البلاد وكان يرى في قيادة الجيش الجسر الى ذاك المنصب المرموق • وهنا كان على الشيشكلي أن يتخلى عن العقائدية الى الاحتراف السياسي ، وأن يرى في الجيش الطريق الى غايته وأمانيه • وبهذا اضاع الشيشكلي الفرصة التي حباه اياها القدر ، فهو بدلا من أن يرتفع بالجيش فوق الاحزاب ويسمو بمؤسساته فوق المنازعات المذهبية ويفرضه حارسا أمينا على القوى الصالحة في البلاد ، أراد أن يجعل منه حزبا سياسيا يسانده ويعاضده ويعمل على تنفيذ أهدافه ومشروعاته الشخصية وبذلك انتهى دوره التقدمي وسار سيرة انتهازية لا تتفق والروح التي بدأ بها حكمه •

الفصل الرابع

سيكولوجية الأمة العربية

مدخل

ان من أهم ميزات رجل الدولة الرشيد ، ان لم يكن أهمها ، هو أن يكون عميق العلم واسع الاطلاع شديد الحساسية والتجاوب وسيكولوجية الأمة ، وعليما بالعناصر الأساسية التي تتركب منها هذه السيكولوجيا ، فالسياسة ليست بعمل ميكانيكي ، ورجل الدولة ليس بعامل يتعامل أو يدير آلة صماء بكماء لا عقل لها أو ارادة ، والأمة ليست بقطعة عسكرية تؤمر فتطيع دون أن يكون لها عقل يناقش أو وجدان يزن أو ضمير يحاكم .

ان السياسة هي فن التعامل مع البشر ، انها فن الاستفادة من ردود الافعال السيكولوجية الناشئة عن أعمال بشرية والمولدة بدورها لاعمال بشرية ، انها ذاك الفن الذي يرتكز في جليل الأمور ودقيقها الى تلك السلسلة اللامتناهية من سلسلة الافعال فاذا كان يشترط بالمعلم أن يكون عليما بسيكولوجيا الطفل واليافع والشاب ، فمن باب اولى أن يكون رجل الدولة علامة بسيكولوجيا الأمة من فرد وطبقة وجمهور . وعظمة رجل الدولة لا تتمثل أبدا بصراعه اليائس ضد عواطف ، أقول عواطف لا نزوات ، الجمهور ، وانما تتجلى في تحويل هذه العواطف الى طاقات ايجابية خلاقة . وما أنظمة الحكم التي تقنع بها الأمة أو تذعن لها سوى مرحلة من مراحل تطور سيكولوجيتها أو جمودها . وكل

نظام حي خلاق انما هو ذاك النظام الذي ينسجم ويتناغم وسيكولوجيا الأمة ، وكل نظام آخر ما عدا هذا النظام الآنف الوصف ، انما هو نظام عاقر عقيم يفتقر الى أبسط مقومات الخصب والحياة ، لأنه يعيش في تربة ومناخ غريبين عنه معاديين له ، لذلك سرعان ما تجف جذوره وييبس جذعه وينضب ماء الحياة من غصونه فيتهاوى ويهوي حطبا في أتون الأمة لتلفظه رمادا خابيا خابلا .

ومن أفدح الأخطاء التي قد يقترفها رجال الدولة ، أن يقدموا ، دون ما وعي أو مراعاة لسيكولوجيا الأمة ، على استيراد أنظمة وعقائد لا تتفق فطرة وجوهرا وسيكولوجيا أمتهم ، ومثلهم في هذه الحال يكون كمثل من يحاول تفصيل الجسد ليطابق مقاسات رداء ابتاعه جاهزا ، متجاهلا أو جاهلا بأن طبيعة الاشياء تفرض أن يفصل الرداء وفقا لمقاسات الجسد ومواصفاته . فالانظمة الأصيلة والعقائد الصالحة انما هي تلك التي تنبع من ذات الأمة عقلا وروحا ووجدانا ، وذلك لان مثل تلك الأنظمة وتلك العقائد هي نتاج تفاعل أزلي أبدي بين غريزة حب البقاء في الأمة وبين جميع ظروفها الحياتية من اقتصادية ومجتمعية ومناخية وجغرافية ، واختلاف هذه الظروف بين الأمم هو الذي يقرر اختلاف سيكولوجيات الأمم بعضها عن بعض ، وهو بالتالي الذي يقرر اختلاف محرضات الحوافز في نفسيات الأمم بعضها عن بعض ، وذلك في ميدان الحضارة لا ميدان المدنية ، لأن محرضات الحوافز في ميدان المدنية تكاد تكون واحدة لدى كل الأمم ، وهي تجتمع في مبدأ النفعية ، مبدأ الفردية المنحرفة .

فما هي سيكولوجيا الأمة ؟

ان سيكولوجية الأمة هي ، كما قلت آنفا ، غريزة حب البقاء المتفاعلة وكل الظروف الحياتية والمنفعلة والأماني الغامضة منها والصريحة ،

والخوف الغامض منه والصريح ، وذلك ابتداء من الفرد فمجتمع العائلة فالمجتمع القبلي فالمجتمع القومي • وكل مجتمع من هذه المجتمعات الآنفة الذكر هو مظهر أساسي من مظاهر سيكولوجيا الأمة ، وهو في الوقت ذاته نواة لمظهر يليه • وكل مظهر من هذه المظاهر يخلف وراءه ، بعد اضمحلاله وتلاشيه ، رسوبات مجتمعية تتبدى أعرافا وعادات وتقاليد وخرافات وأساطير ، وهذه جميعا لا تزول وتتلاشى حين زوال المجتمع الذي نشأت منه وعنه ، بل تمتد بها الحياة الى آماد وآماد بعد انهيار المجتمع الذي دفع بها الى الوجود ، ومن هنا تنشأ الانتكاسات التي تلاقيها الحركات السياسية ، وذلك اذا كان القيمون على هذه الحركات أطفالا يتعاملون والأماني وينبذون وقائع التاريخ وحقائقه • وهذه الرسوبات لا تقتلع جذورها من سيكولوجيا الأمة ثورة أو ثورات ، بل انما يقتلع جذورها العمل المثابر الصابر الذي يعتبر الزمن عنصرا أساسيا في عمليته ، عنصرا يتيح للمجتمع الجديد الماثل في النظام الجديد فرصة النمو والاثمار ، فرصة التدليل على أنه أفضل مما سبقه من انظمة • اما اذا أصر القادة على اقتلاع جذور هذه الرسوبات في سيكولوجيا الأمة بمرسوم أو قانون ، قبل أن يثمر النظام الجديد أو تضرب عاداته وتقاليده وأعرافه جذورها في التربة ، فعندئذ يدفعون بالأمة الى الحيرة والقلق والدوران في حلقة مفرغة ، نعرف اين وكيف بدأت ولكن لا نعرف متى وكيف تنتهي • وهنا يدخل القيمون على النظام في صراع فاجع ضد طبيعة الاشياء ، صراع ينتهي عادة بفشلهم وهزيمتهم ، والسبب في ذلك أن هؤلاء يريدون للأمة أن تعيش في فراغ ، فهم يريدون لها أن تتخلى عن عاداتها وتقاليدها قبل أن يستولدوها عادات جديدة وتقاليد تدلل على أنها أفضل مما تقدمتها • لذلك يتوجب علينا أن نعالج هذه الأمور بروية وحذر شديدين ، لان اقتلاع جذور هذه الترسبات الضاربة في تربة صلبة

صلدة من العادات والتقاليد والاعراف أمر مرهق شاق تحف به المخاطر من كل جانب • لا سيما وأن رجـل الدولة الرشيد هو ذاك الذي يستطيع أن يوفق بين المبـادىء الأساسية والظروف السيكولوجية القائمة• زد على ذلك أن كل نظام جديد لا يولد كاملا مكتملا ، بل انما يتكامل تدريجيا ، وعملية تكامله هـذه تؤدي الى تناقص في فرص حياة النظام القديم وأسبابها • وهذه العملية مماثلة تماما لعملية تبديل أسنان الحليب لدى الطفل ، فنحن نرى في هذه العمليـة سنا يخلع سنا ونابا يقتلع نابا وضرسا يسقط ضرسا ويحل محله ، وذلك بعد أن يكون الجديد قد ضرب جذوره في الحنك وشق طريقـه في اللثة • وأسنان الحليب لا تتساقط جميعا دفعة واحدة ، بل انما يسقط الواحد منها عقب مضي فترة من الزمن على سقوط الآخر ، وذلك كي لا يبقى فم الطفل في فراغ من الاسنان • ونحن اذا ما دفع بنا حبنا أو غـيره من النوازع لخلع اسنان الحليب للطفل قبل أوان تساقطها فعندئـذ سيكون عملنا هذا عملا غبيا أحمق •

ان الأنظمة كالافراد تمامـا فهي تولد وتترعرع وتشب وتشيخ وتموت • لذلك فاذا كان للتقدم السياسي من فضل فان هـذا الفضل يبدأ وينتهي بتهيئة المناخ الصالح لنمو النظام الوليـد • فالسياسة لا تجسد نظاما ولا تخلق مجتمعا بل ان مهمتها الاولى والأخـيرة هي في أن توجد لذاك النظام وهذا المجتمع المناخ الصالح الذي يمكنها مـن النمو والتكامل ، وذلك لان مقومات النمو والتكامل وأسبابهما كامنة وموجودة داخل النظام الوليد الصالح ، وان الانظمة الجديـدة لا توجد تلك المقومات ولا تخلق الأسباب • لذلك كانت الأنظمة ولا تزال اجراء دفاعيا وقائيا لا عملا هجوميا عدوانيا وان رافق أعمالهـا شيء من عنف • فليس هناك من نظام تهاجمه ثورة او انقـلاب ، فالنظام

القديم لا يسقط تحت مطارق الثورة ، بل انما يموت ويفنى . وموته وفناؤه انما يعودان أولا وأخيراً الى شيخوخته وعجزه عن تنسيق وتنظيم وتطوير أسباب وعوامل وعناصر جديدة دخلت ميدان الحياة. وهنا تصبح مهمة النظام الجديد مواراة جثة النظام القديم التراب . أما اذا أصر القيمون على النظام الجديد على التجاوز بنظامهم الى أبعد من هدفيه الآنفي الذكر ، دفن (النظام القديم ، وتهيئة المناخ الصالح للنظام الوليد) فعندئذ يعرضون نظامهم الى أشد المخاطر والانتكاسات والاهوال . فالثورة لا توجد تربة للنظام الجديد ، اذ أن تربته هي الأمة ، كما وأنها لا تخلق نواته ، اذ أن نواته هي سيكولوجيا الأمة المترجمة لغريزة حب البقاء فيها .

ولكن لكل نظام مهما كانت درجة تطوره متدنية فضائل ومآثر ، وهذه الفضائل والمآثر هي التي تحافظ على تماسك وحدة النظام في مرحلة تاريخية معينة تشكل الدورة الحياتية لذلك النظام . ولما كانت فطرة الأمة فطرة فاضلة خيرة ، فان سيكولوجيا الأمة تتمثل تلك الفضائل وهذه المآثر ، وتمسي هذه كلها عناصر أساسية من سيكولوجيتها حتى في حالة انتقالها من نظام الى نظام ومن مجتمع الى مجتمع . لذلك يتوجب على القيمين على النظام الجديد ألا يعتبروا أن النظام القديم شر كله ، بل عليهم أن يؤمنوا بأن النظام القديم كان في مرحلة معينة نظاما تقدميا فيما اذا قيس بالنظام الذي سبقه ،وانه أمسى الآن ، في هذه المرحلة ، نظاما استنزف أغراضه ، أو بالاحرى نظاما عاجزا عن التكيف وظروف هذه المرحلة وعن الاستجابة الى تحدي عناصرها ومتطلباتها . وعجزه هذا وحتى موته لا يجرده من فضائله ومآثره ، لهذا يتوجب علينا أن نجعل من تلك الفضائل وهذه المآثر حوافز ودوافع للنظام الجديد ،لا أن ننكرها أو نتنكر لها ، اذ انها

تشكل التراث التاريخي لنا ولنظامنا في هذه المرحلة من مرحلة انبعاثنا. فأمتنا العربية لا تبدأ بجيلنا ، ونحن لسنا بأمة جديدة على الحضارة أو مستجدة فيها ، والسيكولوجيا ، العربية على ما أؤمن قد تبلورت أخلاقا ومناقب قبل أن يبصر جيلنا النور بآماد وآماد . زد على ذلك أن كل حركة خيرة ايجابية يستحيل عليها أن تتبنى الانكارية المطلقة ، لانها تعلم ، حق العلم ، أن الانكارية المطلقة هي السلبية المطلقة ، وأن أخطر ما فيها أنها تخلق اعتبارات خادعة مضللة في مقاييسنا الاخلاقية ، وتلغي الاعتبارات الضميرية وتبدد طاقات الأمة وتهدد مجهوداتها ، وهذه حقيقة يجب أن ندخلها في حسابنا ونحن نخطط ونعمل لبناء مستقبل الانسان العربي .

والآن ما هي العناصر الأساسية التي تشكل السيكولوجية العربية؟ انها ، على ما أرى ، النخوة ، الاباء ، الجرأة الادبية ، الروية ، العدل الديمقراطية المباشرة ، الايمان باللامحسوس .

*

لا شك أن النخوة هي مفتاح سيكولوجية الامة العربية ، فالعربي الأصيل هو أبعد أهل الارض عن النفعية ، وانت اذا ما توجهت الى أريحيته ، تستطيع أن تنال منه كل ما تبغي وتريد ، وتستطيع أن تدفع به الى أقاصي الارض ، وأن تجعله يحقق لك المعجزات . لذلك فان التعامل والعربي يجب وفي كل الاحوال ألا يتم على أسس تجارية ، فهمة العربي لا تستثيرها المنافع والارباح بل تستثيرها العقائد والمبادىء والاخلاق . والعربي لمستعد أن يتنازل لك عن كل ما يملك ، ما عدا كرامته وشرفه ، شريطة أن تعرف كيف تخاطبه وكيف توقظ فيه نخوته وشهامته.لذلك فان العربي أبعد الناس خضوعا للقوة واذعانا لها ، وهو

اذا ما جوبه بالقوة ، فاما ان يقاوم أو أن ينسحب من أمامها استجماعا لقواه بغية الرد عليها بمثلها ، وذلك لأنه يرى في القوة ، حتى في القوة المستهدفة الخير العام ، تحديا لنخوته واستفزازاً لها وبالتالي تعطيلا لوجوده كانسان فاعل في الحياة • وهذا الامر ناشيء عن أن فردية الانسان العربي قوية جبارة ترى أن من حقها كل حقها أن تشترك وتشارك في كل أمر وعمل ، وتؤمن بأن الطريق الى الخير العام انما هو التنافس في الفضائل والمزاودة في العطاء ، وليس هو القوة والارغام • زد على ذلك أن الحياة القبلية التي عاشها العربي ، حينما كانت كل قبيلة من قبائل العرب أمة مستقلة قائمة بذاتها ، تعيش في حالة حرب دائمة وغيرها من القبائل ، جعلت من النخوة الوسيلة الوحيدة لاستنفار ابناء كل قبيلة وتعبئتهم للقتال •

وقد حدث مرة أن أغارت قبيلة شمر على قبيلة الرولا في سوريا وأنزلت بالاخيرة هزيمة نكراء ترامت انباؤها الى مسامع أحد ابناء عشيرة الرولا المقيمين في الكويت ، فامتطى هذا البدوي ذلوله وقصد سوريا للانضمام الى قبيلته والقتال في صفوفها • وما قصة المعتصم بخافية على القراء •

زد على ذلك ان العربي الاصيل، البدوي، مرهف الحس بالمسؤولية الجماعية ، فالعقوبة مثلا عند القبائل ليست بعقوبة شخصية، بل انها عقوبة جماعية تتناول جميع الافراد حتى الجد الخامس وعند قبائل اخرى تبلغ الجد السابع ، فاذا ما اقدم احدهم مثلا على قتل فرد من الافراد ، فان مسؤولية القتل لا تقع فقط على القاتل وحده ، بل انما تقع على كل فرد من عائلته حتى الجد السابع ، كما وانه يحق لاي فرد حتى الجد السابع ان يقتص للقتيل من القاتل او من اي فرد من اقارب القاتل • اضف الى ذلك انه اذا ما فقد احدهم ماشيته نتيجة لغارة او

قحط فان ابناء قبيلته يجمعون له ما فقده •

اذن فالتكافل الاجتماعي امر فطري في الامة العربية ، وهو مبدأ يفاخر به العرب ويرون التقاعس عن القيام بملزماته عملا معيبا مشينا • لكنه في الوقت ذاته ليس بمبدأ يفرض من الخارج ، بل انما هو مبدأ ينبع من داخل الانسان العربي ويطفو نخوة وأريحية ، اذ انه عطاء من القلب وعطاء القلب لا يجرح كرامة السائل ويبارك في مال الواهب • لذلك يتوجب على الجيل الجديد الذي اناط به القدر قيادة هذه المرحلة ان يعي وعيا عميقا هذا العنصر السيكولوجي الهام ، عنصر النخوة ، من عناصر سيكولوجية الامة العربية ، وان يتوجه اليه حين تفجير طاقات الأمة الخلاقة • وعليه ، وفي كل الاحوال ، ألا يعمد الى جعل الحقد والضغينة والموجدة محرضات لنشاطه وحوافز لاعماله ، فالحقد حتى وان حقق هدفه ، غير أنه يخلف وراءه في نفس صاحبه وفي نفس ضحيته جروحا تحتاج الى سنين وسنين كي تبرأ وتندمل • زد على ذلك أن العربي لا يحقد الا في ثلاث حالات ، الأولى على قاتل قريب له ، والثانية على جارح كرامته والثالثة على منتهك عرضه ، وهو قد يعف ويعفو في الحالة الاولى ، لكنه لا يغفر ابدا في الحالتين الثانية والثالثة • لذلك فان الحقد الذي كان عاملا فعالا في تفجير الثورات في دول الغرب ، لن يكون له الأثر ذاته في تفجير الطاقات الخلاقة في الامة العربية ، اذ أن النخوة هي سبيلنا ووسيلتنا • والسبب في اختلاف الأمة العربية سيكولوجيا عن الأمم الغربية ، كون الامة العربية لم تمر أبدا بمرحلة نظام الاقطاع وفقا لمفهومه الغربي هذا المفهوم المستند الى مبدأ التبعية الدائمة والذي يتألف من القواعد التالية :

١ ـ الخدمة المجانية الاجبارية في ارض « الشريف » يوما كل اسبوع

٢ ـ الخدمة الاجبارية المجانية في المواسم
٣ ـ تقديم الهدايا « للشريف » في الاعياد والمناسبات
٤ ـ طحن الغلال في مطحنة الشريف وعصر الاعناب في معصرته
٥ ـ تحديد الشريف ـ حسب هواه ـ لمقدار الارض الممنوحة لرقيق الارض والخدمات والضرائب المطلوبة منهم
٦ ـ ممارسة الشريف لامور الحكم والقضاء حسبما يقضي به مزاجه الخاص
٧ ـ عدم السماح لرقيق الارض بترك الارض التي يستغلونها لحساب الشريف الى أرض أخرى
٨ ـ شراء الفلاحين حريتهم بالمال •

ان نظرة واحدة يلقيها المرء على قواعد نظام الاقطاع الغربي واسسه الآنفة الذكر لتستثير في نفس أي انسان دفين الاحقاد ومرير الضغائن على ذلك النظام الظالم وأربابه الطغاة ، ولكن الامة العربية ، ما عدا القطر المصري ، لم تعرف مثل هذا النظام بالرغم من أن تركيا حاولت بعد استيلائها على البلاد العربية أن تجسد هذا النظام وتفرضه على العرب فاستوردت عائلات غير عربية واقطعتها الاقطاعات الكبرى ساعية الى اذلال العرب • ونحن اذا ما فتشنا عن أصول جميع كبار الملاك الزراعيين في البلاد العربية نجد أن معظمهم يتحدر من أصلاب غير عربية • لكن الامة العربية التي صمدت في وجه « التتريك »قاومت هذه المحاولة الشريرة فهجر الكثير من القبائل أرضا كادوا يستوطنونها وعادوا الى حياة البادية وشظف عيشها •

زد على ذلك أن الامة العربية لم تعرف ولم تمر حتى الان بمرحلة الرأسمالية التي مرت بها الامم الغربية • وقد عانت هذه الامم خلال هذه

المرحلة الالام المبرحة ومثلت الرأسمالية على مسارح بـلادها وخارجها أفجع المآسي الانسانية ، وسيطر الجشع بشكليـه المستغل والمستعمر ، وهددت كرامة الانسان فأمسى عبدا للآلة وملاكيها وغدا واجبه أن يكدح ليلا ونهارا وفي ظروف حياتية يثور عليها حتى الحيوان ، كـي يكدس الارباح في صناديق أرباب العمل •

ان من يطالع التقارير التي وضعها مفتشو العمل في بريطانيا مثلا عن أوضاع العمال وأجورهم ليعذر كل العذر الشعوب الغربية اذا اعتمدت الحقد محرضا لها على الثورة ، وليشعر بالمرارة والالم ينهشان كبده نهشا ، وليدرك أي طريـق وحشي دام شقته الرأسماليـة لنفسهـا في المجتمعات الاوروبية والمستعمرات وهاكم بعضا من نماذج لهذه التقارير :

ورد في التقرير المرفوع الى مجـلس العموم البريطاني عـن وضع الاولاد العمال في مصانع الزجاج في بريطانيا المقطع التالي :

« ان اكثر الاولاد في معامل الزجاج حيث تصنع القوارير الصوانية والزجاج مرغمون على السير مسافة ١٥ ــ ٢٠ ميلا تستغرق منهـم ست ساعات ، وكثيرا ما يستمر هذا العمل من ١٤ الى ١٥ ساعة • وليست هناك ثمة لحظة واحدة للعب واستنشاق الهواء النقي، ان لم يكن ذلك على حساب النوم الذي لا غنى عنه لأولاد يقومون بأعمال قاسية كهذه وفي جو محرق كذلك الجو ••• كما وأنلحظات النوم القصيرة متقطعة لانه يتوجب على الأولاد أن يستيقظوا « لقضاء حاجاتهم » في الليل ، أو بسبب الضجة الخارجية التي تقلق نومهم في النهار • »

ووردت الفقرة التالية في تقرير مفتش العمل « لورد » :

« يعمل فريق وجبة النهار خمسة أيام كل اسبوع ، وتبلغ ساعات العمل اليومية ١٢ ساعة ، ويعملون يوما واحدا كل اسبوع لمدة ١٨ ساعة ،

أما فريق الليل فيعمل خمس ليال كل اسبوع »
ويستطرد المفتش لورد قائلا :

« في حالة تغيب العمال المناوبين فثمة أطفال دون الثالثة عشرة ومراهقون دون الثامنة عشرة ، ونساء يستخدمون في هذا النظام العملي الليلي ...

وقد ثبت من أقوال الشهود أن صبيانا صغارا وفتيات شابات غالبا ما يرهقون بالعمل الاضافي الذي لا يستمر ٢٤ ساعة فقط بل انما يتعداها الى ست وعشرين ساعة » .

ولنتأمل مليا في هذه الفقرة التي وردت في العريضة التي رفعها عمال المغازل والمناسج في بريطانيا الى مجلس العموم عام ١٨٥٩ :

« لكي نقول الحقيقة كاملة غير منقوصة ، نقرر أن حياتنا عزيزة علينا، وطالما بقينا مقيدين الى المعمل تقريبا ٢٠ ساعة زيادة في الاسبوع فسوف نشعر بأننا عبيد أذلاء في البلاد وسوف نلوم أنفسنا لاننا نخلد نظاما هو سبب الهلاك المعنوي والجسماني لنا ولجنسنا . »

ولنتمعن بتلك العبارة التي فاه بها أحد أبناء الشعب الفرنسي خلال الثورة الفرنسية معلقا على اعدام أبناء الطبقة الارستقراطية اذ قال :

« كيف لا أبتهج ... وأنا لا أزال أذكر كيف كنت أخوض وأبي وأمي واخواني وأخواتي اوحال المستنقعات ومياهها الآسنة لننظفها من الضفادع التي كانت تقلق نوم سيد القصر وسيدته بنقيقها . » مثل هذه الظروف القاسية لا يمكن لها الا أن تحمل بالحقد والنقمة والانتقام . فهي ظروف تستفز المشاعر الانسانية وتتحداها على صورة قاسية وقحة لئيمة وتخلق في النفس البشرية مختلف العقد وتنحدر بالانسان الى كهوف الذحل والموجدة وتستأصل من ذاته كل جذور المغفرة

والغفران ، وتترك الفرد يجتر أحقاده وضغائنه متربصا الفرص ، حتى اذا ما حانت بعضها أو كلها اندفع من كهوف الذحل ليحرق بصواعق نقمته طبقة سامته الذل والهوان ، وليدك بمطارق ثورته نظاما سداتــه الظلم ولحمته الطغيان ، لذلك جاءت معظم اجراءات الثورات الغربية بمثابة اجراءات تستهدف أول ما تستهدف الانتقام، اكثر من استهدافها تبديل نظام بنظام وحكم طبقة بحكم طبقة اخــرى • والحــق أن الاجراءات الانتقامية ، التي عمدت اليها الثورات الاوروبية قد بددت الكثير مــن الطاقات المبدعة الخلاقة كما وأشاعت الفرقة والانقسام بــين صفوف الثوار أنفسهم وأدت بالتالي الى انتكاسات مروعة مدمرة • وذلك لانه اذا ما أطلقت الاعنة لشياطين الانتقام ، عندئذ تنحرف الثورة عن أهدافها الاساسية وتدور في حلقةمفرغة من الانكارية ويرافق انحرافها انحطاط بشع مريع في الضمائر والأخلاق ، فيعم الفساد وتنتشر الرذائل وتخرب الذمم ويصبح الرغيف أو المنصب او الحماية الهدف النهائي للثوار ، وهنا تتعطل الكفاءات أو تعدم ، ويشرد الاحرار ، وتغــدو الجاسوسية الجهاز الرئيسي في الدولة ، ويسود جو خانق من الكبت فتجمد حيوية الامة ويعطل الخوف نشاطات الفكر ويردم الارهاب منابع الوجدان ، وتسيطر النفعية البشعة على كل قيمة، فينحر الاباء على مذبح الشهوات، ويضحى بالحقيقة على أعتاب الرغائب والاهواء ، أمــا الثورة المنحرفة فانها تتابع تدحرجها مشتعلة ملتهبة لتسحق وتحرق كل ما يعترض طريقها من شر أو خير حتى تستقر أخيرا رمادا خابيا في قعر الهاوية ، غير مخلفة وراءها سوى الجراح والالام والخسائر ، وشعب كسير القلب مكدود ، وجماهير فاقدة الثقة بالمستقبل معــدومة الأمل بالثورة وبــالاجراءات الثورية ومستعدة للترحيب حتى بنظام شيطاني كبديل عن الثورة المنحرفة•

اذن فان أخطر الاوبئة التي تقتل الثورة ، انما يتمثل في أن تستقطب الثورة الانتقام وأن يتناسى قادتها ، أن الثورة لم تنشب بغية الانتقام من

فرد أو أفراد أو طبقة ، بل انما نشبت فقط من أجل ايجاد المناخ الصالح لنظام وليد . فالثورة تستهدف أولا وأخيرا هدم الظروف الموضوعية لنظام استنزف أغراضه بغية تهيئة الجو لظـروف موضوعيـة جديدة يستوجبها تكامل النظام الوليد وترسخه في سيكولوجيا الامة كقواعد وتقاليد وأعراف .

لهذا كله يتوجب على جيلنا وهو يحاول اليوم أن يبني نظاما جديدا وأن يجسد مجتمعا يضمن الكفاية والعدل الاجتماعي والكرامة الانسانية ، أن تنبع جميع نشاطاته من غيرته ونخوته لامته وللانسانية ، لا من رغبته في الانتقام والتشفي . ونحن اذا ما استطعنا أن نجعل النخوة دستورا لنا في عملنا ، وأن نتقيد بقواعدها ، ونترفع فـوق الاهواء والاحقاد والانانيات ، وأن نندمج في الامة عقلا وروحا ، وأن نذوب في ضميرها ووجدانها ، وان نستقطب مبادىء الرحمة والغفران والعفو عند المقدرة ، عندئذ ننسجم كليا وجوهرنا العربي الاصيل ، ونتجاوب وفطرتنا العربية التي لم تعرف العقد ولا التعقيد ونردد مع شاعرنا العربي :

لا يعرف الحقد من تعلو به الرتب

ولا يبلغ المجد من طبعه الغضب

ان للحقد أثرا مجرما مدمرا للنوازع الانسانية السامية في نفس الانسان، وأخطر ما فيه أنه يرسخ جذور السادزم في نفـوس القادة ويجعلهم لا يستشعرون اللذة الا من الالم . والسادزم يمثل نفسية منحرفة عاجزة عن العطاء ، عاجزة عن البناء ، نفسية لا تنتشي الا اذا عبت الكؤوس المترعات بالدم ، ولا تطرب الا لعويل الثكالي ونحيب الايامى ونشيج اليتامى . والسادزم هو المظهر الشرير للانهزامية ، لانهزامية الانسان الفاشل أمام تحدي الكون له ، لذلك تراه ينفس عن مشاعره الانهزامية هذه بتحطيم

معطيات الانسان وانجازاته . انه الاعتراف اللاواعي بعقمه ، انـه نقمة العقم على الخصب والنماء ، انه نقمة القبح على الجمال، نقمة الخير على الشر ، نقمة العدم على الحياة ، انه انتحار الانسانية في الانسان .

أما النخوة فهي ابنة المحبة الشرعية ، مظهرها عاطفة جياشة تأخذ بيد الضعيف تأسو جراحه ، تحنو عليه وتحدب ، تسنده في الملمات ، تعضده أمام الشدائد ، تثور على المظالم فتقتلع جذورها ، وعلى صروح الطغاة والطغيان فتدكها دكا ، وتنطلق بالبشرية على دروب الحق والقوة والبناء والعطاء ، وهي لذلك لا تقيم بموازين النفعية من تبادلية أو انتهازية .

٢ ــ الابـاء

ان من تستقطب نفسيته النخوة لا بد ان يكون أنوفا أبيا ، فالانسان العربي الاصيل لا يهمه ما تعطيه ، بل انما يهمه أولا وأخيرا كيف تعطي ما تعطيه ، فهو من تلك الفئة من الناس الذين يقنعون بالقليل مع الكرامة ويرفضون الوافر الجزيل مع الذل . وقديما قال شاعرنا عنترة بن شداد .

كأس الحيـاة بذلـة كجهنم
وجهنم بـالعز أفضـل منزل
لا تسقني كأس الحياة بذلـة
بـل فاسقني بالعز كـأس الحنظل

كما وجاءت على لسان ذاك الشاعر البدوي « أبي زويد » الابيات التالية :

اختر لك من عوص الانضار ماله   حمراء تورد بك الى صنقر اللال
خله مع الديان تمشي لحالـه   أليعاد ما أنت للمسة الخشم حمال

الحمرة تـدرك معوشة عيـاله   ليعاد ما يبغي منه باقي الاحـوال
ترى ربع يوم مقصدك بالجلالة   يسوى زمان عايشين بـه آنذال

وتحضرني هنا قصة وقعت حوادثها أبان الاحتلال التركي لسوريا . اذ حدث أن استدعى جمال باشا السفاح أحد شيوخ العشائر ، وهو على ما أظن المغفور له نوري الشعلان ، رئيس عشيرة الرولا ، وأخذ يهدده ويتوعده ويطلب اليه القيام بأمر تأباه نفسه العربية وتقاليدهـا واختتم وعيده بالمثل المأثور القائل :

لا تعاند من اذا قال فعل !

فما كان من هذا الشيخ الا أن أجابه لتوه :

وأنت لا تعاند من اذا شد رحل !

وهناك أيضا المثل العربي الشهير القائل :

« الحرة تموت ولا تأكل بثدييها » والعشرات ، لا بل المئات ، غيره من الامثلة التي تدل جميعها على أن الاباء يضرب جذوره عميقا في تربة النفس العربية ، وعلى أنه يشكل عنصرا عضويا منهـا ، عنصرا يجعل العربي الاصيل مترفعا عن الدنايا ، يرفض بكل آنفة وشمم أن يقايض على كرامته برغيف أو غيره من متاع الدنيا . لذلك يتوجب على القادة أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يعوها وعيا شاملا عميقـا اذا ما أرادوا

---

(١) ينصح الشاعر البدوي ابنه قائلا : فلتحتفظ لك دائما بذلول من نجائب الابل ، ذلول تستطيع أن تقطع بك الصحارى والفيافي في قائـظ الصيف ولهيب حره ، وذلك اذا ما شعرت بانك عرضة لـذل او هوان ، وكانت نفسك تأبى عليك الصبر على الحيف او الاهانة . أما امور العيش، فلا تجعل منها مصدر هم لك ، فالقبرة ، هذا الطائر الضعيف الهزيـل ، تدرك هي ايضا ما تقيم به اود صغارها ، وثق بأن ربع يوم تعيشه كريما عزيزا ليعادل زمانا جد طويل يعيشه المرء خانعا ذليلا .

للجهود العربية أن تتوج بالنصر • فالعرب لا تستهويهم المنـاهج ولا البرامج الاصلاحية ، ولا حتى التغييرات والتبديلات الجذرية ، اذا ما عمد القيمون على تنفيذها ، أو المبشرون بها الى فرضها بالقوة والارغام، والى تنصيب انفسهم أوصياء على الامة العربية• فالفردية،كما قلت آنفا، هي في نفسية العربي شديدة الحساسية الى أقصى الحدود ، وهو لا يقبل ولن يقبل بأي نوع من أنواع الوصاية عليه • أجاءت هذه الوصاية من الداخل أو من الخارج •فالوصاية ، أكانت وصاية فئة أو هيئة ، هي في نظر الانسان العربي لا تختلف أبدا عن العبودية ، وقد يكون العربي هو الانسان الوحيد في تاريخ البشرية الذي لم تعرف العبودية طريقها الى مجتمعه • وقديما قالوا :

« العربي لا يستعبد » •

وهذا القول حقيقة وواقعا ، وتاريخا اذا ما قارناه بغيره من تواريخ الامم لاسطع دليل على صدقه • والسر في أن العربي لا يستعبد ، كون الفطرة العربية خالية من كل عنصر أو شائبة تجعلها قابلة للاستعباد أو العبودية • والسبب في ذلك يعود الى الحياة القبليـة التي عاشها طيلة دورات ألفية من السنين • وهذه الحياة جعلته لا يرتبط بالارض أبدا • فطبيعة الجزيرة العربية ، وأرضها المجدبة القاحلة ، وافتقارها الى الماء من ينابيع وأنهار ، كل هذه الامور جنبـت العربي ، قبـل ان تكتمل نفسيته ، من أن يصبح فلاحا تشده اليها الارض وتقيده التربة بسلاسلها ، وهكذا كان القدر رحيما بالانسان العربي،فلم يعرف ذاك النظام الاقطاعي الجائر الذي عرفته شعوب الدول الاوروبية ، وشعوب الهند والصين • وعندما أهل محمد على العرب كانت نفسية الامة العربية قـد اكتملت وتبلورت فطرة وجوهرا ، أعرافا وعادات وتقاليد • وجاء الاسلام لا ليصارع هذه النفسية ، ولم يحاول أن يستأصل منها عناصرها الخيرة ، بل سعى جاهدا ليدعم هذه العناصر وليرسخ جذورها ، وليصوغ منـها

اطارا لنظام خير يحمل الخير والبركة الى الانسانية . والحق أن الخلفاء الراشدين وأخص منهم أبا بكر وعمر وعليا بذلوا كل جهد ليصونوا للعربي اباءه وعزة نفسه وكرامته . ولم يحاول أي منهم أن يشعر العربي بأن الخليفة ، أو الحاكم ، هو ظل الله على الارض ، بل انما كان الامر على العكس من ذلك تماما ، لقد كانوا دائما وفي كل مناسبة يشعرون العربي بأن الحاكم لا يمتاز عن أي فرد اخر ، حتى النبي نفسه صلعم ، هو رسول خلت من قبله الرسل وهو لا يملك لنا ضرا ولا شرا « قل : انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل اني لا أملك ضرا ولا رشدا .قل : اني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد دونه ملتحدا . وهاكم ما ورد في خطبة لابن الخطاب القاها عقب أن ترامت اليه أنباء انتصار العرب في معركة القادسية :

« اني والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وانما أنا عبدالله عرضت علي الامانة »

ولنقابل بين هذا القول وبين هذا المقطع من كتاب « الكاتشيسزم » (كتاب تعليم الدين المسيحي) الذي وزع عام ١٨٠٨ على المدارس والكنائس الكاثوليكية في فرنسا ، وفي عهد نابليون « الابن الشرعي » للثورة الفرنسية !؟

س : « ما هي واجبات المسيحيين نحو الامراء الذين يحكمونهم ؟ وما هي على وجه أخص واجباتنا نحو أمبراطورنا نابليون الاول ؟ ولماذا فرضت علينا كل هذه الواجبات ؟

ج : لان الله الذي يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء ، قد أغدق على أمبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة ، ونصبه سلطانا علينا ، وجعله وكيلا

لقدرته ، وصورة له على الارض ، ولهذا السبب كان تقديم الاحترام الى أمبراطورنا بمثابة تقديم الاحترام الى الله نفسه •

س : هل تربطنا هذه الواجبات نحو ورثته الشرعيين أيضا ؟

ج : نعم لا شك في ذلك ، لاننا نقرأ في الكتاب المقدس بأن الله فاطر السموات والارض يعطي السلطان بفضل مشيئته ورحمته ليس الى شخص الملك فحسب بل الى أسرته أيضا •

ولنقارن بين ما ورد أعلاه وبين هذه الآية الكريمة :

« قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله • »

ولنسمع ما روى عن لسان عبد الرحمن بن عوف عن عمر بن الخطاب قال :

« نادى عمر بن الخطاب الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد ابن الخطاب المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب » • ثم نزل •

فقال عبد الرحمن بن عوف :

ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين ؟

فقال عمر بن الخطاب :

ويحك يا بن عوف ، خلوت بنفسي فقالت لي :

« أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد فمن ذا أفضل منك ؟ »

ثم استطرد عمر بن الخطاب يقول :

« فاردت بهذه الخطبة أن اعرفها قدرها »

نعم نحن أمة لم نؤمن في كل تاريخنا بمبدأ الحق الالهي للحاكم ، ولم نؤله خليفة أو ملكا أو رئيسا ، وحتى في عصور وثنية العرب كنا نصنع أوثاننا من التمر وكنا نأكلها عندما نجوع . فتأليه الحاكم أمر مناف لفطرة العربي ، أمر يتحدى كبرياءه ويتحدى اباءه وكرامته . لقد جاء انبعاثنا الاول ليهدم الاصنام والصنمية ، وليدك الاوثان والوثنية دكا ، لذلك يتوجب علينا في انبعاثنا الجديد ، ورغبة منا في الانسجام ومبادىء نفسية أمتنا وتقاليدها أن نحارب كل محاولة تقوم بها الدولة وترمي من ورائها الى الارتفاع برئيس الدولة الى مرتبة الآلهة ، ووضعه بالقوة والارغام فوق كل انتقاد وتحريم كل مقاومة يبديها الشعب تجاهه . لقد أدرك العرب في انبعاثهم الاول أن مثل هذا العمل يؤدي الى عودة الوثنية من جديد ، ويصبح وثن الامة امبراطورا أو ملكا أو رئيس جمهورية ، لذلك ثارت القومية العربية في انتفاضتها الاولى على مبدأ الحق الالهي للحاكم ووضعت السلطة برئيسها وبكل أجهزتها بمتناول انتقاد الفرد العربي .

لقد رأت القومية العربية آنذاك أن مبدأ الحق الالهي للسلطة فاسد ومفسد لاخلاق الحاكمين والمحكومين على حد سواء ، فهو يشيع الغرور والاستعلاء في نفوس الحكام ، ويستنبت أعشاب العبودية السامة في نفوس المحكومين ويجعلهم يستسلمون للاستعباد والمظالم ، التي ينزلها بهم اولئك الذين يعتقدون المعصومية عن الخطأ بذواتهم . وبهذا تصاب احساسات الحكام بمسؤولياتهم بالبلادة والتحجر ، ويمسون في نظر أنفسهم آلهة ترى في الشعب قطيعا من الاغنام واجبه الاساسي انيقدم فروض العبادة وآيات الطاعة والولاء لاولئك المغرورين التياهين .

ان ما دفعني الى مناقشة مبدأ الحق الالهي للحاكم ، أمران ، أولهما ايماني المطلق بان اعتماد هذا المبدأ في انبعاثنا الجديد أمر شديد الخطورة

على العرب كأمة ، وثانيهما شعوري بأن هناك تيارا شاذا غريبا كل الغرابة يحاول اليوم أن يجرف جماهير الامة العربية لاعتناق هذا المبدأ. وهذا التيار يشعر به وبخطورته كل مستمع الى الاذاعات العربية ولما يصدر في البلاد العربية من صحف ومجلات ونشرات فالراديوات تنقل الى مسامعنا كل يوم اغاني واناشيد وتعليقات وقصائد تمجد الحاكم وتتغنى بفضائله وتحاول أن تقنعنا ، نحن أحفاد عمر بن الخطاب ، بأن من يحكمنا بلغ أو تجاوز مرتبة الالهة ، وأن علينا أن نسبح بآياته ونسجد لمعجزاته، نحن ابناء يعرب الذين لم تعرف ولا تعرف ولن تعرف جباهنا السجود الا لله عز وجل . انني ألمس أن هناك بعضامن مرائين وأفاكين ودجالين ومنافقين يتكتلون الآن حول حكامنا مستغلين ضعفهم البشري، دافعين بهم الى محاربة الاباء في النفس العربية ، ومحاولة اذلال هذه النفس واستعبادها ،واعتبار الامة قطيعا من السائمة ، ودهماء عاجزة عن التمييز بين الخير والشر . أن هذه الاوبئة تدفع بالحاكم كي يخلق انسانا طالحا ليوجد عبدا صالحا ، وهنا يتحول الحاكم ليصبح قيصرا او كسرى او فرعونا . ان الحاكم القوي هو ذاك الذي تسنده أمة قوية ، فليس الدلو الا بالرشا ، ولا يمكن للامة ان تكون قوية الا اذا كانت أمة أبية ، أمة لا تذعن للطغاة ولا تخضع للمظالم أو تستسلم للطغيان . والحاكم اذا ما شل الاباء في نفسية الامة، فعندئذ سينهار وتنهار أمته تحت أخف الضربات وأقل الصدمات ، ولن تكون له ولها أية قيمة حضارية . كما وانه باستئصاله للاباء في النفس البشرية، انما يستأصل كل حافز للثورة، فالاباء ، والاباء وحده هو الذي يشعل نيران الثورات ويؤجج ضرامها . ولولا الاباء لما كانت هناك ثورات ولما كان ثوار ، وما الثورة الا مظهر الممارسة الايجابية للاباء . ونحن اذا ما اردنا أن نتابع طريقنا الى الوحدة والحرية والعدل الاجتماعي ، وان نبلغ هذه الاهداف ، وأن نحقق الغايات المرجوة من ورائها ، فعلينا أن نعتبر الاباء القوة الدافعة لنا

على هذه الطريق ونحو تلك الغايات ، فالاباء هو الذي يجعلنا ويجعل كل فرد عربي يرفض الواقع المؤلم المرير الذي تعيشـه الامة العربية ، هذا الواقع الماثل في التجزئة الحالية والمظالم الاجتماعية ٠

انني المس ان هناك اليوم قوة شيطانية ، تحاول أن تستأصل الاباء من النفس العربية ، وهذه القوة تتمثـل في تلك الاجهـزة المعروفة باسم المخابرات والمباحث ٠ انني أعرف وأقر السلطة بأن توجد اجهـزة لحمايتها ، ولكن يجب الا يسمح القادة ، وفي كل الاحوال ، ان تصبـح هذه الاجهزة اداة لاذلال الفرد العربي وهدر كرامته ٠ وعلى القـادة ان يعلموا بأن هذه الاجهزة كانت من الاسباب الرئيسيـة التـي أدت الى وقوع الانفصال في ٢٨ ايلول عام ١٩٦١ ٠ فما اتاه افرادها من افعـال وما اقترفوه من جرائم وما مثلوه من فواجع ومآسي في سوريا ، ومـا نشروه من رعب وهلع ، هيأ المناخ الملائم للانفصال بين سوريا ومصر ٠

ان اشد الناس خطرا على السلطة هم اولئك الذين يقيمون مـن انفسهم حراسا عليها ، فمثل هؤلاء ان لم يسلحوا المنطق بوجـدان حي وبضمير يتسامى في مناقشاته ويتسامى حتى يبلغ الحق ويـذوب فيـه فعندئذ ستعمي الانفعالية ، انفعالية العنف ابصارهم ، وستفقدهم ملكة التمييز بين الصالح والطالح بين الخطأ والصواب ، بين العدو والصديق٠ فالانتفاضات لا تنتكس أو تهزم نتيجة لاستفادة أعدائها لقوتهم ، بـل انما تنتكس وتهزم نتيجة لانفضاص اصدقائها ومناصريها من حولهـا ٠ وانفضاض هؤلاء لا يتم الا اذا سيطرت الانفعاليـة وعطلت المنطـق والوجدان والضمير ٠ فالانفصال الذي وقع في ٢٨ ايلول لم يقم بـه حيدر الكزبري او موفق عصاصة او غيرهما ، بل انما قام به عبدالحميد السراج وعبد الوهاب الخطيب وعبده حكيم وغيرهم من زبانية المباحث الذين كانت كرامة الناس وحتى أعراضهم مرهونة بكلمة تنطق بها ألسنة

هؤلاء المجرمين • لقد استنفز هؤلاء اباء الناس بأبشع الوسائل وأحط الاساليب وأشدها قذارة ، وشهدت اقبية المباحث من الجرائم ما لم يعرفه الشعب العربي في سوريا العربية في أحلك عهود الاستعمار وأشدها اظلاما حتى صدق فيهم قول الشاعر :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

لقد تناسى هؤلاء ان النظام لا يحمي بواسطة تأليب القلوب عليه ، وان الاستقلال يبني مدماكا فوق مدماك وحجرا فوق حجر ، وان الدولة هي ظاهرة من ظاهرات الأمة ، وليست الأمة ظاهرة من ظاهرات الدولة ، فالدولة قد تنحل أو تندثر وتزول لكن الأمة خالدة خلود الانسان • لقد تناسى هؤلاء ان الدولة لا تبني أمة ، بل ان الأمة هي التي تبني الدولة ، وان للامة حق الرفض والقبول ، وأن الاباء والقناعة هما طريقها الى ممارسة هذا الحق ، لا القوة من ارهاب او ارغام ، فالقوة قد تخضع لكنها لا تقنع ، والاذلال يهيء للثورة كل ظروفها • وعلى القادة أن يعلموا بأن الأمة التقدمية هي الأمة الابية ، لذلك عليهم أن يتحينوا كل فرصة وسبب للمحافظة على حيوية اباء الفرد ونشاطه • وليس هناك في الأمة العربية اليوم فئة راشدة وفئات غير راشدة ، فالأمة العربية بكل فئاتها راشدة في اعماق ضميرها ، وهي امة تعي وجودها وتريد أن تمارس هذا الوجود ممارسة حرة خيرة ، ممارسة تنبع من منطقها وتنسجم ووجدانها ، لا ممارسة تسوقنا اليها سياط المباحث والمخابرات• لذلك فنحن معشر العرب نرفض بكل اباء وشمم أن نرى في أية فئة أو حزب أو زعيم ، أنها أو أنهما فوق النقد أو الانتقاد ، بل انما نرى ان النقد والانتقاد هما أمران ضروريان لاكتمال شخصية الأمة ولخلو نفسيتها من الشوائب والعقد ، وايماننا هذا يدفع بنا الى الايمان ايضا

بأن الأمة الحرة هي التي تصنع زعماءها ، وان الزعماء مهما اوتوا من مواهب فذة لا يستطيعون أن يصنعوا أمة حية ذات شخصية وكيان حضاريين . لذلك فان أي سلطة تشذ عن هذا المبدأ هي سلطة آثمة منحرفة وغير جديرة بالطاعة والاحترام ، وواجب الأمة أن تثور عليها وأن تجتث جذورها وأصولها وفروعها ، فالاصنام قد حطمها اباؤنا والوثنية دسنا عليها بنعالنا منذ قرون طوال .

والحق أن من عرفنا من حكام في انبعاثنا الاول ، قد حاول معظمهم أن يصون للفرد العربي اباءه وأن يحافظ له على أنفته وعزة نفسه فلم يكن اولئك يسمحون حتى بتقبيل اليد ، هذه العادة الغريبة عن العرب والمذلة للنفس والمهينة للكرامة . وقد حدث أن تقدم أحد الناس من أبي جعفر المنصور وأراد أن يقبل يده فانتهره ابو جعفر قائلا :

«ابعد عني يا هذا ! فان كنت عربيا فان تقبيل اليد مذلة لك ونحن لا نقبل أن نذل العرب ، وان كنت أعجميا فانها خديعة منك لنا ونحن لا نقبل أن نخدع .»

الى مثل هذه الذروة الرفيعة تسامت الحساسية المرهفة بكرامة الفرد العربي في نفوس حكامنا الأوائل ، هؤلاء الحكام الذين يتوجب على القادة من ابناء جيلنا أن يتخذوهم قدوة لهم ومثلا ، وذلك حين تنظيم علاقاتهم بالفرد والامة . وعليهم أن يصونوا ذواتهم من تلك الطفيليات التي اعتادت أن تلعق الغبار بألسنتها عن أحذية الحكام وارباب السلطة والسلطان ، فهذه الطفيليات ، كما أشعر ، قد أصبحت اليوم تشكل طبقة في مجتمعنا ، هي طبقة المنتفعين بالانقلابات العسكرية، وهي تعيش عالة على أجهزة المباحث والمخابرات . ونحن اذا ما تأملنا في نماذج منها نرى أن هذه النماذج ، وخاصة في سوريا ، قد رافقت جميع عهود الانقلابات العسكرية ابتداء بحسني الزعيم وانتهاء بعهدي

السراج ما قبل الوحدة وما بعدها . ومن الغريب ، لا بل ، من المدهش أن نوعية حماسة هذه الطفيليات لم تتبدل ، ولم تخف طاقات اندفاعها في تأييد كل عهد من تلك العهود ، رغم زوال اربابها ومغادرتهم البلاد أما الى السجن أو المنفى أو القبر . اذ سرعان ما كانت هذه الطفيليات تستعيد سلطاتها على سيد العهد الجديد عقب كل انقلاب أو حركة عسكرية ، وكانت تقيم على ولائها لسيدها هذا حتى يطوح به انقلاب جديد ، فتسارع الى التمسح بأعتاب من اشرق بدره مبدية حماستها لتنفيذ كل رغبة ، او همسة تتمتم بها شفتا رب السلطة الجديد والهها .

ولما كانت هذه الطفيليات ذات نفسيات شريرة لئيمة ضرب عليها الذل وماتت فيها النخوة واجتث منها الاباء والشرف ، لذلك كان الطغاة يجدون فيها دائما وأبداً خير اداة لاذلال المواطن والأمة ، وأبرع منفذ لكل جريمة لا يقترفها الا كل بائس ولد دون ما ضمير او وجدان أو أخلاق ... ولا أدري متى سيأتي ذاك العهد الذي سيحاسب هذه الطفيليات على ما اقترفته من آثام وجرائم ؟! ... فكم من طفل روع في دجنة الليل ، وكم من دمع سكب وهو يشاهد ، راجفا مرتعداً ، أباه يصفع ويشتم أمام عينيه ، ويرى أمه تبكي وتنتحب وتستجير ،فتقابل استجارتها بنظرات لئيمة وقهقهات فاجرة وهمهمات مسعورة ووعيد حاقد خسيس شرير ... وكم من شيخ ورجل وشاب وفتى ، سيقوا الى الأقبية ليمارس اولئك الأبالسة آخر ما وصلت اليه خبرتهم الآثمة من فنون في اهدار الكرامة البشرية وتعذيب الانسان .

هذه حقائق ووقائع لم تعد خافية على أي انسان ، وهي والحق أمور مخزية لا يجوز أن يعمد اليها ، ولا يجوز أن يبررها أي مبدأ أو عقيدة أو شعار . فالنظام الذي لا يستطيع أن يجد فيغير اشاعة الارهاب ضمانا لوجوده أو وسيلة لبقائه ، انما هو نظام لا يمكن أن يكتب له

وجود أو بقاء ، لان النظام لا يفرض على النفس فرضا ، لان النظام الصالح تمتصه النفسية البشرية امتصاصا وتتمثله ، فيصبح جزءا منها ، وهي لذلك تهب للدفاع عنه اذا ما نزلت به نائبة ، أو أحدق به خطر ، لانها تشعر بأن كيانها ووجودها مهددان ، لأن ذاك النظام هو جزء أساسي من ذاتيتها ، جزء تصونه غريزة حب البقاء وتذود عنه . زد على ذلك أن البوليس هو آخر انسان يستطيع أن يبني دولة . فالدولة لا يبنيها المسدس ، ولا يصونها السوط ، ولا ترص بنيانها الاغلال . أما اذا أصر البوليس أن يكون هو مخطط الدولة وبانيها وحاميها معا فعندئذ على تلك الدولة وشعبها السلام . واذا ما عمد قادة الدولة الى مناقشة علاقاتهم بالمواطن ، بالأمة وبالمجتمع بعقلية بوليسية ، فعندئذ سيصبح الشك والحذر هما الناظمان الرئيسيان للدولة . وأنا لا أعرف أبدا دولة اعتمدت الشك والحذر دستورا لها وامتد بها الأجل طويلا . فالشك والحذر هما السوس الذي ينخر كيان الدولة ، ويجعلانها متهاوية متهافتة بعيدة كل البعد عن التماسك والرسوخ والثبات . وكل دولة تفقد ثقتها بالمواطن أو الأمة انما تفقد ثقتها بنفسها ، وبذلك تفقد كل مبررات وجودها .

فالدولة القومية هي تلك التي تقوم على أساس من الثقة المتبادلة بين الأمة والسلطة ، لا على أساس الشك المتبادل بين الامة والمتسلط . وكلنا يعرف أن الارهاب ، أو اشاعة الرعب ، أو الخوف ، لم يكن أبداً الطريق الى اكتساب ثقة الفرد أو ثقة الأمة ، بل انما كان ولا يزال وسيبقى العامل الأساسي في هدم العقائد والنظم والمباديء حتى الصالحة منها فكيف بالطالحة ؟!

زد على ذلك أن لهذه الطفيليات أثراً جد خطر على الطاغية والأمة والمجتمع سواء بسواء . وهذا الاثر يتمثل في نشاطها الشيطاني المثابر

ليعيش النظام القائم والأمة في حالـة مـن قلق وتوتر مستمرين ، وفي اشاعة الشك بين أبناء الامة الواحدة • لان هذه الطفيليات السامـة لا يمكن لها أن تعيش وأن تزدهر أحوالهـا الا في مثل هـذه الاجواء المسمومة• وهكذا ترى هذه الطفيليات تلفق التقارير والاخبار وتخترع المؤآمرات والاخطار المحدقة بالنظام القائم ، بغية اقناع الطاغية بـأن وجودها ضرورة لازمة لبقائه وأساس لا يمكن أن يستغني عنـه أو أن يحد من سلطانه وتسلطه ، جهاز يرتكز اليه النظام بكلياته وجزئياته • ولما كان كل طاغية يعيش أبدا ودائما على خلاف وضميره ، ويعـاني بصورة مستمرة أزمة وجدانية ناشئة عن قناعة نابعة من عقـله الباطن بلا مشروعية سلطته وباجرامه بحق أمته ، وبان كل جريمة لا بد لها مـن عقاب ، لذلك فهو يرى في كل فرد من أفراد الامة عدوا يتربص بـه الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليه وعلى نظامـه • وهكذا تلتقي تلك الطفيليات بالطاغية ، وتمسي منه بمثابة العـين والأذن والعقـل ، فيستسلم لها ، ويرى في أبالستها حلفاءه وأنصاره المخلصين ، فيطلـق يدهم ، وينساق ونزواتهم الشريرة ، فينفعل بانفعالهم ، ويرتاح الـى جرائمهم ، اذ يجد فيها اجراءات وقائية لحماية نفسه ونظامه • فيغدق عليهم الاموال والمنح ، ويزودهم بالسلطات العادية منها والاستثنائيـة ويسمح لهم باستباحة الحرمات وانتهـاك الكرامات وأخـذ الناس بالشبهات •

وهكذا تنعكس الآية ، فيصبح النظام المفترض فيه أن يحمي الامة ويصون كرامتها يتلمس الحماية لنفسه من الأمـة فيجدها في هـذه الطفيليات المجرمة الشريرة •

وهناك أثر آخر بالغ الخطورة لهذه الطفيليات ، وهذا الأثر يتمثـل في اعتمادها كل وسيلة لافساد أخلاق الامة • فتحاول عن طريق الرشوة

أو الارهاب أن تجعل من الأخ جاسوسا على أخيه ، ومن الولد مخبراً على والده ، ومن الصديق واشيا بصديقه . وتسعى جاهدة لنسف كل نقطة يمكن أن يلتقي عندها فردان أو أكثر من أفراد الأمة . واذا ما صادفت انسانا أبيا شهما ، يرفض الانسياق معها أو الاستجابة الى ما تطلبه منه ، فعندئذ تشيع وتذيع بين أصدقاء مثل هذا الانسان عن أنه عميل لها ومخبر لديها ، وذلك لأنها تؤمن ايمانا جازما بأن الوسيلة الوحيدة لبقاء الطاغية وبقائها انما تتمثل في ابقاء التشتت الوجداني مسيطرا على الأمة ، وابقاء الشك ناظما اساسيا لعلاقات كل انسان بكل انسان . وهكذا يجمد الشك الوجل الهياب لا علاقة الانسان بالنظام القائم فقط ، وانما يجمد ايضا علاقته بمواطنه وبيئته وبالتالي بأمته ، ويسيطر على المجتمع جو من الوجوم والكآبة والذهول ، فترى الفرد في مثل ذاك المجتمع ساهما واجما ذاهلا حتى الخمول ، اذ أن سموم الارهاب والشك التي نفثتها تلك الثعابين في جسده جعلته عاطلا مشلولا ، وأفقدته كل طاقات النشاط والحيوية . وهكذا تتحول السلطة على أيدي الطغاة من قوة حافزة للعزائم والهمم الى قوة مثبطة لها خانقة لطاقاتها ، قوة معطلة لأي تفاعل بين الفرد والأمة والسلطة ، ولاي تناغم او انسجام بين الامة والنظام القائم وهكذا تخمد الطاقة الخلاقة وتخبو نارها ، ويموت ضرامها ، فالطغاة قد ردموا منبعها الوحيد ، ألا وه

الاباء . فأنت كي تحسن حالتك الراهنة عليك أولا أن ترفضها ، تأباها، ثم يعقب رفضك، أي اباءك، فعلا انطلاق فأنت لا تنطلق ثم تأبى، لكنك تأبى ثم تنطلق أما أن ينطلق المرء رغبة منه فقط في الانطلاق ، دون أن يعرف ما الذي ينطلق نحوه ، ودون أن يعرف ما الذي
ويستوجبه الانطلاق فان هذا العمل لا يعتبر انطلاقا
عبثية وضياعا .

ان في الانطلاق قوة وعنفا ، و

الانطلاق عمل انشائي ايجابي ، اما الطغيان فهو عمل هدام سلبي ، لذلك فان الطغيان هو الصورة السلبية للانطلاق ، ولهذا فاذا لم يتسلم دفة السلطة ربابنة ثاقبو البصيرة عميقو الادراك ، قادرون على التمييز بين أدق الأمور ، وذوو أبصار ميكروسكوبية ، فعندئذ سيتحول حتما هؤلاء الربانية الى طغاة ، اذ يعتقدون أن الصورة السلبية ، هي الصورة الحقيقية للتقدم ، بينما أن تلك الصورة هي نفي للصورة الايجابية ورفض لها • واذا ما انزلق ربابنة التقدم خطوة واحدة على طريق الطغيان فانهم عندئذ لن يستطيعوا أن يتراجعوا عنها أبدا ، فهذه الطريق منزلق خطر لم تدس عليه قدمان الا وكانت نهاية صاحبهما كارثة محتومة • وانزلاقهم على هذه الطريق يبدأ أول ما يبدأ بمحاربتهم للاباء في النفس البشرية وبمحاولتهم اجتثاث جذوره •

٣ ـ الجرأة الادبية والديمقراطية :

ان امة تولد في نفوس أبنائها النخوة والاباء ، لا شك تستولد نفوسهم أيضا الجرأة الأدبية والديمقراطية ، فالجرأة الادبية هي من الاباء لسانه ، اما الديمقراطية فهي من الاباءايمانه بالمساواة المطلقة بين الناس حقوقا وواجبات • وان أمة يذكرها المؤذن خمس مرات كل يوم بـأن :

« الله أكبر ! الله أكبر ! »

لهي والحق أمة من المستحيل أن يستعبدها حاكم أو يغل ضميرها ...ام ، أو يخرس لسانها عسف أو ارهاب •

...سولها « أبا ذر » ويقول :

... ثم اعلم انك لست بأفضل من أحمر

لهي ، والحق ، أمة لا يمكن أن تسلس قيادها لحاكم او نظام الا اذا آمنت بفاضل منجزاته وأعماله .

وان أمة ترد في قرآنها هذه الآية :

« فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ... »

وترد هذه الآية ايضا :

« ألم نخلقكم من ماء مهين ... »

لهي ، والحق ، أمة لا يمكن لها أن تؤمن بـدم أزرق وآخر أحمر ، ولا يمكن لها ان تسجد للحاكم أو تعبد السلطان كما فعل الرومان وغيرهم من الأمم الشرقية والغربية .

وان أمة يقف الخليفة ، وأي خليفة ، عمر بن الخطاب ليقول :

« الحمد لله الذي جعل في رعيتي من اذا تعوجت قومني » .

لهي والحق ، أمة لا تؤمن بمعصومية الحاكم عن الخطأ ، ولا تعتبر الحاكم وصيا عليها ، بل انما تعتبر نفسها الوصية على الحكم والحاكم. وان أمة يوصي ابو بكر خليفته بن الخطاب فيقول :

« .... واني أول ما أحذرك يا عمر نفسك ، ان لكل نفس شهوة فاذا أعطيتها تمادت في غيها .... وأعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك .. »

لهي أمة مرهفة الحساسية بالحق ، فصيحة اللسان بنطقه ، قوية الساعد في تحقيقه ، سهلة الانقياد اليه ، اذا انحرف الحاكم قومته ، وأن اسدر في غيه خلعته . فهي أمة لا يمكن أن تؤمن بدولة «هيجل» هذه الدولة التي يريدها ذاك الفيلسوف أن تكون فوق الأمة ، وأن لا تكون حسب قوله الخادم الذي يحق للديمقراطية أن تطرده متى شاءت، اذ أنها أمة وصفها الانديت نهرو أصدق وصف حينما قال :

« ان الأمة العربيـة تملك غريزة اجتماعية عاليـة تقدسها أعظم تقديس وذلك لاعتقادها بأن ما من بناء اجتماعي يتركز الا على أساس الارادة العامة ، لا على الرغبة المستبدة ، ولا عـلى التنظيم المتشابك الذي لا يستقر الا بعد أن تعيد الاجيال نظرها فيه مرارا وتكرارا . »

وان امة يقف فيها ابو بكر عقب مبايعته بالخلافة ويقول :

« ايها الناس ، فاني قد توليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فأعينوني ، وان أسأت فقومونـي ...... أطيعونـي ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ... »

لهي والحق امة مطالبة بان تبقي الحاكم والحكم بجميع اجهزتـه خاضعا لرقابتها المباشرة والمستمرة ، وهي لذلك لا ترى في الدولة كما يرى «هيجل» في أن على الدولة ان تقدم حسابا عن اعمالها لنفسها فقط، وانما ترى ان على الدولة ان تقدم مثل هـذا الحسـاب للامـة أولا وأخيرا . لذلك فان الديمقراطية ليست بشيء جديد على النفسيـة العربية ، بل انما هي عنصر أساسي من عناصرها وجوهر خـلاق في فطرتهـا .

وهناك ظاهرة عميقة المغزى والدلالة ، وهي أن الامة العربية ، قد تكون الامة الوحيدة بين الامم التـي لم تعرف طيلة تاريخهـا ألقـاب التعظيم ، اذ ان هذه الالقاب بالرغم من دلالتها على امتيازات طبقية من اجتماعية وسياسية ، فهي في الوقت ذاته تشكل حواجز سيكولوجية يقف عندها المرء اما ذليلا خانعا واما تياها مغرورا ، وكلا الموقفين شديد الخطر على الأخلاق الانسانية ومناف كليا للديموقراطية المتأصلـة في النفس العربيـة .

وهناك ظاهرة اخرى ذات اهمية بالغة ، وهي أن الزعامة ، او القيادة، في الامة العربية تستند الى مبدأ التنافس في الخلال الحميدة . ونحن

اذا ما تأملنا مثلا في المجتمع العشائري ، نجد هذا المجتمع يحترم الفرد الذي يبز أقرانه شجاعة ونخوة ، كرما وتسامحا وحسن وفادة ، فالشيخ يجب ان يكون عقيد قومه في الغزوات ، ويتوجب ان يكون دائما السباق الى اغاثة الملهوف والمظلوم والمستجير والمحتاج ، ويستلزمه منصبه ان يكون اندى قومه يدا ، واكرمهم خلقا ، وأعفهم نفسا وأسرعهم الى التسامح والغفران ، وذلك لان السلطة في نظر الامة العربية انما تستند الى قوة الاخلاق واصالتها . فالحاكم العربي يجب ان يكون قدوة ومثلا يحتذى ، ويجب ان يكون كتلة حية من الفضائل ونبعا دفاقا من العطاء ، العطاء الذي لا يترقب فائدة ذاتية او منفعة شخصية ، لانه عطاء يسمو فوق المادية بشكليها النفعي والانتهازي . لذلك فليس للحاكم ، أي امتيازات يخوله اياها كونه حاكما ، بل انما عليه واجبات تجاه الامة ومسؤوليات امامها . فالحكم كما تفهمه الامة العربية هو تعبد وعبادة ، تصوف وصوفية ، انه عبادة الله عن طريق توظيف كل ذرة من طاقات الحاكم في خدمة الامة ، وانه صوفية مترفعة فوق الدنايا واللذائذ الحسية . صوفية متحررة من جميع قيود « الأنا » وطليقة من كل اغلالها ، صوفية يسوقها تساميها فلا تستقطب الا الله والأمة والانسانية ، ولا تجعل ، لا بل لا تسمح أبداً لنفسها بأن تستقطب الحكم وبهارج سلطانه . ومثل هذه الصوفية تكون بالغة الموضوعية في كل اجراء او قرار تتخذه ، وجميع الاجراءات والقرارات التي تتخذها لا تناقشها أبداً على أساس ما قد ينجم عنها من فوائد للحاكم او الفئة الحاكمة ، ولا على أساس مصالح الحكم أو الفئة الحاكمة من البقاء والاستمرار في الحكم ، بل انما على أساس ما قد تحققه مثل تلك الاجراءات وهذه القرارات من فوائد روحية ومنافع مادية للأمة والانسانية . ولكي يستطيع أن يبلغ مثل هذا النظام الحاكم تلك الدرجة من السمو والتحليق في ميدان الموضوعية ، عليه

في كل حين ولحظة أن يستلهم الشعب في كل عمل يأتيه . ومثل هذا الاستلهام لا يمكن أن يتم أو يتحقق اذا اعتقد الحاكم أو آمنت الفئة الحاكمة بأنها هي عقل الأمة ووجدانها ، وان كل فئة أخرى ، غيره أو غيرها ، انما هي قطيع من السائمة ، ومجموعة من دهماء وجمهور من غوغاء . وهنا الخطر كل الخطر ، الخطر على الحاكم والفئة الحاكمة ، والخطر على الامة من ان تبدد طاقاتها في ضراع فئة منحرفة من ابنائها . وهو خطر على الحاكم أو الفئة الحاكمة لأن مثل ذاك الاعتقاد انما يدل دلالة واضحة على انحراف الحكم حاكما وفئة ، عن القانون الحديدي لكل نهضة وتطور ، هذا القانون الذي يستند روحا ونصا على الايمان العميق بعقلانية الانسان وبحريته وبسعيه الدؤوب الى الخير والكمال . ونحن ، وخاصة في هذا العصر الذي نرى فيه أمتنا تعاني آلام مخاض ولادة جديدة ، وتعانيها في ظروف طغت فيها مدنية المادية الاوروبية ، يتوجب علينا أن نمارس ايماننا بعقلانية الفرد العربي وبحسه السليم ، وبنظره الثاقب . ونحن لا نستطيع أن نمارس هذا الايمان الا اذا اعتمدنا النظام الديمقراطي دستوراً لنا وموجها في دقيق أمورنا وفي جليلها . والنظام الديمقراطي لا يمكن له ان يصبح نظاما راسخا في النفوس الا اذا اعتمدنا على الجرأة الأدبية التي فطرت عليها الأمة العربية ، الجرأة في أن نقول للحاكم ، أو الفئة الحاكمة ما نعتقده باعمالها ، أمدحا كان أم قدحا ، أثناء كان أم نقداً . وذلك لأن النظام الحاكم الواثق من نفسه والنابت من تربة عربية أصيلة يكون في حوار دائم والأمة . ومن المعلوم أنه يفترض لكي يكون الحوار حواراً حقيقيا، يجب أن يدور بين طرفين أو أكثر ، أما اذا أصر طرف واحد على أن يستأثر بالحديث ، فعندئذ لن يكون مثل هذا الحديث حواراً بل انما يكون مونولوجا Monologue ومن الطريف أن مونولوج الانكليزية كلمة ترتبط بكلمة Monomania وهذه الكلمة تعني

الجنون بأمر واحد .

ولكي تتوفر أسباب الحوار البناء في المجتمع يجب أن تتوفر الحرية الكاملة للمتحاورين ، وذلك لأن الحرية ، حرية القول ، شرط أساسي، أو بالاحرى ، الشرط الأساسي الوحيد للخروج بالحوار الى نتائج ايجابية يتفق عليها الاطراف المتحاورون . وأنا لا أستطيع أن أحاورك وأخرج وأياك الى مثل تلك النتائج الآنفة الوصف ، اذا لم توفر لي فرص الحوار واسبابه أولا ، واذا لم تشع في نفسي الاطمئنان بان محاورتي لك لن تنتهي بي الى السجن او المعتقل او المشنقة. ومن شروط الحوار ايضا أن تفترض في براءة الذمة التي افترضتها فيك عندما قبلت بك حاكما وقبلت أن أدخل معك في حوار ، فأنا مواطن لك ، وكونك حاكما لا يجعلك فوق كونك مواطنا ، بل انما يفترض فيك أن تكون اكثر وعيا لصفتي كمواطن ، اذ أنك نصبت نفسك لخدمتي ، ومن حقي عليك أن تعرف شعوري وتتلمس آراء مخدومك وأفكاره . زد على ذلك أن صفتك كحاكم هي صفة آنية عابرة ، أما صفتي كمواطن فهي صفة أزلية أبدية ، فأنا من تربة هذا الوطن قد نبت والى تربة وطني أعود ، لذلك فأنت تستطيع أن تقتل جسدي ولكنك لا تستطيع أبدا أن تلغي مواطنيتي ، لأنك بذلك تلغي جزءاً عضويا من الوطن ، وهذا أمر مستحيل عليك .

اذن فليس أمامنا من طريق الا الحرية ، وليس لنا من مرشد على هذا الطريق الا الديمقراطية ، وأول شروط الحرية « أن يكون جميع الناس أحرارا ، وأنت وان كنت ظالما وضغطت على الآخرين فأنت لست حرا للسبب عينه لانك تخلق حولك عالما من الظلم تكون انت حبيسه.»

وقديما قال سقراط :

« ليس على الارض انسان له الحق في أن يملي على الآخر ما يجب

أن يؤمن به ، أو يحرمه حق التفكير كما يهوى وما دام الانسان على وفاق مع ضميره فانه يستطيع أن يستغني عن المال وعن العائلة وعن البيت . ولكن بما أنه لا يمكن لأي انسان أن يصل الى نتائج صحيحة بدون أن يفحص المسائل ما لها وما عليها فحصا تاما ، فانه يجب أن يترك الناس أحرارا لهم الحرية التامة في مناقشة جميع المسائل بدون أن تتدخل الحكومة في مناقشتهم . »

وعلينا نحن معشر العرب في هذا العصر المادي أن نؤمن بأن الحرية الحقيقية لا تولد داخل معدة الانسان ، فكثيرا ما كانت المعدة بؤرة للعبودية ومركزا لاستعباد ضمير الانسان ووجدانه ، بل انما تولد الحرية حينما يبدأ الانسان بالتحرر من النوازع الحيوانية داخل ذاته ، وعندما يتم تحرره من هذه النوازع عندئذ يعي مسئولياته كانسان حر يعيش في مجتمع حر تسنده قومية حرة ترتكز الى انسانية حرة .

وهذا امر ليس بعسير علينا تحقيقه ، وخاصة في أمة كالأمة العربية. اذ أن جميع عناصره متوافرة في أمتنا . فلقد عرف عن العربي ــ البدوي ــ أنه أشد الناس تعلقا بالحرية واشدهم نفورا من العبودية والطغيان ، وعرف عنه أيضا أنه أعرق البشر ديمقراطية وأكثرهم جرأة في الحق على السلطة والحاكم . والعربي قد يكون الانسان الوحيد بين البشر الذي يخاطب حاكمه مخاطبة الند للند ، ولا يرى فيه أبدا تلك القوة السحرية الغامضة التي تتحكم بالارزاق والاعناق وتملأ القلوب مهابة ورهبة ، بل انما يرى فيه انسانا لا يختلف عنه في شيء ، لذلك تراه يخاطب الحاكم أو رئيس العشيرة باسمه مجردا من كل لقب ، واذا ما أراد أن يستثير نخوته خاطبه يا أبا فلان ...

وذلك لأن العربي يؤمن بتلك الآية القائلة :

ورزقكم في السماء وما توعدون ...

ولقد جعلنا لكل أجل كتابا •
ويؤمن ايضا بالمثل القائل :
« كل أرض تنبت قمحا وشعيرا ، والانسان لا يموت قبل يومه •»

والحق أن هذه الجبرية المطلقة التي نشأت أصلا عن جبرية سماء الجزيرة العربية ، هذه السماء التي لم تلتزم بأمطارها وسيولها حتى بقوانين موسم شتائها ، كما التزمتها في البلدان الاوروبية وغيرها من الامصار ، بل انما كانت في كثير من المواسم شاذة حتى عن أعرافها ، أقول أن جبرية السماء هذه قد رسخت في نفسية الانسان العربي ايمانه بأن الحاكم هو فرد عادي مثله ، وليس بقوة سحرية غامضة ، وخنقت في المهد كل اسطورة أو خرافة يراد وراء اذاعتها بين الناس تأليه الحاكم، وفرضت على النفسية العربية حالة من قلق دائم وحنين عميق الى المطلق، الى السماء التي تملك حل مشكلة قلقه هذه المشكلة التي لم يجد العربي حلا لها في صحارى بلاده الشاسعة وفيافيها الواسعة ، ولا لدى رؤسائها الذين يبدون أمامها عاجزين مثله تماما اذا ما أجدبت الارض وأمحلت بواديها • وقد جاء الاسلام ليؤكد لها هذه الجبرية فنزلت الآية التالية :

« قل : انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا • قل اني لا أملك ضرا ولا رشدا قل : لن يجيرني من الله أحد،ولن أجد من دونه ملتحدا•»

واذا ما اعتمدت الأمة الجبرية فلسفة لها ونظرةالى الحياة، فعندئذ يتبدى لها كل شيء يقع داخل نطاق حسها بعيدا كل البعد عن القداسة والتقديس ، وجديرا بالمناقشة ، أكان هذا الشيء نظاما أو سلطة او سلطانا ، ولهذا عمدت الأديان التي ولدت في الشرق الى التحدث عن المعجزات المنافية لقوانين العقل والحس • ومن الغريب أن القرآن ، وهو قرآن عربي فطرة وجوهرا ، لم ينسب أية معجزة الى النبي صلعم،

بينما نراه يقر المعجزات التي نسبت الى موسى والسيد المسيح ، وهذا أمر عميق المغزى بالنسبة الى كل عارف بعناصر النفسية العربية ، واسباب قلقها وعوامل حنينها الى المطلق ، هذا الحنين الذي جعل الأمة العربية في انبعاثها الاول تحقق من الفتوحات والاعمال المجيدة خلال ثلاثين عاما فقط ما احتاجت اليه غيرها من الأمم قرونا طويلة من الاعوام والسنين . وهذا مما دفع اوزفالد شنبغلر الى القول :

« ان الأمة العربية تحس بشيخوختها قبل أن تبلغ شبابها ولهذا تراها أبدا في عجلة من أمرها . »

ولقد صدق شبنغلر فيما قال ، فسبب احساس الأمة العربية آنذاك بهذا الامر انما يعود أولا وأخيراً الى رغبتها في الوصول الى المطلق الذي لا يحده مكان ولا يقيده زمان .

ولكن حينما بدأ قادة الأمة العربية بالانحراف بها من التسامي الى المطلق نحو أمور العيش دب في العرب فتور الشيخوخة ووهنها ، وأخذت روحهم الجياشة تتراجع أمام اللذائذ الحسية وتخلي الساح للمطالب الدنيوية والرغبات الارضية ، فانهارت دولة الخلفاء الراشدين وتربع الأمويون على المسرح لفترة من الزمن ضربت خلالها مادية العيش جذورها عميقا عميقا في التربة وأثمرت شجرتها وأينعت ثمارها فاذا بالعباسيين يكرسون مبدأ الأمويين في مفهوم الحكم ، هذا المفهوم المناقض كليا لمفهوم الروح العربية التي أضرم جذوتها النبي والخلفاء الراشدون من بعده ، واذا بالمنصور العباسي يعبر عن المفهوم الجديد أوضح تعبير في قوله :

« أيها الناس ، انما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه مشيئته وارادته ، وأعطيه

باذنه ، فقد جعلني الله قفلا ، ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم ارزاقكم ، وان شاء أن يقفلني عليها أقفلني • »

واذا بالشعوبية تمتطي متن الشهوات الفاجرة الداعرة ، فتعبر على أجساد فتياتها اللدنة الطرية وفتيانها المخانيث الى قصور ملوك العباسيين ومجالس أنسهم ، وتستولي على السلطة وتستأثر بالسلطان وتندفع في تيار من انتقام حاقد لئيم لتهدم صروح أمة حررتها من جور الأكاسرة ومظالم القياصرة وهدتها الى مجالات الحق والحرية والكرامة الانسانية •

لقد تمكن الشعوبيون من هدم الأمة العربية وخنق رسالتها متوسلين الى ذلك بأمرين الاول منهما •

هدم الطمأنينة الروحية التي أشاعها الاسلام في النفس العربية، وبالتالي هدم الاسلام ذاته •

أما الثاني ، وهو بالبداهة ناشيء عن الاول ، فيتمثل في اثارة الغريزة واخماد الروح في الانسان العربي ، وتحويل أنظاره عن المثل العليا ، الى أمور الدنيا وشؤونها •

وقد أظهر الشعوبيون في سعيهم الى تحقيق هذين الهدفين كل براعة ومهارة فلما كاد الخلاف بين الامام علي والأمويين يذر قرنه ويستفحل أمره حتى سارع الشعوبيون الى استغلاله اوسع استغلال ، واستطاعوا على مر السنين أن يوسعوا هذه الثغرة وأن ينفذوا الى صفوف العرب والمسلمين ، ويشيعوا الفرقة والانقسام في صفوفهم وينشروا القلق الوجداني في نفوسهم ويجعلوا الاسلام بالذات موضوعا قابلا للجدل والمناقشة ، والقرآن كتابا موضوعا لا منزلا ، وهكذا غدا المسلمون فرقا وشيعا وطوائف وتحقق للشعوبيين ما أرادوا فانهارت

القواعد الوجدانية والأسس الضميرية والركائز الاخلاقية التي استندت اليها الدولة العربية الاسلامية ، فتهاوت دولة العرب وسقطت ولما يمض عليها من الاعوام الثلاثون • فالدولة العربية ، هي ككل دولة أخرى ، انما تنهار عندما تنهار العقائد التي شيدتها والمبادىء التي انبثقت عنها، ومن المؤسف أن هذا الانهيار بدأ على يد العرب انفسهم ، وبدأ بالأمويين الذين عرفوا بتعصبهم الشديد للعنصر العربي • لقد بدأ هذا الانهيار عندما تخلى الامويون عن رسالة الأمة العربية وتنكروا للروح العربية وحولوا رسالة العرب من كونها ثورة على القيصرية والكسروية الى صيرورتها تأكيدا لهذه واثباتا لتلك • وبذلك مهدوا كل السبل أمام الشعوبية التي دفعت بحكام العرب والطبقة الثرية منهم في تيار من حياة فاجرة داعرة ، حيث أمسوا مطايا ذليلة لشهوات لا تعرف شبعا ولا ارتواء ، فانغمسوا في عيش باذخ مترف ، وغرقوا في احضان اللذائذ ، واستسلموا خانعين للجج المغريات ودواماتها، وعبدوا الحس بكل اشكاله وألوانه وأجناسه ففقدوا بذلك ذاك الجوهر الفولاذي في النفس العربية ، خشونة العيش وبساطتها ، اللذين كان الخليفتان يريان فيهما الوسيلتين الرئيستين للحفاظ على عزة الامة العربية ورسالتها الحضارية • وبذلك يقول البانديت نهرو في كتابه الشهير « لمحات على تاريخ العالم » :

« لقد ادرك الخليفتان (ابو بكر وعمر) ان قوتهما تكمن في الحياة الخشنة الساذجة ، وان الانغماس في اللهو والترف السائدين في ايوان كسرى وبلاط القسطنطينية سيفسد العرب ويزيل ملكهم • »

والحق ان الامة العربية ، ونتيجة لانحراف قادتها ، عقب وفاة عمر واستشهاد علي ، قد تنازلت عن رسالتها الحضارية • ولقد حاول الامام علي ، لا بل كافح كي يعيدها الى الجادة ، لكن كفاحه ذهب

أدراج الرياح،فلقد كانت الظروف أقوى من نواياه الخيرة وأشد مضاء من عزيمة فضائله ، اذ كانت تلك الطبقة القرشيـة التي حبسها عمر بن الخطاب في المدينة المنورة،وحال بينها وبين الاستئثار بثمرات الفتوحات العربية،قد قويت واشتد ساعدها وجمحت بها المطامع، وأمست قوة مرهوبة الجانب ، وعنصر حسم في المعركة ، وطبقة تعرف ما تريـد وتعرف الطريق الى ما تريد ، فارتفعت اولا بعثمان بن عفان ، ثم فرضت معاوية بن سفيان ملكا على المسلمين ، وانطلقت تنهب خيرات الشام والعراق ومصر وغيرها من الاقطار ، وتكدس الاموال من سائل وجامد، وتقتني القصور والقيان والغلمان وتندمج في المادية حتى ذابت فيهـا وتلاشت تماما .

والحق ان أبا بكر أدرك مطامع هذه الطبقة القرشية ، طبقة تجار العرب ، وأدرك خطرها الداهم على العرب ورسالتهم الحضارية ، وحذر خليفته عمر منهم اذ قال في وصيته الاخيرة له :

« وأحذر ، يا بن الخطاب ، هذا النفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل أمريء منهم لنفسه ، وان لهـم لحيرة عند زلـة واحد منهم فاياك ان تكونـه » .

ولم يكن ابن الخطاب بغافل عن حقيقة هذا النفر من العرب الذين مهدوا كل السبل للشعوبية لهدم رسالة الامة العربية وطمس معالمها ، وشل حيويتها اذ كان كثيرا ما يردد قائلا :

« الا وأن قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله مغويات دون عباده ، الا فاما وابن الخطاب حي فلا،اني قائم دون شعب الحرة، آخذ بحلاقيم قريش ، وأحجزهم أن يتهافتوا في النار . »

وكان يردد أيضا :

« ان أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد • »

ويقول الطبري في تاريخه :

« كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين فيقول عمر :

« لقد كان غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم الا ترى الدنيا ولاتراك • »

ويقول الطبري أيضا في موضع آخر من تاريخه :

« لم يمت عمر ، رضي الله عنه ، حتى ملته قريش • »

وقد صدق علي حينما قال معلقا على وفاة عمر :

« ان موت عمر فتق في الاسلام لا يرتق حتى يوم القيامة • »

وأي فتق !؟ ••• لقد هبطت رسالة الامة العربية عقب موت عمر وعقب استيلاء الامويين على الحكم الى درك تجرأ معه والى مصر على أن يكتب للخليفة الصالح ، عمر بن عبد العزيز الاموي الوحيد الذي حاول ان يعيد العرب الى الجادة ففشل ايضا ، أقول أن يكتب هذا الكتاب المفجع في مدلوله ويقول :

« ان أهل الذمة قد أسرعوا الى الاسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين الف دينار لاتمم بها عطاء أهل الديوان » •

ويسترسل هذا «الوالي» مطالبا الخليفة الصالح ، عمر بن عبد العزيز ، ان يأمر بعدم قبول دخول أهل الذمة الاسلام • فيجيبه عمر بن عبد العزيز الذي ذهب بدوره ضحية مطامع تلك الطبقة ، كما ذهب علي وابوذر من قبله ويقول :

« لقد وليتك أمر مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي أن يضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا . »

الى هذا الدرك هبط الامويون والعباسيون من بعدهم بمفاهيم رسالة الامة العربية ، ولا غرو في ذلك فعندما تصبح النظرة المادية هي الناظمة لحياة الامة والموجهة لخطى الدولة والمجتمع ، فعندئذ يصبح الهدف النهائي لكل عمل أو عملية أو نشاط ، أو قصد ، أو فكرة ، أو أية حركة انسانية مجتمعية اخرى ، منصبا على تحقيق نفع شخصي ومنفعة ذاتية ، وكل عقيدة تستقطب النفعية الذاتية ، وتستهدف النفع الشخصي ، تتنازل عن كونها عقيدة ، وتصبح مبدأ من مبادىء التجارة وقاعدة من قواعدها ، تسعر القيم بالقرش أو الدينار ، وتزن المثل العليا بالرطل والقنطار .

لقد أدرك قادتنا الصالحون ، في انبعاثنا الاول ، ان الديموقراطية السياسية لا يمكن لها أن تتحقق الا اذا رافقت كل خطوة من خطواتها ديموقراطية اقتصادية تلغي الطبقية في المجتمع ، والنظام الطبقي في الدولة . لذلك حاول ابوبكر وكافح عمر من بعده ومن ثم علي ، لايجاد مجتمع لا تعرف اليه الطبقية سبيلا ، وتأسيس دولة يكون لكل فرد من ابنائها حق في بيت المال . وقد رأى هؤلاء القادة في قريش الخلية السرطانية الاولى لهذا النظام السرطاني ، نظام الطبقات ، ففرض عليهم عمر الاقامة الجبرية في المدينة المنورة ، وجاهد جهادا صادقا « ليأخذ بحلاقيم قريش » وليمنعها من أن تصبح الطبقة الاوليفاركية ، الماركتنلية ، الاقطاعية في الدولة الاسلامية ، وذلك ليقينه بانه اذا ما بلغت قريش هذه المرتبة الطبقية فانها لن تفسد العرب فقط ، بل انما مستعبدهم ايضا ، وستقضي على الفضائل الاساسية التي تتميز بها

سيكوجيا الامة العربية ، لذلك سعى الى اقامة نوع من التوافق بين وسائل الحصول على الاشياء المادية وبين التلقي الوجداني الحي لها ، ومحافظة منه على صوفية الحكم وزهد الحاكم بأمور الدنيا ومتاعها ، ضرب عمر وعلي من بعده بنفسيهما خير مثل لقريش والعرب . فلقد كان هذان العظيمان أشد أبناء الامة العربية فقرا ماديا واملاقا ، فعمر ذاك العظيم ، هادم أمبراطوريتي فارس وبيزنطة لم يكن يملك من متاع الدنيا سوى ثوب واحد ، وأي ثوب ، ثوب وصفه ابو عثمان الفهدي قائلا :

« رأيت عمر يرمي الجمر وعليه ازار مرقوع بقطعة جراب . »

وعلي الذي جاءه اخوه عقيل مسترفدا فقال (علي) لابنه الحسن: « اذا خرج عطائي فسر مع عمك الى السوق ! فاشتر له ثوبا جديدا ونعلين جديدتين . »

ومن الطريف ان عقيلا هذا قصد فيما بعد معاوية مسترفدا فأعطاه معاوية مائة الف دينار .

والحق ان عمر بن الخطاب كان أول من الغى نظام الاقطاع في البلاد التي حررتها الامة العربية ، ورفض رفضا باتا جازما العودة الى العمل به عندما جاءه نفر من قريش وطلبوا اليه ان يملكهم الاراضي الزراعية بدلا من سادة الاقطاع الذين فروا امام الجيوش العربية تاركين الارض غنيمة للمسلمين ، اذ اكتفى عمر بن الخطاب بان وضع ضريبة الخراج على الفلاحين من غير المسلمين ، والعشر على المسلمين منهم ، علما بأن ضريبة الخراج كانت تسقط عن الذمي حالما يعتنق الاسلام دينا .

لكن كان جنائن الشام ورياضها ، وانهار العراق وسهوله ، وجبال

فارس وحسانها ، وروابي فلسطين وشطآنها ، ومياه النيل وتربة مصر ، اسوأ الاثر في الروح والاخلاق العربية. لقدكان كل ما في هذه الاقطار بفجر أعمق ما للرغائب الحسية من ينابيع،ويستصرخ أعتى الشهوات في نفس انسان انطلق من صحراء جرداء مجدبة ، ويتحدى فضائل هذا الانسان وقيمه ، ويراوده على رسالته ومثله ، وبدلا من أن يشجع قادة الامة العربية، آنذاك، ذاك الانسان الطيب على الرد على ذاك التحدي تمسكا بمثله وتشبثا بقيمه ، كان اولئك القادة المنحرفون يتهافتون على كل غواية ويركعون امام كل اغراء ، ويقربون كل فاسق ، ويجلون كل آبق أثيم .

الفصل الخامس

واليوم .. أين نقف؟

لقد بينت في المدخل التاريخي لهذا الكتاب ان القومية العربية انما جاءت بمثابة رد فعل طبيعي للقومية الطورانية (التركية) التي عرفتها الامبراطورية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وفي الربع الاول من القرن العشرين . واوضحت بجلاء أن رواد القومية العربية في تلك الحقبة من تاريخنا أرادوا صادقين أن تبقى العثمانية المستندة الى الاسلام نظاما وعقيدة الرابط الذي يؤلف بين شعوب الامبراطورية العثمانية ويساوي بين هذه الشعوب في الحقوق والواجبات . وقلت أن اصرار العنصر التركي في الامبراطورية العثمانية على فرض ابنائه أسيادا على بقية العناصر التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية ، وخاصة العنصر العربي ، قد ارغم العرب على اعتماد الفكرة القومية عقيدة لهم ومذهبا ، واضطرهم بالتالي الى الثورة على الامبراطورية العثمانية ، والى خوض غمار الحرب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء ، لذلك فان الحركة القومية العربية كانت في ذلك العصر اجراء وقائيا ، وعملا دفاعيا عن النفس امام طغيان القومية الطورانية واستبدادها . والحق ان يقظة القومية الطورانية في تلك الحقبة التاريخية ، ومن ثم يقظة القوميات الاخرى داخل الامبراطورية العثمانية ، انما جاءت ضرورات حتمتها وفرضتها المدنية الغربية التي كانت قد بلغت اشدها في أواخر

القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وأخذت تغزو باعرافها وتقاليدها ومفاهيمها وعلومها كامل الكرة الارضية . وجميعنا يعلم حق العلم بان المدنية الغربية اعتمدت اول ما اعتمدت في نشوؤها وتطورها على القومية ، ابتداء بعصور التنوير وانتهاء بالاستعمار الرأسمالي المدعوم بالقوة المسلحة ومن ثم بالامتيازات الاقتصادية والسياسية . زد على ذلك ان جميع الحركات القومية التي شهدها العالم في ذاك العصر ونشهدها اليوم في العصور الحاضرة انما اعتمدت القوانين ذاتها تقريبا التي اعتمدتها القوميات الاوروبية التي سبقتنا الى تجسيد هويتها القومية في اطار سياسي . ولا عجب في ذلك فالمدنية الاوروبية ، كما قلت فيما تقدم ، هي التي تسيطر اليوم على كامل الكرة الارضية ثقافة وعلما وفنونا ، وهي التي أمست في عصرنا هذا قدوة ومثلا للشعوب الهادفة الى القضاء على التجزئة وعلى التحرر من المظالم الاجتماعية . وهنا يجدر بي ان اشير الى نقطة جد هامة ، وهي ان المحتوى القومي الاوروبي عقب الثورة الصناعية ، لم يكن يحتوي على أي مفهوم من مفاهيم العدل الاجتماعي ، وذلك بسبب ان الطبقة التي تبنت الحركات القومية في بلدان اوروبا ، كانت الطبقة البرجوازية المتطورة الى طبقة رأسمالية ، وهذه الطبقة الاخيرة استعملت الحركات القومية الاوروبية،كسلاح للتوسع الاستثماري الاستغلالي والاستعماري خارج دولها ، ووسيلة الى الاستغلال داخل مجتمعاتها ، بينما أننا نرى اليوم أن الحركات القومية في النصف الثاني من القرن العشرين أخذت تتبنى مفهوم العدل الاجتماعي ، كمبدأ اساسي للحركة القومية ، وكركيزة حيوية للكيان الاجتماعي ، وان كانت مفاهيم العدل الاجتماعي في البلدان الطامحة الى تحقيق وحدتها السياسية لم تتبلور بعد في نظام أوبالاحرى فى منهاج واضح الاهداف محدد الوسائل والسبل الايجابية. ونحن هنا ايضا لا نستطيع ابدا ان ننكر ان الاشتراكية ، بكل مفاهيمها،

هي أيضا من معطيات المدنية الغربية ، وهي نتاج أصيل لهذه المدنية . وأعني هنا بالمدنية الغربية ، المدنية الاوروبية بشقيها الرأسمالي الحديث ، والشيوعي .

والان يتوجب علينا نحن معشر العرب ، ونحن نمر في هذه الحقبة من انبعاثنا الجديد ، ونرى في العدل الاجتماعي ، منطلقا وهدفا لبناء المجتمع العربي الواحد في الدولة العربية الواحدة ، ذات النظام الذي يشمل العقيدة والحياة ، أن نحلل المدنية الغربية وأن نتعرف الى الاسس أو الاساس الذي تستند اليه هذه المدنية ، طالما أن الاشتراكية التي استهوتنا وتستهوينا هي أحد معطيات هذه المدنية ، ان لم تكن أهم معطياتها في العصر الحديث . وعلينا قبل أن نحلل هذه المدنية أن نطرح على انفسنا الاسئلة التالية :

١ ــ هل نريد أن نكون مجرد امتداد لهذه المدنية ؟ ام أننا نريد أن نخلق حضارة خاصة بأمتنا ؟ أم أننا نريد أن نعطي هذه المدنية شيئا جديدا ونكهة جديدة ، أو بالاحرى جوهرا جديدا ؟

٢ ــ هل هناك خصائص مميزة لكل أمة ؟ وهل هذه الخصائص تفرض بأن تكون لكل أمة حضارة خاصة بها ؟ وهل يقوم التعاون الحضاري بين الامم على أساس من التنسيق الحضاري بين الامم ؟ أم هل أن الامم جميعا بغض النظر عن الجنس او اللون أو اللغة أو المناخ أو الاقليم ، هي في واقع الحال أمة واحدة اسمها الانسانية ؟

٣ ــ هل اختلاف خصائص كل أمة عن الامة الاخرى ، يوجب ايضا اختلاف الاهداف والمناهج والسبل بين الامم ، وايجاد اهداف ومناهج وسبل تنبع من الامة ذاتها وتكون خاصة بها ومميزة لها ؟ علما بأن الاشتراكية وخاصة الاشتراكية المادية ، أو الديالكتيكية تقول بوحدة الهدف ، وتسمح باختلاف السبل والمناهج . تاركة تحديدها

(السبل والمناهج) للظروف القائمة في المجتمع الهادف الى اقامة النظام الاشتراكـي •

٤ ـ هل تتفق الاشتراكية الاوروبية ، أقول الاوروبية ، والقومية؟ ألا ترى الاشتراكية الاوروبية الحديثة ، الشيوعية منها والغربية ، أن القومية حجر عثرة في طريقها ؟ علما بان الشيوعية (الاشتراكية المادية) لا تعترف أصلا بالقومية بل انما تنكرها كمبدأ لا انساني • زد على ذلك الا تعتبر اليوم السوق الاوروبية المشتركة خطوة واسعة نحـو الولايات الاوروبية المتحدة ، أو بالاحرى نحو الغاء التنظيم السياسي الدولي على أساس قومي ؟ وألا تعتبر هذه السوق خطوة أوسع بكثير من الاتحـاد الجمركي الذي قام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين الدويلات الالمانية والذي كان الركيزة الاساسية التي استندت اليها الوحدة الالمانية ؟

٥ ـ هل تعتبر القومية مرحلة في حياة الامة ؟ أم أنها نهاية المراحل؟

وهل ترى الاشتراكية الاوروبية الحديثة بشقيها الشيوعي والتطوري في القومية نهاية مراحل التطور ؟

٦ـ هل كان لاوروبا حضارة فمدنيـة سابقة لحضارتها تلـك ومدنيتها هذه كما كان للعرب ، وكما نريد اليوم ان يكون لنا ؟

٧ ـ هل استطاعت الحضارة الاوروبية فمدنيتها الحالية ان تجنب الانسان الاوروبي ، أو أي انسان يعيش وفق قوانينها الحيرة والفراغ والمرارة العبثية وأن تشيع في نفسه اطمئنانا روحيا وراحة وجدانية ؟

٨ ـ هل للامة العربية من رسالة ؟ وهل هذه الرسالة هي رسالة من الانسان العربي للانسان العربي فقط ، ام أنها من الانسان العربي للانسان العربي والانسانية ؟ وما هي هذه الرسالة ؟ وما هو مفهومها ؟

وهل تنظم هذه الرسالة علاقتنا بالفرد والمجتمع والدولة والامم الاخرى فقط ، أم انها تتسامى لتنظم ايضا علاقتنا بالكون الكبير ايضا ؟ علما بأننا لا نستطيع بأي حال أن نجرؤ فنزعم أو نـدعي بأن الاشتراكيـة هي الرسالة التي خصنا بها الله أو القدر لنبلغها للامة او الانسانية ، اذ أن الاشتراكية هي ، كما قلت آنفا ، من معطيات المدنية الاوروبية لا من معطيات الامة العربية .

٩ ـ هل الاشتراكية هي عقيدة او منهاج اقتصادي يرمي الـى تنظيم الاقتصاد في الدولة على أساس الملكية الجماعية لا الملكية الفردية والطبقية ؟ علما بان كلمة « عقيدة » هي كلمة ذات مفهوم ميتافيزقي مفهوم يؤمن به الانسان دون قناعات عقلانية، لان الايمان هو بالاساس مناف للعقل والعقلانية ، مناف للحس وللحسية ، بينما أن المنهـاج هو ثمرة عقل ونتيجة حس .

١٠ ـ ألا تستند الحضارة الاوروبية فمدنيتها ، شكلا وجوهرا ، وبكل مفاهيمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، الى النظـرة المادية الى الحياة ؟ والا يحكم هذه النظرة قـانون الحركة لا قـانون الاخلاق ؟ أو ليس الانسان وفقا لهذا القانون كائنا عاطلا من كل رغبة وارادة ؟ كائنا فرض عليه ان يكون فكان وفرض عليه ان يزول فزال ؟ أو ليس مثل هذه النظرية الى الحياة هي منبع العبثية ؟ وهل يجوز لنا ان نسمح للانسان العربي ان ينتهي الى العبثية ؟ اننا اذا ما تعمقنا في البحث عن الجذور الاصلية للمدنية الاوروبية ، نجد أن هذه الجـذور انطلقت وتشعبت من انكار الروحانيات ونمت على العقلانيـة ، أو بالاحرى المادية ، حيث اتخذت المادية اساسا لكل نباء وميزانا لكـل قضية ، ونجد ايضا ان عصر النهضة الاوروبية يكاد يرافق ، ويسـير جنبا الى جنب تقريبا والعصر المعروف بعصر الاصلاح الديني ، عصـر

الثورة على الكنيسة الكاثوليكية ، عصر فصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية ، عصر صيرورة السلطة الزمنية ، السلطة الوحيدة التي تملك تقرير مصير الامة وتحديد شكل المجتمع والدولة ، واهم من هذا كله عصر صيرورة الدين المسيحي بأدق أسراره المقدسة موضوعا قابلا للنقاش والجدل . ولاغرو في ذلك فعندما تعتمد أية حضارة كانت العقلانية اساسا ومنطلقا ، فعندئذ لا مناص لها من اعتماد الحسية دليلا للعقلانية ، والمادة برهانا عليها . ومن الطريف ان يلاحظ المرء أن البروتستنتية التي أرسى دعائمها جون هس ومارتن لوثر وكلفن وغيرهم من بعدهم ، قد انتشرت وسيطرت على البلدان الاوروبية التي تذخر بامكانيات التصنيع والصناعة ، كبريطانيا وألمانيا والسويد ، بينما بقيت الكاثوليكية تسيطر على البلدان التي هي دون تلك موارد صناعية ، كايطاليا واسبانيا وفرنسا والنمسا الخ ... وهنا انطلقت طبقة جديدة ، كانت قد تكونت مع الزمن ، وفي احشاء نظام الاقطاع الاوروبي ، للاستيلاء على السلطة في المجتمعات الاوروبية ، وأعني بهذه الطبقة ، الطبقة الرأسمالية التي مهدت لها البروتستنتية الطريق الى تحقيق الوحدات القومية للشعوب الاوروبية والى الاستعمار ، لذلك نستطيع نحن أن نقول بان العقائد القومية الاوروبية وجدت لها في الطبقة الرأسمالية ، رأسمالية القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين ، نصيرا لها وحليفا ، أو بالاحرى والدا وراعيا. وهذا هو السر في أن نرى اليوم الاشتراكية بكل مذاهبها بالاضافة الى الرأسمالية الحديثة ، الرأسمالية الخاضعة لضريبة الدخل المرتفعة ، والتي تعتبرمع الاشتراكية على طرفي نقيض منحيث الوسائل والغايات الاساسية والرأسمالية القديمة ، أقوى في أن نرى هذه المذاهب السياسية الآنفة الوصف تتنكر للحركات القومية وترى في مثل هذه الحركات حركات رجعية استنزفت كل أغراضها عقب الحرب العالمية

الثانية ، وأصبحت حركات معطلة لموكب الانسانية المتجه الى اقامة الدولة العالمية الواحدة .

اذن فالظروف التي ولدت فيها الحركات القومية تختلف كليا عن الظروف التي يمر بها اليوم انبعاث القومية العربية من جديد . ونحن نلمس لمس اليد أن الطبقة الاجتماعية العربية التي تسند اليوم حركة القومية العربية تكاد تكون طبقة البرجوازية الصغيرة من الامة العربية ، وليست بطبقة البرجوازية الكبيرة حيث لا وجود لهذه الطبقة أصلا في معظم البلاد العربية ، بسبب عدم وجود الصناعات المتوسطة والثقيلة ، وعلينا هنا الا نخلط بين طبقة التجار وبين طبقة الرأسمالية ، فاسبانيا مثلا كانت تمثل الطبقة التجارية الاوروبية ، ولم تكن تمثل طبقة الرأسمالية الاوروبية هذه الطبقة التي ورثت اسبانيا وما تمثله عقب هزيمة الارمادا . زد ذلك ان العصر الذي بعثت فيه اليوم القومية العربية من جديد هو عصر حرية وتحرر ، عصر تهاوت فيه ركائز الاستعمار حتى في القارة الافريقية ، وأصبح الاستقلال السياسي مطلبا أساسيا لكل شعوب الارض ، واتخذت فيه ايضا حتى الرأسمالية شكلا يكاد يختلف تماما عن الشكل الذي لبسته بعد الثورة الصناعية ، وأصبح حق الانسان في عيش كريم امرا فوق كل نقاش وجدل .

مما ورد يتضح لنا تماما ان انبعاثنا الجديد يجري اليوم في ظروف داخلية وعالمية تختلف اختلافا كليا عن الظروف التي تم فيها انبعاث القوميات الاوروبية ، كما واتضح لنا ان الاشتراكية الاوروبية انما جاءت كردة فعل للرأسمالية الاوروبية ، جاءت ثورة عليها ونقيضا لها ، والغاء للاستغلال في شكليه المستعبد والمستعمر ، لذلك فان القومية العربية عندما تتبنى في هذا العصر الاشتراكية لها منهاجا اقتصاديا ، فانما هي في واقع الحال تحاول أن تخوض معركتين في وقت واحد ،

معركة تحقيق الوحدة القومية ، ومعركة تحقيق العدل الاجتماعي وذلك بالاضافة الى معركة ثالثة لا تقل أهميــة عن تينك المعركتين ، وأعني بها المعركة ضد الصهيونيــة العالمية . فهل نستطيع ان نحقق النصر في هذه المعارك اذا مااعتمدنا النظرة المادية الى الحياة مذهبا لنا وعقيدة؟وهل نستطيع الوصول بالامة العربية اذا ما سمحنا للمدنية الغربية التي وصلت اليوم الى أحط درك من الانحلال ان تجرفنا بسيولها المتدفقة من أحط الحواس والغرائز والتــي أمست أمامهــا شعوب الدول الاوروبيــة فريسة ذليلة للعدمية والعبثية ؟

انني اؤمن ايمانا جازمــا بان اعتمادنا النظرة المادية الى الحيــاة عقيدة لنا وناظما لسلوكنا سيرغمنا حتما في النهاية على اعتماد مذهب النفعية ، هذا المذهب الذي يفرض علينا ان نناقش كل خطوة أو أجراء أو عمل على أساس ما يؤمنه لنا من فوائد شخصية ومنافع مادية . ونحن اذا ما اعتمدنا هذا المبدأ الهدام فاننا حتما لن نحقــق أي هدف مــن أهدافنا القومية ، لا بل أننا لن نحقق أهم أهدافنا القومية ، وأعنــي بهذا الهدف ، الوحدة القومية المجسدة في الدولة القومية الاتحادية الواحدة . وعلينا أن نكون شجعانا ونعترف بان العامل الاساسي في انفصال سوريا عن مصر وسقوط الجمهورية العربية المتحدة ، انما هو ناشيء عن كون مبدأ النفعية هو الذي سيطر على الاذهان وداس على الضمير والوجدان . اذ ان هذا الاتحاد الذي قام بين سوريا ومصر انما نوقش بعد قيامه على أساس من النفعية ولم يناقش ابدا بضمير قومي أو وجدان انساني . فسوريا هذا البلد الذي يذخر بجميع الامكانات الاقتصادية من زراعية وصناعية وبترولية ، والذي يعيش على الكيلومتر المربع الواحد منه عشرون شخصا ستكون حتما الخاسرة اذا ما اتحدت مع بلد كمصر يعيش على الكيلومتر المربــع منه ما يقارب الالف شخص

والذي يصارع اليوم الطبيعة والقدر لتأمين موارد تسد على الاقل رمق سكانه الذين يتزايدون بنسبة جد عالية . « وأغنيــة أكلك منين يــا بطة » وما تعنيه لخير دليل على ما في مبادىء النفعية من اخطار وشرور على تحقيق الوحدة القومية للامة العربية . لهذا كلــه يراني القارىء أقسو على المادية واشجبها كنظرة لنا في الحياة في هذه المرحلة مــن انبعاثنا . اذ انها تحولنا نحن شباب العرب المؤمنين بالقومية العربية من قادة الى تجار وتجعل من القضية القومية مشروعا تجاريا يناقش علــى أساس ما يدره من أرباح أو ما ينجم عنه من خسائر مادية ، لا علــى أساس كونها قدرا تاريخيا محتوما ورسالة انسانية سامية ، تفرض علينا ان نرى في الفرد في القطر المصري انسانا عربيا يشكل جزءا جوهريا من القومية العربية، جزءا لا تكتمل ولن تكتمل وحدتنا القومية ان لم تضمه وتذيبه فيها . ولنكن اكثر صراحة ولنقل ان النفعية هي التي تقف اليوم في طريقنا الى تحقيق الوحدة القومية ، وليس الاستعمار او غيره . فمعظم الدول العربيــة هي اليوم متحررة من الاستعمار ، وتستطيع أن تفرض الوحدة القومية غير وجلة أو هيابة ، لكن القائمين على الامــر يناقشون هذه القضية الكبرى على أضواء النفعية ، أكانت هذه النفعية ترمي الى تحقيق منفعة مادية أو معنوية تتمثل في بهارج السلطة وبريق السلطان. لذلك كله يخرج علينا القائمون على الانظمة الحالية في البلاد العربية بشتى التبريرات السخيفة المضحكة التي لا تستقيم سوى امام منطق « الانا » الجشعة النهمة الاكول . وانني اود هنا ان استدرك فأقول بأن مما يحد النفعية باعذار وأسباب الحيــاة انما هو النظــام الفردي في الحكم ، هذا النظام الذي يستقطب فردا واحدا أو مجموعة مــن الافراد ، فيفرضون انفسهم أوصياء على الامة وأولياء على أمورها، وبهذا يــدخلون في صراع يائس بــائس وعقيم وروح الامــة العربية وسيكولوجيتها . فالنظام الفردي لا يمكن له الا أن يكون نظاما عاقرا

عقيما في حياة الامة السياسية وفي بناء هذه الحياة وتشييد أية مؤسسة من مؤسساتها على أسس ديموقراطية ، وخير دليل على ما ذكرت هو ما يجري اليوم في تركيا ...... أفليس من المحزن لا بل المفجع ان نرى ان كمال أتاتورك ، هذا الرجل الذي رفعته تركيا الى مصاف الابطال الفريدين في نوعهم ، وخلفاءه من بعده لم يستطيعوا ابدا أن يبنوا للديموقراطية كوخا في بلدهم ، حتى الكوخ الذي بناه مندريس عصف به الجيش عقب اربعين عاما من تولي كمال أتاتورك وخلفائه الحكم فيها ، وعادوا بتركيا الى الحلقة المفرغة التي بدأت بكمال أتاتورك . هذا استدراك كان لابد منه ، استدراك اتوجه به الى كل من يرى في الفردية مذهبا في الحكم ، راغبا اليه ان يستنتج ان المهم ليس بناء البلد بل انما هو بناء الامة بناء ديموقراطيا يخضع الدولة بكل اجهزتها لرقابة الشعب ، ويترك للامة حق المناقشة والتقرير والاختيار والتنحية والانتخاب والتعيين .

وأعود هنا الى متابعة البحث في النفعية وخطرها على القومية العربية ، فأقول أنها من اشد الاوبئة فتكا بأخلاق الامة . وهذا الوباء اذا ما ضرب أمة من الامم فعندئذ لن يكون لهذه الامة أي أثر حضاري خلاق . فالحضارة كما نعلم جميعا هي عملية عطاء مستمر ، هي تضحية وتسام فوق متاع الدنيا ورغائبها . وهي لاتنهض على أكتاف التجار بل انما تقوم على سواعد الرسل الاحرار المتحررين من كل رغبة ذاتية ومطلب شخصي ، والمثل العليا لا تلبس اولئك الناس الذين يخضعون اندفاعاتهم للعقلانية ويغلون طاقاتهم بالمادية ، بل انما تتجسد تلك الصفوة من الرواد الذين ينطلقون من ايمان متحرر من العقلانية وحساباتها ومن المادية وأغلالها ، ايمان لا تستقيم أمامه نزوات الجسد ومناقشات المنطق ومطالب الحس ورغبات الغريزة ، ايمان ينبع من العطاء لا الربح

ومن الهداية لا الجباية ، ايمان يرتفع بالانسان الى مرتبة النبوة ، وأية نبوة ، النبوة العربية ، نبوة الزهد والصوفية والتنسك . وقديما قال السيد المسيح :

« أن من له ايمان حجمه كحجم حبة الخردل، يستطيع ان يأمر الجبل بالانتقال من مكانه فينتقل . »

كلنا نعرف ، والتاريخ يثبت أن كل انطلاقة انسانية خلاقة ، انما جاءت نتيجة لايمان عميق قويم راسخ ووطيد ، وان اعظم الانجازات انما حققها المؤمنون لا المفكرون ، وأنجزها الرسل الزاهدون لا التجار النفعيون ، وأن كل مجتمع اختار غير الايمان مركبا له كان مجتمعا عقيما غير خلاق ، لانه كان مجتمعا كافرا بالتضحية ، ويعتبر التضحية عملا مجنونا لا يقدم عليه انسان يتمتع بقواه العقلية ويستهدي بأنوار العقلانية ، غير أننا نعرف جميعا بان الاعمال العظمى تكمن وراءها تضحيات عظمى وان الاهداف الكبرى موكول أمر تحقيقها الى تلك النفوس السامية التي صهرتها بوتقة الفداء والتضحية اللذين يمثلان أعظم معطيات الايمان . ونحن لا نستطيع ولن نستطيع أن نحقق أي هدف من أهداف القومية العربية ما لم نعتمد هذا الفداء دستورا للممارسة والتضحية ناظما للسلوك ، وطريقنا الى هذا المستوى الرفيع من الاخلاقية ، انما يبدأ بالايمان وتفجير كل طاقات الايمان في نفس الفرد العربي ، ولن يتحقق لنا هذا الامر ما لم نرتفع فوق ذواتنا ونذوب في أمتنا ضميرا ووجدانا وننبذ النفعية ، بكل اشكالها من فردية وطبقية واقليمية ، وهذا الامر لن يتحقق أيضا بدوره الا اذا كان ايماننا بالله عز وجل ايمانا قويا متينا راسخا ، فالايمان بالله هو أصل كل ايمان، وهو المولد لكل ايمان ولا يمكن للانسان ان يؤمن بأي مثل اوقيمة اذا كان بالله كافرا جحودا ، وان كل محاولة لتدمير ايمان الانسان بالله ،

هي في واقع الحال محاولة تهدف الى تدمير ايمان الانسان بكل قضية ، وترمي الى التطويح بالانسان في هاوية العدمية اليائسة ومهاوي العبثية الماجنة الساخرة . فالايمان هو وحده الذي يشحذ في الفرد والامة تلك الارادة الفولاذية التي تكتسح كل عقبة تعترض طريقها الى أهدافها ، وهو وحده الذي يزود الحياة بتلك الفترات من السمو والاشراق ويعطيها مفهوما ومغزى ، وهو وحده الذي يستولد الحقبات التاريخية كل نبل وعظمة ويجلبب الاعمال الانسانية بجلباب الخلود ، وهو وحده الذي يسند أخلاق الانسان في لحظات الضعف ، ويحفظ عليه شرفه ويجنب خطواته الزلل والانحراف ، وهو وحده الذي يزود الامة في ساعات الشدة والمحن بتلك الطاقة الكونية الجبارة ، طاقة الانتصار على اليأس والهزيمة والارتفاع فوق جراحها الى ارفع مستويات المجد والاشراق ، وهو وحده الذي يهب الانسان القدرة على الانسجام وذاته الضميرية ، ويمنحه الشجاعة على ممارسة انسانيته غير وجل أو هياب. والايمان لا ينبع من البطن ، ولا يتمدد في الامعاء ، ولا يعيش في الجسد ، بل انما يصدر عن كيان غير مرئي ، وغير ملموس في الانسان، وينبع من جوهر لا يزال مجهولا لحواسنا الخمس ، وقد يكون هذا الجوهر هو الرباط الذي يشدنا الى الله والكون .

كلنا يعرف بأن الحضارات تسقط وتنهار ساعة سقوط الايمان وانهياره، وهذا السقوط انما يبدأ حالما تبدأ أمور العيش بالسيطرة على الحياة وتجميدها أو حالما تنتقل السلطة من يد من كان كعمر بن الخطاب الى يد من كان كمعاوية بن أبي سفيان أو هارون الرشيد . ان اسباب الحياة هي التي توجد أسباب العيش ، وليس العكس بالعكس ، والامة التي تريد ان تعيش فقط ، تفقد اسباب العيش والحياة معا . وهذا هو سر ضعف الحضارة فالمدنية الاوروبية التي أمست شعوبها اليوم فريسة شيخوخة

تحن الى العدم والفناء ، وترغب في الخلاص من الحيرة والقلق اللذين يسدان عليها اليوم كل منفذ . ولنتأمل في المجتمعات الاوروبية اليوم ، اننا نرى أن جميع هذه المجتمعات ، تقوم على الكذب والرياء والنفاق ، وانها خالية من كل عاطفة انسانية اصيلة وبريئة ، حتى عاطفة البنـوة ، والابوة قد فقدت كل معنى لها ، فالابن لا يحب اباه الا لانه يرى فيه موردا لاسباب عيشه ، وكذلك الابنة ، وحالما يستطيع الابن أو الابنة تدبير أمور عيشهما تنتهي كل علاقة انسانيـة تشدهما الى امهمـا أو أبيهمـا . فالاستقلال المادي يحرر الفرد في المجتمع الاوروبي من كل رابط اجتماعـي ، والرباط المادي هو اليوم أقوى الروابط ، لا بـل أنه الرباط الوحيد الذي يشد كل فرد اوروبي الى بيئته أو طبقتـه ، وكل رباط غير هذا الرباط انما هو وهمي وواه يتبخر حين التجربـة ويتلاشى عند تعرضه لابسط الخسائر والتضحيات . فالغيرة والنخوة والعطاء والفداء والتضحية كل هذه القيم لم يعد لها أي وجود فـي المجتمعات الاوروبية . لذلك نشهد اليوم هذه المجتمعات تعاني انحلالا وتفككا ذريعين . ويعيش الفرد فيهـا فريسة لشتى العقـد النفسية . فالفرد الاوروبـي لا يعاني اليوم الازدواجية الشخصية فقط ، بـل انما أمسى مركبا من شخصيات متنافرة متناقضة ، فهو يلبس لكل حال لبوسها ويرتدي الزي الذي يناسب الوضع وينسجم والظرف . انـه والحق مجرد شخص منفصل ، وحتى انفصاله هذا تفرضه الضرورات المسرحية . ومن المؤسف ان المادية هي التي تسعر ، أقول تسعر لا تقيم الفضائل الروحيـة ، كالمحبة والحب مثلا ، وهناك اصطلاح غزلي جد شائع في الولايات المتحدة الاميركيـة مثـلا ، فالعاشق اذا ما أراد التغزل بمعشوقته قال لها : انك تساوين مليون دولار . حتى الاحترام وهو الفضيلـة التي تستوجبها كل قيادة رشيـدة وزعامة انسانيـة أمست موازينه الكشوفات المصرفية ، وأمسى مشترعو قواعده أرباب المال ومدراء المصارف . ولم يعد الانسان يستمد هيبته ووقاره مـن

فضائله العقليـة أو الاخلاقية أو الروحية ، أو من مواهبه الحضارية ، بل انما غدا الانسان اللامعفي المجتمع يستمد هيبته من مسدسه أو رصيده المصرفي ، ووقاره من مشروعاته التجارية أو الصناعية . وهكذا نرى ابناء اوروبا اليوم يعيشون عبيدا بطبقة هي مزيج من الاوليغاركية والتجارية والصناعيـة ، ونرى أبناء اوروبا الشرقيـة مستعبدين لطبقة المديرين البيروقراطية التيتمارس الصلاحيات نفسها وتتمتع بالامتيازات ذاتها التي تمارسها وتتمتع بها مثيلتها الغربية .

ولكن الى اين انتهت النظرة المادية الى الحياة بالحضارة فالمدنيـة الاوروبية ؟ والى أين انتهت بالفرد الاوروبي ؟ لقد انتهت به الى القلق فالحيرة فالفراغ وأخيرا الضياع . فالفرد الاوروبي أمسى اليوم يعاني ضياعا يائسا جعله يقيم للعدم مذهبـا وفلسفة ، وجعل ألبير كامـو مثـلا يقول :

« ليس هناك الا قضية فلسفية واحدة تتمتع حقا بصفة الجد ، وهي قضية الانتحار . »

ثم يقول :

«اللامعقول أضاء لي هذه النقطة ، ليس ثمة من غد ، هـذا ما يؤلف بعد الان سببا لحريتي العميقة . »

وجعل غبريل مارسيل ، الـذي ينعت بالوجودي « المسيحي » يقـول :

« والواقع ان الحياة تبدو لي مجردة من المعنى ، بكل ما تعني كلمة « مجردة » ، هذا الواقع يؤلف جزءا مكملا من أجزاء كيانها . »
وجعل الشاعر ت. س. اليوت يصرخ من اعماقه متفجعا :

« اين هي الحياة التي ضيعناها في العيش » ؟

وجعل كولون ولسون يتفجع :

« ماذا بعد السيطرة على العالم كله ؟ لقد فشل انسان العقل في ادراك اهم الحقائق الخاصة بالانسان . ان العقل والمنطق قد يمنحان الانسان القوة للسيطرة على عالمه الخارجي ، ولكنهما لا يمنحانه القوة للسيطرة على نفسه » .

ويقول في مكان آخر :

« ترى ما هي حقائق الحضارة ؟ انها حضارة ذات تطور ميكانيكي عال ورصيد فني كبير،سبقهما تفكير حر استمر ثلاثة قرون،ويصاحبهما فراغ كبير ، فراغ لا تعرف الحضارة كيف تنفقه .

نعم انا لا انكر على الحضارة فالمدنية الاوروبية ، ضخامةانجازاتها وفخامتها ، لكن هذه الانجازات بالرغم من كل فخامتها وضخامتها لم تستطع حتى هذا اليوم ان تشيع الاطمئنان في نفس الانسان ، وان تجعله يعيش في سلام وضميره ، وان تقدم له كائنا او جوهرا او مذهبا او فلسفة او دينا يستحوز على ايمانه وينفي قلقهويشده الى تربة الحياة بجذور تجعله يثبت امام زوابع الشكوعواصف الريب ، وأنواء الحيرة والضياع .

لقد تعمدت ان اقدم هذه العجالة من الوصف لحال الانسان الاوروبي المعاصر ، وذلك كي ان اظهر للقارىء العربي ان النظرةالمادية الى الحياة مهما بلغت انجازاتها ضخامة وروعة وفخامة فانها لا تستطيع ان تحل مشكلة الانسان ، بل انما تزيدها تعقيدا وعقدا . وهذه الحقيقة تستوجبنا ونحن نخطط لبناء مجتمع يسوده العدل الاجتماعي، ان نفتش لهذا العدل عن سند يستند اليه وينبع منه غير النظرة المادية

الى الحياة . وعلينا ان نعترف بأن كل ما لدينا اليوم من مناهج ننعتها بالاشتراكية ، انما هي فيواقع الحال مناهج اوروبية تستند وتنبع من النظرة المادية الى الحياة ، هذه النظرة التي يثبت واقع المجتمع الاوروبي فشلها في حل مشكلة الانسان . فنحن قد نحقق المشروعات الصناعية الضخمة ، ونستصلح ملايين الافدنة من الارض الموات ، فنبني السدود ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، ونستولد احشاء الارض كل ما تذخر به من مواد اولية ، وقد نفتت الذرة ونستخدم الطاقة الذرية ، نعم قد نقوم بكل هذه الانجازات ، ولكن هل سنحل مشكلة الانسانالعربي ، وهل سنجنبهذا الانسانآلام القلقوالضياع واليأس التي يعانيها اليوم الانسان الاوروبي ؟ طبعا لن نستطيع تحقيق هذه الغاية اذا ما اقتبسنا الاشتراكية الاوروبية بكل عجرها وبجرها . فنحن لذلك مطالبون لا بل مرغمون على ان نجد للنظام الاقتصادي العادي الذي نريده لدولتنا ولمجتمعنا اساسا فلسفيا ، اساسا لاهوتيا يستطيع ان يحافظ على اتقاد الايمان في صدور ابناء الامة العربية ، ويستطيع ان يثير حماستها ويبقي على جذوة الحياة متقدة في ضميرها ووجدانها ، وقادر على الاشعاع بحرارة الحياة فيشيع الدفء في شعوب الحضارة الاوروبية التي ترتجف اليوم تحت سياط زمهرير القلق وعضات اليأس والضياع . هذه هيرسالتنا اذا كان لنا من رسالة كأمة في هذه الحياة ، وهي رسالة اذا استطعنا ان نجعلها متماسكة روحا وضميرا ووجدانا فعندئذ ، وعندئذ فقط نستطيع ان نقول وبحق بأن انبعاثنا الجديد ، هو كانبعاثنا القديم ، ليس امتدادا لمدنية اوروبية دب فيها الانحلال ، بل انما هو تقويم لهذه المدنية واعطاؤها ما كانت تفتقده في الاصل ، الا وهو الايمان بالله وبالانسان . ومثل هذهالمهمةيستوجب انجازهاجيلا ثورياكثورية بن الخطاب،جيلا ينكرعلى المدنية الاوروبية انحرافها بالانسان عن الجادة وينكر عليها الاسس

الفلسفية والاخلاقية التي تستند اليها ويحارب قواعدها السلوكيـة في المجتمع •

ولكن أين يقف اليوم هذا الجيل العربي الجديد المفترض فيـه ان يكون طلائع انبعاثنا ، من المدنية الاوروبية ؟ والى اي الاسس تستند أخلاقيته ؟ وما هي مثله العليا في الحياة ؟

هناك مراحل من مراحل التطور في حياة الأمم تستوجب القـادة والمصلحين أن يكونوا شجعانا في قول الحق الى أقصى حـدود الشجاعة ، وانا أؤمن بأن المرحلة الحالية التي تمر بها أمتنا هي من هذه المراحل ، اذ أنها بداية حقبة تاريخية مـن تاريخنـا ، ولهذا فليعذرني القارىء اذا ما لمس فيما سأكتبه شيئا من قسوة على ابناء جيلنا الذين تصدوا لقيادة القومية العربية في هذه الحقبة التاريخية من تطورنا •

تلزمنا الحقيقة والحق بأن نعترف بأن معظم ابنـاء الجيل العربي الجديد هم بأخلاقهم وسلوكهم وحتى مثلهم العليـا ابناء غير شرعيـين للمدنية الاوروبية ، وهم لذلك لا يمتون بأيـة صلة او نسب الـى الحضارة العربية روحا ومنطقا وفكرا • لذلـك نرى معظمهم يقلدون تلك المدنيـة تقليدا أعمى ، ويجيء في معظم الاحيان ، تقليدهم لهـا مشوها ممسوخـا • وهم يسعون بوعي أو دون مـا وعي لان يدفعوا بالامة الى سبل هذه المدنية التي تعاني اليوم سكرات الموت والانحلال لذلك ترى بين أبناء الأمة العربية أنصارا واتباعا لجميع ما لهذه المدينة من معطيات حضارية في ميادين العلم والفن والأدب والفلسفة والمذاهب السياسية ، وقلما تجد بين ابناء هذا الجيل نصيرا لتراثـه العربي ، او داعية لحضارة عربية • حتى أنك لو وجدت مثل هذا الانسان من ابناء جيلنا ، فانـه اذا مـا ناقشك ، فانه يناقشك بمنطق اوروبي لا بمنطق عربي ، ويعالج أوضاع البلاد على أضواء الظروف الاوروبية ، لا على

أضواء الظروف العربية ، ويحاول أن يطبق الحلول ذاتها التي طبقتها الحركات السياسية الاوروبية على مجتمعاتها ، على المجتمعات العربية .
لذلك نرى أن أبناء جيلنا يعرفون كل شيء عن اوروبا وعن تاريخها وعن مذاهبها وفلسفاتها وعقائدها السياسية ويجهلون ابسط الاشياء لا بل أتفهها عما لنا من تراث حضاري ، وهم قادرون على أن يستعرضوا لك نظريات هيغل وماركس وفيختي وفلسفات « كنت » وشوبنهاور ونيتشه ، ويرتج عليهم اذا ما استفسرت منهم عن أي فيلسوف عربي أو مفكر، واذا ما شاء لك سوء الطالع أن تلفت انظارهم الى العرب وتراثهم الحضاري، فانك لا شك ستنعت بالرجعي وستوصف بالمتخلف عقلا وفكرا وتفكيرا . لذلك أمسى معظم أبناء جيلنا يشكلون اليوم جسرا تعبر عليه الالية الاوروبية الى المجتمع العربي ، وابناء هذا الجيل لا يستطيعون أبدا ان يزعموا بأنهم اعطوا الأمة العربية أي عطاء عربي نابع من ذات عربية أصيلة ، وكل ما نراه من انتاج هذا الجيل ، وفي جميع الميادين ، انما هو نقل وتقليد لمعطيات المدنية الاوروبية . ولهذا فان الجيل العربي الجديد هو ايضا جيل ينطلق في نظرته الى الحياة من النظرة المادية ، ولكن المفجع أن انطلاقته هذه بدأت في حقبة تاريخية بدأ فيها أبناء الشعوب الاوروبية أنفسهم يؤمنون بعقمها وبعبثيتها ، ويبررون تمسكهم حتى الآن بها بعقم الحياة وعبثيتها ، لهذا فان انطلاقة جيلنا الآن لا تشكل أبدا انطلاقة ، نظراً لانحلال القاعدة التي نريد أن ننطلق منها ، وأعني بهذه القاعدة ، المدنية الاوروبية ونظرتها المادية الى الحياة . لهذا فان انطلاقتنا الحالية فاقدة لزخم الانطلاق البناء الخلاق حضاريا ، نظرا لنضوب المدنية الاوروبية من طاقات الزخم البناء الخلاق .

والسبب الرئيسي الذي يجعل من ابناء الجيل العربي الجديد

امتدادا للمدينة الاوروبية ، يعود ، أولا وأخيراً ، الى أن الثقافة التي وضع لبانها هذا الجيل ، انما هي ثقافة اوروبية جملة وتفصيلا ، وقد رضعها في ظروف استعمارية حاولت سلطات الاستعمار اثناءها أن تطمس في نفسه كل اثر عربي ، لذلك فهو بدلا من أن يهضم هذه الثقافة ويتمثل الخير منها ، كان أن هضمته تلك الثقافة وأذابت معدنه وطمست في نفسه معالم كل تراث عربي أصيل متوارث . لهذا نجد الجيل الجديد يتخبط اليوم في مهاوي الانحلالية الاوروبية ويعمه في دياجير الحسية المادية ، ونداه عنيف الرغائب مجنون النزوات غارقا في لجج الشهوات ومع هذا يزعم بأنه جيل ثوري أناط به الله قيادة الانبعاث العربي الجديد . والحق أنني لا أعرف كيف يراد لانبعاثنا ان يتم ، ولأمتنا أن تعود الى ممارسة عملية الابداع الحضاري ، وكل ما لدينا اليوم وما يحيط بنا يشيع التهتك والانحلال . فمن هم القادة الروحيون الحقيقيون لهذا الجيل في ميدان الفن مثلا ؟

انهم ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، المطربة صباح وعبد الحليم حافظ وفريد الاطرش الخ ... وما هي رسالة هؤلاء الى الجيل الجديد ، هذه الرسالة التي يطرب لها هذا الجيل وينسجم معها ؟

ها كم نماذج من رسالة هؤلاء :

« مشغولة مشغولة عما سوي تبولة » .

أو

« قم لنلعب باصرة ، واللي بيغلب يا محبوب بدو يمشي بالمقلوب من البرج للناصرة » .

أو

يا عواذل فلفلوا ... نار ! نار ! نار !

اذن لا غرو اذا ما وجدنا جيلنا الجديـد يمشي « بالمقلوب » الى أهدافه القومية .

ومن هم رسله في ميدان الأدب ؟

انهم ايضا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نزار قباني احسان عبد القدوس يوسف السباعي ، ليلى بعلبكي ، غـادة السمان ، وغيرهم وغيرهن ... اللواتي جعلن من « قلة الادب » « أدبا » وجعلن من الفراش وعملية الجنس موضوعا « لتحفهم الخالدات » . وهن ما كن أبدا لينجحن لولا هذا المناخ غير المبارك فيه للانسان الذي يشيعه أبناء هذا الجيل في المجتمع العربي .

ومن هم رسله في ميدان الفلسفة ؟

لا يوجد لهذا الجيـل رسل عرب في ميدان الفلسفة ، فرسله هم اوروبيون وأبرز هؤلاء :

جون بول سارتر وألبير كامو الخ ...

ومن هم اولئك الذين يغدق عليهم مجتمعنا الاموال أجورا لهم ؟ انهم اولئك الذين يعملون في ميدان الترفيـه ، كالمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات والمهرجين والمهرجات والاجور التي يتقاضاها هؤلاء عن يوم عمل واحد تكاد تزيد عما يتقاضاه أي انسان عربي يعمل في ميدان الفكر طيلة سنة من الكدح الحقيقي ، وطبعا هـذا القول لا يشمل أدباء الجنس وأديبات الفراش .

والان ما هي الاسس الاخلاقيـة التـي يعتمدها هذا الجيل فـي الممارسة ؟ ان الاخلاق هي الممارسة والسلوك . ولا شك أن النفعية هي اليوم دستور هذا الجيل ، وأية نفعية ؟! انها النفعية بشكلها الانتهازي ، فليس هناك من قيمة موضوعية لاي شيء ، وكل الاشياء انما تخضع

اليوم لتقييم ذاتي ضيق ، لا بل بالغ الضيق، لا يكاد يتجاوز « الانا » فليس الصديق بصديق اذا لم تشده اليك رابطة من منفعة أو في أفضل الاحوال ترقب لنفع ، وليس العدو عدوا الا اذا اختلفت مصلحته الذاتية مع مصلحتك ، اما العبقري ، فهو الداهية الدهماء ، ذو الذكاء المنحرف الذي يتمكن من أن يسخرك ويسخرني لتنفيذ مقاصده وأهدافه ، لا ذاك الذي يحاول أن يجمع بين قلبي وقلبك على الحق . وهو يمارس مبدأ جمعية « الحشاشين » الهدامة ، هذا المبدأ القائل :

« يتوجب على ذي المطامح والاطماع أن لا يعني ابدا بما يعتقد الناس ذرة، ولكن عليه أن يعني كل العناية بمعرفة الوسيلة التي يستطيع بها أن يستعملهم في تنفيذ مآربه وأغراضه . »

أما الكلمات فلم تعد ابدا تعني معانيها ، فهي جزء من الوسيلة الى الغرض، وليست تعبيرا عن عاطفة انسانية أو فكرة تعتلج بها الاذهان وذلك لان النفعية الذاتية تستقطب كل شيء وتترجم كل كلمة الى ما تريد لهذه الكلمة أن تعنيه ، لا الى المعنى الذي تحمله الكلمة . فانت قد تكون اليوم خائنا اذا كان في صدرك من عناد الغباء ما يجعلك تجهر بالحق أو تعترض على من يريد أن يجعل من الباطل حقا ، ولكن سرعان ما تصبح مخلصا شريفا اذا ما تعلمت فأصبحت لين العريكة دبلوماسيا تعرف كيف تحدد مفاهيم الحق وتعرف الحقيقة . وليس هناك من أهداف نبيلة ، بل انما هناك اهداف تمسي نبيلة اذا ما عادت عليك بالخيرات والنعم والبركات ، وليس هناك من فاضل وغير فاضل ، فالفاضل هو من يكون درجة من سلمك الى آمالك ، وغير الفاضل هو من يريد أن يأخذ السلم من تحتك ليصعد هو عليه ويجعلك درجة منه . أما العقائد فهي المطية ، وهي صالحة ان اوصلتك الى غايتك، أما اذا لم توصلك فعليك ان تستبدلها بمطية غيرها ، والذكي الاريب

هو الذي يعرف كيف يعد لكل ظرف وحال مطية تناسبهما .

أما النقاش، أو الحوار،فيجب ألا يستهدف أبدا الوصول الى الحق ومعرفة الحقيقة ، فانت اذا ما أردت النجاح فعليك في هذه الحال ، أن تكون ذا ذكاء لماح يمكنك من أن تلمح كل دليل وبرهان يؤكد نظرية الاقوى ، أو بالاحرى مصلحة الاقوى ، والاقوى عندئذ سيجزل لك المكافأة فيسمح لك بأن تأكل على مائدته ، أو أن تأكل الفتات المتساقط منها . واياك ثم اياك الانتقاد ، حتى ولو كان انتقادك نابعا من محبتك أو غيرتك ، فالانتقاد لا يصلح بل انما يجرح ، وستكون انت أول الخاسرين في هذه الحال ، والمدح أسهل سبيلا وأسلم عاقبة لتحقيق غايتك . واذا ما رأيت معركة تدور بين فئتين من الناس ، وتدور كما يشيعون ويذيعون حول عقائد أو مذاهب ، فلا تصدق هذا الامر ، فان هذه المعركة انما تدور حول الاستئثار بالسلطة والانفراد بالسلطان ، اما موقفك منها فيجب أن يكون التريث أولا لتعرف أية فئة هي الاقوى ، وعندما تكتشفها فعندئذ عليك أن تلقي بكل ثقلك الى جانبها ، فالقوة هي وحدها التي تترجم الحق وتفسره . وعليك أيضا أن تكون بارعا في التمثيل ، فتبكي مع الباكين ، وتفرح مع الفرحين ، ففي الحال الاولى يجب أن يكون بكاؤك نحيبا وعويلا ، وفي الثانية عاصفا مجنونا ، ولا مانع أبدا ، عندما تخرج من مجلسيهما، وتغلق عليك باب مخدعك ، ان تشتم هؤلاء وتلعن اولئك ، ففرحك أو بكاؤك انما استوجبته ضرورة مصلحية .

واذا ما أحسن اليك القدر فرفعك الى مناهل القوة ، ووضع بين يديك بعض اسبابها ، فعليك ان تستجمع كل اسبابها ومتى توفرت لك هذه الاسباب ، أضرب ضربتك وسترتفع الى السلطة وعرش السلطان.واياك أن تكون غبيا أحمق،فتعتقد بأن ليمين الولاء للدستور

والقوانين أية ملزمات أخلاقية أو أدبية ، فولاؤك يجب أن يكون أولا وأخيرا لنفسك ، وعندما تملك السلطة لن تجد من يسألك عن حنثك بيمينك ، فالمنتصر لا يسأل ، بل على العكس من ذلك تماما ، ستجد المئات لا بل الالاف الذين سيتطوعون ليفلسفوا لك عملك هذا ، وليشترعوا له قوانين أخلاقية ، وليقيموا صلة وثقى بينه وبين حتمية التاريخ ، فليس ارخص من الكلمة الا المداد والورق .

واذا ما ألقت السلطة بمقاليدها اليك ، فيجب أن يكون دستورك الوحيد نابعا من ارادتك وعزمك على المحافظة على بقائك فيها ، وكل عمل تأتيه أو اجراء تتخذه يجب أن يكون مستوحى من هذه الارادة ، ارادة بقائك سلطانا ، وبامكانك ان تبرر اجراءاتك هذه باسم « الامة » كلمة ضبابية غامضة ، لا بل هيولية متيافيزيكية تستعصي على مفهوم الفرد وأحاسيسه ، وتجعله لا يدرك لها معنى الا من خلال وجودك وعلى أضواء سلطتك ، وبهذا يقتنع الفرد فلسفيا بأن الحاكم قد يوجد دون أن يكون بحاجة الى أمة ، ولكن الامة لا يكتمل وجودها الا بوجود الحاكم من أمثالك ، لان وجودك هو سابق لوجودها وشرط لوجودها؟ نعم هذه هي بعض قواعد الاخلاقية التي يسير وفقها الجيل العربي الجديد الذي يتصدى اليوم لقيادة انبعاثنا والسير بمواكب أمتنا الى ذرى الحضارة والعطاء ؟!! ولكن ما هي المثل العليا التي تحرك هذا الجيل وتستحثه على « الجهاد » والعمل ؟

انها ولا شك المادة بشكليها : المالي ، أجامدا كان أم سائلا ، والسياسي حكما وسلطانا ووظيفة . في هذين الامرين تجتمع اليوم كل ما لجيلنا من مثل عليا وقيم . وجيلنا مستعد لان يلجأ الى كل وسيلة غير عابىء بأية قاعدة أخلاقية لتحقيق أي من الغرضين الآنفي الذكر فالاستحواز على المال يبرر كل عمل ، ونشوة حيازته تخنق كل

تأنيب ضمير ، والاستحواز على السلطان يبرر كل وسيلة ، وممارسته لا تترك مجالا للضمير كي يسأل أو يتساءل ، وهو ، أي الضمير ، عاجز عن السوءال او التساؤل ، فالمستحوز على السلطة ، كان حتى قبل الوصول الى السلطة بمراحل ومراحل ، قد اقتلع لسان ضميره وخلع أسنانه ، فأمسى ضميره أخرس غير عضوض •

هذا هو واقع جيلنا، وهذه هي حقيقته ، اذن ما العمل ؟ كلنا يعرف ان اشد الازمات التي يعانيها اليوم جيلنا هي الازمة الاخلاقية • وليست هذه الازمة ناشئة عن الصراع بين النظرية « الثورية » وبين النظرية « المحافظة » • بل ان هذه الازمة (الاخلاقية) ناشئة عن كوننا ، نحن معشر أبناء هذا الجيل ، قد اقتلعنا كل جذر يشدنا الى ماضينا الحضاري وانكرنا على هذا الماضي كل قيمة وفضيلة ثم أردنا أن نبدع لنا فلسفة في الحياة ، وارغمتنا ثقافتنا الاوروبية على أن نفتش عن أسس هذه الفلسفة في العقلانية المادية الاوروبية المعاصرة ، ويشاء سوء حظنا أن تكون هذه العقلانية تمر اليوم في حقبة شيخوختها ومرحلة انحلالها ، لذلك فهي عاقر وعقيم ، لا بالنسبة الينا فقط ، بل بالنسبة لشعوبها ايضا ، زد على ذلك الاختلاف الجوهري بين السيكولوجية الاوربية والسيكولوجية العربية ، لهذا ترانا ندور اليوم في حلقة مفرغة ، حلقة تبدأ بانكارنا لقواعد حضارتنا الماضية وتنتهي بعجز العقلانية المادية عن تزويدنا بقواعد انطلاق نطمئن اليها ضميريا ومن ثم عقليا ، وتهبنا الايمان لا القناعة ، فالايمان هو وحده الذي يميز الحقبات الخلاقة من غيرها من الحقبات التاريخية العادية ، وهو الذي يصنع المعجزات التي تستغرق العقل قرونا وقرونا من الزمن كي يدرك انجازها ، وهو المولد لكل زخم وأساس كل حيوية ومنبع كل الاديان والرسالات والمذاهب لذلك كان الايمان وقفا على الانبياء

والرسل والابطال ، لانه هو وحده المعطاء الولود ، وليس للايمان عقل أو منطق ، لانه فوق الحواس والحسية ، وهو لذلك لا يناقش قواعد عطائه ، ولا يحاول أن يسندها الى مبدأ العلة والمعلول ، أساس العقلانية ، لانه يتنافى ومبدأ العلة والمعلول ويتعارض والعقلانية ، أما القناعة فهي ابنة مبدأ العلة والمعلول، ابنة العقلانية التي تستهلك حماس الروح وجيشانها في التفتيش عن الاسباب وتتائجها ، عن العلل والمعاليل، لهذا كانت جميع الانجازات الحضارية العظمى موقوفة على المؤمنين لا القانعين ، وجميعنا يعرف أن الحضارات لا تنطلق من القناعة ، بل انما تنطلق من ضد القناعة ، تنطلق من الايمان المنافي لكل قناعة والمتعارض وكل منطق وعقل ، اذ أن الحضارة هي الثورة على القناعة بما هو قائم ، وعلى المنطق الذي يسند ما هو قائم ، لذلك كان وسيبقى الايمان جنونا في نظر القناعة ووفقا لقواعدها ، لكنه جنون المبدع الخلاق ، جنون الايمان على القناعة ، جنون الايمان المستهدف خلق قناعة لا تنبع من حس أو عقل بل انما تتدفق هادرة من روح لا تعطي بغية تحقيق مغنم أو مكسب ، بل انما تهب لانها لا تستشعر ذاتها ولا تمارس وجودها الا من خلال العطاء الوهاب •

ولكن على ماذا استحصلنا حتى اليوم ؟

ان المدنية العقلانية الاوروبية لم تستطع أن تمدنا بالايمان وعجزت عن تزويدنا حتى بالقناعة ، لذلك ترانا ، نحن معشر ابناء الجيل الجديد نعاني أزمة اخلاقية تتفجر حقدا ومرارة وانكارية عنيفة مروعة بلغت بنا تخوم العدمية وتجاوزتها ، وجعلت الجماهير العربية تقف منا حذرة متوجسة مرتابة وقلقة حائرة حتى الضياع ، ترى الاحداث ولكنها لا تشارك ابدا في صنعها أو توجيهها • وتدفع بنا كبرياؤنا الغبية الى تبرير سلبية الجماهير منا ومن حركاتنا وشعاراتنا ، الى نعت الجماهير

باللاوعي وبقصور الادراك والفهم للاحداث « التاريخية » • لذلك ترى بعض الفئات منا تحاول ان تنصب من ذواتها اوصياء على الامة وعلى الجماهير ، وبهذا تتعالى « جهلا » عن الامة والجماهير ، فتقطع الروابط التي تشدهـــا الى الامة والجماهير ، وتعيش في عزلة فارغة موحشة باردة فتخمد حيويتهـا وأخيرا تذوي وتموت • وموتها هـذا رحمة من القدر ونعمة من الله ودلالة على أن الامة بدأت تتلمس طريقها الى الوجود الخلاق •

علينا ان نعترف بان السبب الاساسي الكامن وراء سلبية الجماهير منا لا يعود ابدا، وفي كل الاحوال والحالات، الى عجزالامة بجماهيرها عن الفهم والادراك للاحداث • فاللامة حس سليم وللجماهير منطق ينبع من وجدان الفرد ، لذلك فالجماهير هي الظاهرة الوجدانية للفردية ، وهذه الظاهرة لا تخطىء أبدا ، اذ انها الهام ووحي ، ولكن السبب هو أن طلائع جيلنا لا تزال حتى الآن تجتر العقلانية المادية الاوروبية ، ولم تستطع أن تبتلع هذه العقلانية وتهضمها ولا تريد أن تبصقها وتتقيأ ما ابتلعته منها ، ولهذا فهي تعاني تلبكا وجدانيا عنيفا يتمثل في الازمـة الاخلاقية التي تعانيها اليوم ، هذه الازمة التي أبقتها حتى لحظة كتابة هذه السطور ، عاجزة عن تفجير طاقات الايمان في نفس الامة • ولاغرو في ذلك فنحن لا نزال نخاطب الامة بلغة لا تفهمها ونرفع لها شعارات لا تستثير حماسها ، لان لهذه الشعارات ابعادا محدودة سرعان مـــا يتجاوزها الوجد الروحي في الانسان العربي فتبدو في ناظريه تفاهـة وعبثا لا يستحقان ابدا أي جهد او جهاد وهذا هـو السبب الاساسي الكامن وراء سلبية الامة من حركاتنا وشعاراتنا نحن معشر أبناء الجيل الجديد ، فالامة العربية أمة تحن حنينا شديدا الى المطلق ، وهذا الحنين هو وحده الذي كان القوة الضخمة التي جعلت أجدادنـا يتجاوزون

وحدتي المسافة والزمن في فتوحاتهم الصاعقة في سرعتها . لذلك فان التركيز على المادية في الحقبة الانبعاثية لا يستثير حماس الامة العربية بل انما يثبط من عزائمها ، وخير دليل على ذلك الدولة العربية عندما انتقلت من يدي عمر بن الخطاب الى أيدي الامويين وخاصة العباسيين من بعدهم .

اننا نريد لأمتنا ان تعود وترجع الى ايمان تلك الامة التي وصفها المقوقس وهي تقرع أبواب مصر :

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لاحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ... جلوسهم على التراب ، أميرهم كواحد منهم ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد » .

أمة وصفها أحد قادة جيش خالد مهددا مترفعا اذ قال :

« ... لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . »

وهؤلاء القوم الذين وصفهم رسل المقوقس وعناهم خالد لم يكن حبهم للموت صادرا عن اليأس من الحياة ، فالعرب هم الامة التي تعتبر الموت افجع التحديات الكونية للانسان ، ولكنهم كانوا يندفعون على سبل الموت تحديا للموت نفسه وعزما منهم على ايجاد حياة لا يجري تقييمها بوسائل حياة كسرى أو قيصر واسبابها ، ولا تعتمد المادية بكل اشكالها الحسية اساسا لهذا التقييم وميزانا له ، انما ترى في تكريس المادية انكارا للحياة الروحية التي تطلبها وتصبو اليها ، هذه الحياة المتمثلة بحنين الانسان الهادف الى تحقيق كينونة خالدة غير محدودة بزمان او مكان ، كينونة لا تبدأ بالمهد ولا تنتهي باللحد ، وهذا هو سر حماس الجماهير العربية آنذاك وسر انطلاقاتها الجبارة الصاعقة التي لا تزال حتى هذا اليوم مصدرا لذهول المؤرخين ومثارا لدهشة

علماء الاجتماع والسياسة لذلك كله يتوجب علينا نحن ابناء هذا الجيل أن لا نتهم الجماهير باللاوعي اذا ما وقفت من حركاتنا وشعاراتنا موقفا سلبيا ، فجماهيرنا لا شك هي اليوم ، من جهة الوعي ، أفضل حالا من تلك الجماهير التي استثار حماسها النبي محمد ، وأوسع ادراكا من تلك العشائر والافخاذ والقبائل المتنافرة المتخاصمة التي ألف بين قلوبها الاسلام ودفع بها ابو بكر وعمر الى أقاصي الارض ، بل انما يتوجب علينا أن نقرر باننا نحن أنفسنا ، معشر ابناء هذا الجيل ، هم السلبيون من الجماهير ومن الامة ، اذ اننا لم نعرف حتى الآن اللغة التي يجب أن نخاطب الجماهير بها ، والتي تفهمها الجماهير ويقتنع بها وجدانها وضميرها ، ولم نكتشف بعد مفتاح خزائن تلك الطاقات الهائلة الجبارة في صدور الامة ، كي نطلقها في ميادين الهداية والبناء . وانني لواثق ، لا بل لعميق الايمان بأن المادية الاوروبية لن ترشدنا الى ذلك المفتاح ، كما وأن العقلانية لن تحرر تلك الطاقات من قماقمها ، فلنعد اذن الى الايمان بالله، لانه أصل الايمان بكل قيمة ومثل في هذا الوجود

الفصل السادس

مرحلة الثورات

— ١ —

ما هي الثورة ؟

الثورة هي انفجار اجتماعي ينسف نظاما كاملا بجميع ما يدعمه من أحزاب وهيئات سياسية ، ومؤسسات اقتصادية ، وقيم وتقاليد واعراف وذلك لعجز ذاك النظام — او بالاحرى عجز القائمين عليه عن التطور فالتبدل لملاقاة وتنظيم فاشباع الحاجات الروحية والمادية لاكثرية شعبية تعي ذاتها وتعزم على ممارسة وجودها كقوة انسانية فاعلة في وطنها وقومها ومن ثم في العالم والحضارة الانسانية .

وتهب عواصف الثورة وتندلع نيرانها نتيجة لاختمار طويل لعوامل اقتصادية فاجتماعية فسياسية ، وتغذي هذه العوامل الرغبة الازلية الابدية ، (غريزة المحافظة على البقاء) ، في نفس الانسان في التطور والتقدم ، وهذه العوامل الآنفة الذكر تخلف مشاكل جديدة تطلب ، وبالحاح حلولا لها . فاذا كان النظام القائم غريبا على القضايا المستجدة، او بالاحرى عاجزا عن تقديم الحلول لها ، واذا كان أول حل جوهري لتلك القضايا هو زوال النظام القائم بالذات ، وذلك نظرا لتحجره

وافتقاره للمرونة ، او بالاحرى تجاوزه نقطة مرونته ، فعندئذ تتطور الرغبة في الاصلاح والتقدم فتصبح ارادة عامة تنفذ فعلا جماهيريا يكتسح النظام القائم ويدمر مؤسساته ويقتلع جذوره التي كانت قد ضربت فيما مضى عميقا في تربة المجتمع .

وهناك اربعة أنواع من الثورة

١ ـ ثورة النظام القائم على نفسه .

٢ ـ ثورة يطبعها قائد او زعيم او حزب بطابعه

٣ ـ ثورة لا قائد لها ولا زعيم

٤ ـ الثورة السلبية او الهدامة

وسننطلق هنا لتعريف هذه الانواع الاربعة من الثورة والاستشهاد عليها بأمثلة تاريخية حية .

في النوع الاول :

ان هذا النوع من الثورة لا يستلزم اطلاقا تغيير شكل النظام القائم سواء كان ملكيا او جمهوريا او رئاسيا . وذلك لان المهم المهم في الثورة لا يتمثل في تبديل الشكل السياسي ، بل في تبديل الشكل الاجتماعي ، او بالاحرى شكل المجتمع ، تبديلا جذريا وتغيير ملامحه تغييرا جوهريا .

وهذا النوع من الثورة هو أسلم انواعها بالنسبة للشعب او الامة، وهو أشرفها بالنسبة للحاكم والحكام . فهو أسلم انواعها لان الثورة تحدث دون ان يشعر بها الفرد العادي من الناس ، ودون ان تستلزم اراقة دماء ، وبدون كل ما يرافق الثورة من ظاهرات عنف واجراءات قاسية شديدة ، وهو قريب الشبه بالتطور ، بالنمو ، لكنه يكون ، في الواقع ، ثورة ، وثورة بكل ما لهذه الكلمة من فحوى ومفهوم ، اذ انه

عبور فعلي من مجتمع قديم الى مجتمع جديد ، واطراح واقعي لتقاليد واعراف بالية ، وأخذ بتقاليد واعراف مستجدة جديدة. ويكون هـذا النوع من الثورة نموا عضويا تمثل وهضم أفضل تمثل واسلم هضم جميع العناصر الحياتيـــة التي دخلت عــلى المجتمع ، وألقى الثقـل والفضلات ، دون ان يحتاج الى اية عملية جراحية ، ودون ان يضطر للتقيؤ بسبب عسر الهضم .

وهو أشرفها بالنسبة للحاكم او الحكام ، اذ انه يكون اسطع دليل على تساميهم فوق الانانيات والمصالح الشخصية او الطبقية ، وعلـى مرونتهم وقابليتهم للنمو والتطور ، وعلى قدرتهم على استباق الحوادث، وتجنيب المجتمع الهزات والرجات . أضف الى ذلك ان الشعب او الامة اذا من الله عليها بحكام قادرين علـى الثورة علـى انفسهم ، وعلـى الاستجابة ايجابيا للتحديات الاجتماعية ، فعندئذ ستتجنب الامة العديد من المزالق والكثير من العثرات والاخطاء في الحكم والادارة ، وذلك بسبب الخبرة والمران الطويلين اللذين اكتسبهما الحكام الثائرون على نفوسهم ومجتمعهم خلال الفترة او الفترات التي سبقت حدوث هـذا النوع من الثورة .

والآن لننتقل الى ضرب الامثلة الحية على هذا النوع من الثورة :

ان اسطع الامثلة واحدثها وأقربها الينا ، هو حـادث يحدث الان في المملكة العربية السعودية . فتنحي الملك سعود عن السلطة لاخيه الملك فيصل هو فعلا وواقعا ثورة ، اذ ان هذا الامر يعني اولا وأخيرا انتقال المملكة العربية السعودية نهائيا من المجتمع العشائري الى المجتمع المدني المتحضر ، واخذها بجميع وسائل واسبـاب الحكـم والادارة الحديثين ، والانطلاق الى بناء دولة حديثـة .

انه يعني فعلا وواقعا انتهاء مرحلة التأسيس ، التي بدأت بالمغفور له الملك عبد العزيز ، وبداية مرحلة البناء ، اذ ان حكم الملك سعود كان يمثل المرحلة الانتقالية او بالاحرى المرحلة التحضيرية لهذا العبور الذي تمثل في الملك فيصل .

والحق انه لمما يثلج الصدر ان يكون هذا النوع من الثورة قد حدث وتم دون ان يؤثر اقل تأثير في الاخلاق والاخلاقية الوضعية العربيتين مظهرا وجوهرا ، واللتين تدينان بهما السعودية نظاما وشعبا ومجتمعا . فبمقدوري القول بأن السعودية بالرغم من انتقالها الهادىء الرصين هذا من المجتمع العشائري الى المجتمع المتحضر ، استطاعت ان تنقل الى المجتمع الجديد ، جميع فضائل المجتمع القديم ، الا وهي الديموقراطية المباشرة والنخوة والاباء والشرف .

أما الامثلة الغربية على هذا النوع من الثورة فتتمثل في البلدان الاسكندنافية وفي بريطانيا والاحزاب التي تدين بالاشتراكية التطورية والتي حكمت او تحكم في بعض اقطار العالم ، وفي بطرس الاكبر .

النوع الثاني :

ويحدث هذا النوع من الثورة في البلدان التي لا يتمتع حكامها بالمزايا التي يتمتع بها حكام بلدان النوع الاول ، وهنا يحطم النمو القيود ، ويهدم السدود ، ويطوح بالنظام القائم ، نظرا لان النظام لم يستطع ان يتكيف او بالاحرى يتهيأ العناصر الحياتية النامية ويتمثلها .

وهذا النوع من الثورة يمثل الثورة التي تعي اهدافها ، ولذلك تكون مضمونة من الانتكاسات والردات ، اذ ان الزعيم او الحزب ،

يكون اثناء فترة الاختمار وتنامي الارادة للثورة قد حضر المفاهيم والبرامج التي تتحكم بدفة سفينة الثورة وذلك كي يجنب السفينة عواصف التطرف والفوضى والعدمية ، وكي يسير السفينة وفقا للخط المرسوم لسيرها دون ما انحراف ، حتى تصل الثورة الى مقاصدها آمنة سالمة ، وبأقل مقدار من الخسائر التي لا مندوحة عن تكبدها في حال نشوب الثورة الهادمة البانية .

ومن ابرز حسنات هذا النوع من الثورة، كون منطق الثورة هو الذي يفرض نفسه على الجماهير ولا يسمح ابدا للجماهير بالشذوذ عن قواعده ومراميه ، اذ ان هذا المنطق المنطلق من ايدولوجيا واضحة ، يلجم رغائب الجماهير بلجام فولاذي ويسعى جاهدا لترويض نزوات الجمهور ، ويكافح ، في الوقت ذاته ، من اجل ابقاء جذوة ارادة الشعب العامة في التقدم والبناء متقدة متأججة ، وذلك بغية ضرب الردة والانتهازية والفوضى ومن ثم الانطلاق الى البناء .

زد على ذلك ان هذا النوع من الثورة يكون حركة ديناميكية خلاقة ، وقوة هائلة تجر الجماهير وراءها وتمارس قيادتها ولا تنزل ابدا الى منطق الجمهور ، بل ترتفع بالجمهور الى مستوى منطقها ، كما وانها لا تقبل ابدا بان تسلم زمام القيادة للجماهير مهما كانت الاسباب او المصاعب، التي تكتنف طريقها ، وذلك كله خشية التضليل فالانحراف، اذ ان هذا النوع من الثورة يؤمن بأن القائد او القيادة هي بمثابة روح الثورة والمنبع الوحيد الذي يغذي جميع روافدها ، وان التنازل عن دور القيادة هو بمثابة خنق مجرم لروح الثورة وتسليم بالفوضى واستسلام للردة .

ويمثل هذا النوع من الثورة زواجا موفقا وسعيدا تعقده القيادة بين ايدولوجيا مكتملة ناضجة ورغبة شعبية عميقة في تبديل نظام

استنزف اغراضه ، وأتى على مقومات وجوده ، فاضطرت الحياة لتغييره بواسطة الثورة • ويكون نصيب هذا النوع من الثورة النصر الأكيد لانه يعرف اين يقصد وماذا يريد •

ويتصدى لقيادة هذا النوع من الثورة أعقل ابناء الأمة وأوسعهم علما بجميع أمورها من سياسية واقتصادية واجتماعية ، وأعمقهم معرفة بالممكن وبالمستحيل ، بالضروري والواجب ، وبما لا ضرورة له ولا مستلزم ، وأوسعهم خبرة بما في الماضي من صالح وبما فيه من طالح ، وبما يجب ان يبقى وبما يجب ان يزول ويبيد ، ومثل هؤلاء لا يكونون ابدا هواة ثورة ، يثورون حبا بالثورة فقط ، وذلك لان الثورة عملية جراحية كبرى وخطيرة ، والانسان العاقل لا يقدم على اجراء هذه العملية الا اذا كان لا مندوحة من اجرائها •

والان لننتقل الى ضرب الامثلة على هذا النوع من الثورة • ان اسطع الأمثلة وأقربها الينا هي ثورة جمال عبد الناصر في مصر ، هذه الثورة المعروفة بثورة ٢٣ يوليو •

انني مع اختلافي في كثير من وجهات النظر وجمال عبد الناصر في نظرته العربية في ممارسة الثورة ، غير انه يتوجب علي ان أقر واعترف وبدون تحفظ ان ثورة ٢٣ يوليو هي افضل الامثلة الناجحة على هذا النوع من الثورة ، ولا سيما اذا حصرنا تطبيق هذا المثال على مصر ومصر وحدها فقط فلقد كان المجتمع العربي المصري بأمس الحاجة الى هذه العملية ، وقد استطاع عبد الناصر ان يجريها له ، وان ينقذه من نظام متحجر فقد كل جدارته بالحياة • ومع ان ثورة ٢٣ يوليو ولدت من أحشاء الثكنات العسكرية وسلكت طريق التجربة والخطأ ، واستهلكت نسبيا طويل زمن لتبديل ملامح المجتمع العربي المصري الاجتماعية ، أقول الاجتماعية لا المذهبية ، غير ان حاجة مصر الماسة

اليها قد حولتها الى ثورة شعبية ، وذلك في مصر فقط ، وأزالت عنها الطابع العسكري ، ومهرتها بالطابع الشعبي العربي المصري ، ومنعتها من التخلي عن الدور القيادي للجماهير عندما نشب الخلاف واستعصى بين عبد الناصر وعلي ماهر اولا ومن ثم بين عبد الناصر ومحمد نجيب ثانيا ، وأخيرا بين عبد الناصر والاخوان المسلمين ثالثا • وعلى كل حال فسأحاول القاء المزيد من الضوء على هذه الثورة في مبحث تال في هذا الكتاب •

وهناك مثال اوروبي على هذا النوع من الثورة ألا وهو ثورة اكتوبر الشيوعية التي نشبت في روسيا • فلولا وجود لينين ولولا وجود هيئة منظمة تعي اهدافها وتعرف بكل دقة اغراضها ومقاصدها ، لأصاب الثورة الروسية ما أصاب الثورة الفرنسية من ردة وانتكاس ، لذلك فان الثورة الشيوعية الروسية هي ثورة لينينة اكثر من كونها ثورة ماركسية ، ولينين نفسه يقر بهذا ويعترف اذ يقول :

« اننا لا نعتبر الماركسية أمرا كاملا منزها ، بل على العكس من ذلك ، اذ انها ليست سوى حجر الزاوية في ذلك العلم الاجتماعي الذي يتوجب على الاشتراكيين ان يكيفوه في كل اتجاه ، حتى لا يتخلفوا عن مسيرة الحياة ، واعتقد بأن واجب الاشتراكيين الروس بوجه خاص، ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة لانها نظرية عامة ، يمكن ان تطبق في انكلترا مثلا بطريقة تختلف عنها في فرنسا ، وتختلف في فرنسا عنها في المانيا ، وفي المانيا عنها في روسيا » •

ومن قول لينين هذا يتضح ان الظروف لا تخضع للانظمة ، بل انه يتوجب على الانظمة ان تخضع للظروف • وان البلد قد يلتقي مع آخر في نظرة عامة ، لكن من الغباء لا بل من الرعونة والطيش ان يعتمد ما نجح في ذاك البلد من وسائل وأساليب ، فيطبقها على نفسه بالرغم

من اختلاف ظروفه وأوضاعه وظروف ذاك البلد • أما اذا ما أصر مثل هذا البلد على تطبيقها على نفسه ، باعتبار ان تلك الوسائل والاساليب قد نجحت في بلد غيره، فانه يكون بذلك يضرب عرض الحائط بطبيعة الاشياء ، في معظم الاحيان لا بل في جميعها ينتهي البلد وابناؤه الى كارثة من هول فظيع مروع •

النوع الثالث :

وتكون اسباب هذا النوع من الثورة اسباب النوعين الاولين ذاتها ، غير ان نتائج هذا النوع من الثورة تكون غير مأمونة ، وعواقبها خطرة وغير مضمونة وهذه العواقب خطرة على أهداف الثورة وعلى الثورة وعلى الامة بالذات ، وذلك لان افتقار ثورة من هذا النوع الى قيادة واعية يجعلها بالتالي مفتقرة الى ايدلوجيا مكتملة ناضجة وواضحة ومحدودة الهدف ومعروفة المقاصد ، وهذا الامر مما يسلم الثورة بكل ما تملكه من طاقة هائلة وجبروت وزخم واندفاع الى رغائب شعبية غامضة ، ومنطق فج بعيد كل البعد عن الدراسة والعبرة والخبرة ، وهنا تأخذ الثورة بالتخبط خبط عشواء ، ويأخذ خط سيرها بالتذبذب والتأرجح ، آنا ينحرف بها نحو اقصى اليسار ، وحينا يجرفها الى اقصى اليمين ، يوما تبتدع قيما تقدسها وتنزلها منزلة العبادة ، وآخر تثور على القيم التي ابتدعتها فتحطمها وتدوسها كما داست على سابق قيم كانت قد هدمتها مع النظام المهدوم •

أما الزعماء الذين ترتجلهم ثورة كهذه ، فانهم قلما يكونون زعماء ينسجمون وروح مستلزمات الثورة التي التهبت ارادة بين جوانح الشعب او الأمة ، وأتت على نظام كان حتى نشوبها يبدو ثابت البنيان مرهوب الجانب • ومثل هؤلاء « الزعماء » الذين ترتجلهم الثورة لا

يملكون من الزعامة سوى مظهرها ، وهم رغبة منهم في الاحتفاظ بمظهر الزعامة ، تراهم يركضون لاهثين وراء الجماهير ، وبدلا من ان يفعلوا في عواطف الجماهير ويروضوها ، تراهم ينفعلون وعواطفها ، ونزواتها ، أما أبرز صفات هؤلاء الزعماء فهو الجبن والاستسلام لرغائب الجماهير ونزواتها ، والاندفاع في المزايدات والمناقصات ، والانحدار الى صيرورتهم قرودا ، او اذا صدق داروين ، الى عودتهم للأخذ بفضائل جدهم « القرد » من اوران اوتان او غيره ، لذلك تراهم يقلدون حبا بالتقليد فقط ، ويحاكون حبا بمجرد المحاكاة ، فحينا تسمعهم يزاودون على من يزاود ، وتارة تراهم يناقصون على من يناقص ، وذلك كله دون ما دافع او سبب يستلزم ذلك . وهنا تنزل غشاوة الغضب والحقد والموجدة بعيني الثورة فتعميها ، فتمتد يداها ، دون ما رادع فتهدم الصالح كما هدمت الطالح ، وتحاول حتى خنق الحياة ، والحيلولة دون كل نمو ونماء ، وهكذا تتحول الثورة من حيث كونها حركة أريد بها الهدم فالبناء ، الى صيرورتها حركة هدامة ، واتجاها انكاريا ينكر ما هو كائن ، ويتنكر لما يجب ان يكون .

وان احسن مثال على هذا النوع من الثورة يتمثل في الثورة الفرنسية ، فالثورة الفرنسية دليل مخيف هائل ومحزن على نتائج ثورة قامت دون قائد ونشبت وهي تفتقر الى زعامة واعية رشيدة تحتضنها منذ الولادة حتى الاكتمال . لذلك فان الشعب الفرنسي عندما هدم الباستيل وألغى امتيازات الكنيسة والارستقراطية وقطع عنق الملك ، اعتقد بأن الثورة قد حققت اهدافها . وهكذا انتهت تلك الثورة لتحمل الى عرش الامبراطورية دكتاتورية عسكرية طاغية داست « بالجزمة » على المبادىء الاساسية للثورة الفرنسية وقوضت مثلها العليا ، ومزقت شرعة حقوق الانسان اربا اربا وأخيرا أختتمت الملهاة بعودة آل بوربون .

النوع الرابع ــ الثورة السلبية او الهدامة ــ

ان هذا النوع من الثورة هو أحط انواعها وأغباها وأشدها رعونة وطيشا وسفاهة • وليس لهذا النوع من زعماء او اشباه زعماء ، بل ان له قرودا يتصدون للزعامة ، واغرارا يتصدون للتوجيه والارشاد ، وفجارا يتمشدقون بالفضائل وجهلة يعمهون في متاهات الشعارات والتعاميم والمذاهب والعلوم والفلسفات وان قرود هذا النوع من الثورة او « زعماءه » ، يريدون لا بل يصرون على اجراء عملية جراحية كبرى وخطرة لمجتمع سليم البنية متعاف ونشيط ، تنبض عروقه بالحيوية وتتورد وجنتاه بالصحة والعافية ، وليس هناك من حاجز او عائق في طريق نموه وسبيل تقدمه وازدهاره ، له من الامكانيات الظاهرة والدفينة ومن عنفوان المبادرة من فردية وجماعية ما يجعل كل عمل من شأنه اعاقة سبيله ثورة على زخم الحياة وتعطيلا لنموها وتكاملها • اذ ان هذا النوع من الثورة هو هدم فقط ، وتدمير وتبديد لطاقات وجهود ومجهودات انشائية بناءة ، اذ ان المجتمع يكون آنذاك لا يحتاج اطلاقا الى ثورة ، ويكون الاستقرار ، او النمو الصامت ، (وكل نمو يكون صامتا ، لا ضجيج له ولا صخب) ، هو حاجته الماسة الوحيدة • لكن قرود هذا النوع من الثورة او هواة الثورة حبا بالثورة كغاية مطلقة في ذاتها ، لا كمجرد وسيلة ، يكونون مفتونين بالثورة فقط حبا « بسواد عيونها » او « حمرتها » ، وهكذا فانك ترى في هذا النوع من الثورة المجانين المسعورين وقد افلتوا من مشافي الامراض العقلية ونصبوا انفسهم حكاما للدولة ومشرعين للامة وموجهين للمجتمع ، ومن ثم ساقوا الأمة الى حيث كانوا هم من قبل ، وجعلوا من ذواتهم اطباءها وجراحيها، فترى أحدهم يحاول مداواة الساق بالبلطة وغيره يحاول تطبيب العين بالمعول او بالهراوة ، وآخر يسعى لعلاج بثرة

في الرقبة بالمنشار «والقدوم» وسكين الجزار • وهكذا تراهم يقطعون اوصال الامــــة ويحزون رقبتها ، ويتخاصمون ويتنازعون واحيانـا يتضاربون وهم يقومون بهذه العملية « الناجحة » ،وهــذا هو سبب الذهول والوجوم اللذين تراهما مرتسمين بوضوح على كل ملمح من ملامح كل فرد من شعب او أمة يبتليها الله بهــذا النــوع من الثورة وبهؤلاء القرود الثوار ، وتراه يصابر على جنونهـم يشقى ويتألم الألم المبرح المخرس لكل آهة وأنين •

ويكون قرود هــذا النوع من الثورة انتهازيـين مغرقـين في الانتهازية ، وطغمة شريرة من شبه بشر لا اخــلاق لهم ولا ضمير ولا زمام ولا وفاء ولا وجدان ، وكواسر جنت فيها غريزة المحافظة علـى البقاء • ويرافق هذا النوع من الثورة انحطـاط مروع وفظيع وغـير مألوف حتى في احط النماذج البشرية ، انه انحطـاط فـي الضمـائر والاخلاق ، وهكذا نرى الفساد وقـــد عم ، والرذائل وقد استشرت والذمم وقد خربت ، والكفاءات قد أعدمت ، والمشانق للعقــلاء وقد نصبت ، والاحرار وقد شردوا ، والرغيف او المنصب او الحماية وقــد امست الهدف الرئيسي والنهائي والغــائي لادنيـاء النفوس ، وترى الجاسوسية وقد غدت الجهاز الرئيسي في الدولة ، والكبت قد جلبب بغيومه الداكنة الكثيفة نفوس البشر ، وترى الانسان ساهما ، وهكذا مذهولا حتى انه لا يستطيع ان يفغر فــاه دهشة او ذهــولا ، وترى حيوية الأمة وقد تعطلت وجمدت ، والخوف او الارهاب وقــد شل الفكر ، والرشاوى ، من معنوية ومادية ، وقد ردمت منابع الوجدان ، والمادية البشعة وقد سيطرت على كل قيمة ومثل ، والاباء وقــد نحر على مذبح الشهوة ، والحقيقة وقد ذبحت على اعتاب الدجل والزلفى ، وزبدة القول ، انك ترى بلدا بائسا يائسا تعيسا شقيا تعصف بــه

عواصف من جنون مطبق وغير مألوف حتى في ذئب او كلب مسعور ، وتتحقق بام عينك من ان الجنون البشري هو أخطر انواع الجنون اذ انه يتلفع بثياب العقل ويتسلح بناب الغريزة • وان جنونا كهذا لا يدين بما تعارف عليه الناس من حلال وحرام ، فالحلال هو مـا يرضي نزوة مجنونة ويشبع ميلا مأفونا ، والحرام هو كل مـا يكون ممتنعا على تلك النزوة وهذا الميل •

وهنا ترى الصادية Sadism وقد انطلقت من هذه القرود البشرية لهبا أكولا ، وترى هذه القرود لا تستشعر باللذة الا من خلال الالم ، وترى لذتهم لذة مجنونة مسعورة كلما غاصت انيابها عميقـا في جسد الضحية ، يزدد استمراؤها للـدم واللحم ، وتزدد ضراوتها شدة على شدة ، وتراها لذة لا تشبع ولا ترتوي ، وتراها تنجد انيابها بمخالبها ، باحثة عن النشوة او الانتشاء ، لكن هذين يتزايدان بعدا عنها ، لذلك تراها تزداد عنفا على عنف وضراوة على ضراوة ، فتسعف انيابهـا ومخالبها بساعديها وساقيها ، وهكذا ترى مشهدا مجنونـا ، مشهد انسان يبحث باسنانه ومخالبه ، بساقيه وساعديه عن انتشاء لذة ونشوة نزوة ، وترى الضحية تختلج حينا ، لكنك لا تسمعها تئن ، فتلك اللذة المجنونة ، لم تترك لها حتى طاقة على الانين ، وهكذا يتابع هذا النوع من الثورة تدحرجه مشتعلا ملتهبا ساحقا كل ما يعترض طريقـه مـن خير او شر ، حتى يستقر أخيرا رمادا خابيا في قعر الهاوية ، غير مخلف وراءه سوى جراح وآلام وخسائر فادحة مروعة ، وشعبا كسير القلب مكدودا وجماهير فاقدة الثقة بالمستقبل معدومة الأمـل بالخير ، كافرة بالثورة والثوار ، ومستعدة للترحيب حتى بنظام شيطاني كبديل لهذا النوع من الثورة •

ولكن هنا تبدأ المعجزة بالتجسد من جديد • فالحياة أقوى من ان

يسحقها منحرف او يخنقها غر مأفون . اذ سرعان ما تراها وقد أبلت من المرض وتماثلت للشفاء ، وألفت في تلك الكارثة القومية عظة لها ودرسا ، وهنا تراها وقد تبرعمت ، ومن ثم تراها تتفتح أمامك زهورا وتتضوع أريجا وتنعقد ثمارا ، وترى العقل يسوق المجانين عائدا بهم الى المصحات ، وترى ملامح الفرد تنفرج ملمحا بعد ملمح ، بعد طويل تجهم وتقطيب ، وترى الذهول يتلاشى ويختفي رويدا رويدا مخلفا وراءه شبه بسمة هيابة وجلة مترددة ، لكنها سرعان ما تنفرج عنها الشفتان فتراها عريضة راضية ، وتراها بأم عينك تحطم آخر قيد من وجوم . فلقد تحققت المعجزة ، فالمجانين قد أعيدوا الى المصحات والقرود الى حظائرها .

وقد يقرع ذات مساء، او في منتصف ليل، او ذات فجر بابك، فترى زوجتك تسارع لفتحه بخطى لا تتعثر بعثرات الرعب والخوف ، وترى من استيقظ من اطفالك يتسابقون وأمهم اليه وعيونهم تشع ببهجة الفضول والاستطلاع ، وترى ان الرعب قد زاولهم واختفى كليا من نظراتهم ، ولم يعودوا ينكمشون في زوايا البيت طالبين الاندماج في الجدران، اذ انها وانهم وانت وجميعكم تعرفون حق المعرفة بأن الطارق لن يكون سوى قريب او صديق او جار ، وانه لن يكون أبدا من زبانية المباحث ، اذ ان المعجزة قد تحققت فالمجانين قد أعيدوا الى المصحات والقرود الى حظائرها .

وقد تتأخر ذات يوم عن موعد حضورك الى بيتك ، لكنك ستعرف بأن زوجتك لن تقلق ذاك القلق المشؤوم ، ولن تسابق خطاها الى معارفك واصدقائك للبحث عنك في الاقبية والزنزانات والسجون ، وستعلم بأن أطفالك لا يتحلقون حول أمهم ينشجون وينتحبون ،

فالمعجزة قد تحققت ، فالمجانين قد أعيدوا الى المصحات والقرود الى حظائرها .

وقد تصادف ذات يوم أحد معارفك او اصدقائك او جيرانك ، وتقبل عليه ويقبل عليك تحادثه ويحدثك ولسانك ولسانه ينطلقان على سجيتهما طليقين لا ينكمشان امام صقيع الشك وجليد الريبة طلبا للأمن ودفئه . فالمعجزة قد تحققت والمجانين قد أعيدوا الى المصحات والقرود الى حظائرها .

وزبدة القول انك لن تصدق ابدا ان تلك الحال كانت حقيقة وواقعا ، اذ سيحاول بعض حس فيك اقناعك بأنها كانت كابوسا من حلم مجنون .

فالثورة ليست ابدا غاية ، انها دائما وأبدا وسيلة ووسيلة فقط ، والويل كل الويل لأمة تجد بين صفوفها من يؤمن بأن الثورة غاية في ذاتها ، لا وسيلة وأسلوب لتطوير واصلاح .

— ٢ —

الثورة الناصرية

تختلف مصر في تركيبها الاجتماعي ومقوماتها الاقتصادية اختلافا جذريا وكليا عن بقية البلدان العربية الاخرى • لذلك فان كل ما يصلح للتطبيق في مصر وعلى مصر لا يصلح أبدا واطلاقا للعمل به وتطبيقه على اي بلد عربي آخر • فمصر هي البلد العربي الوحيد الذي عرف نظام الاقطاع وعاشه بكل ما لهذا النظام من مفهوم ومعنى اوروبيين • ومصر هي البلد العربي الوحيد الذي لا يزال متأثرا بحضارة تشكيلية تعتمد على الحساسية والحواس ، وتتمثل في التماثيل والاهرامات والنقوش ، وترتفع بالحاكم او الفرعون الى مرتبة الاله ، وبذلك تتعارض مظهرا وجوهرا والحضارة التجريدية التي انبثقت عن الاسلام ودانت بها الشعوب العربية في مختلف اقطارها • زد على ذلك ان مصر كانت اول بلد عربي انفتح على المدنية الاوربية المادية ، وحاول ان يأخذ بأساليبها وينهج نهجها • ومصر كانت الدولة العربية

الوحيدة التي كانت تسرح فيها الشعوبية وتمرح ، وتتحكم بمقاديرها وتتعمد اذلال العنصر العربي الاصيل الذي يستوطن الريف المصري . ونحن اذا تأملنا مليا في نسب العائلات المستعربة والمستمصرة والتي كانت تحكم مصر وتملك معظم الاراضي المنزرعة لوجدنا ان معظمها ان لم يكن كلها يتحدر من سلالات واصلاب غير عربية اطلاقا ، وقد استوردها الاتراك الى مصر وأقطعوها الاقطاعات الكبرى ، بغية اذلال العناصر العربية بالرغيف وبالسوط . وسنجد ان جميع تلك العائلات تتحدر من أصل شعوبي ومن شعوبية سعت وتسعى جاهدة لهدم الاسلام ، ولاذلال العناصر العربية باسم القومية العربية .

لذلك فان الثورة الناصرية كانت ثورة بناءة فقط داخل الحدود المصرية . فالنظام الذي سبقها كان يستند الى أخلاقية غريبة غرابة كلية عن الأخلاقية العربية ، فاخلاقيته كانت تقوم على الاستبداد القيصري والطغيان الكسروي المتمثلين في الاستعباد الفرعوني لذلك ما كادت الثورة الناصرية تنشب حتى هبت الأمة العربية بأسرها ترحب بها وتهلل لزعيمها . والحق ان الأمة العربية قد منحت عبد الناصر في بدء عهده من حبها وتأييدها ما لم تمنحه لأي زعيم آخر بعد انهيار عصر الخلفاء الراشدين . فما هو سبب ذاك الفيض من المحبة والتأييد اللذين حبت فيما مضى بهما الامة العربية عبد الناصر ؟

ان هذا السبب يتمثل على ما أرى في الامور التالية :

أ ـ حاجة الأمة العربية الى زعيم مرشد .

ب ـ رغبة الأمة العربية في تحرير العنصر العربي من الاذلال الشعوبي الماثل في النظام الاقطاعي في مصر .

ج ـ رغبة الأمة العربية في القضاء على آخر قـــلاع الاستعمار وحصونه •

د ـ رغبة الأمة العربية في القضاء على التجزئة والانقسام بـــين الاقاليم العربية ، وفي توحيد المشرق والمغرب العربيين •

هـ ـ كون مصر هي الحلقة التي تربط بين المشرق والمغرب العربيين

و ـ كون مصر هي أضخم البلدان العربية سكانا •

ز ـ كون الدين الاسلامي عميق الجذور في التربة المصرية •

ح ـ كون مصر هي من أهم عناصر الأمن العسكري في البـــلاد العربية ، والقوة العسكرية الاولى للوقوف في وجه الاستعمار وللقضاء على اسرائيل •

ط ـ كون الدعوة الى الوحدة العربية والايمان بالعروبة قد تبديا في مصر لاول مرة في شخص عبد الناصر في ارسخ صورة وأنقاهـــا عرفتها مصر بعد انهيار الحكم العربي فيها •

هذه هي الأمور الرئيسية التي جعلت الأمة العربية تحيط فيما مضى عبد الناصر بتلك الهالة المشرقة من المحبة والتأييد •

والآن يتوجب علينـــا ان نتجاهر ونتكاشف ونقول الحقيقـــة كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ، فحين تقرير مصير الأمة ، وفي معـــارك الحسم لا تثبت سوى الحقيقة ولا ينتصر غير الحق • لقـــد آن الأوان لان نعترف بالاخطاء وان نشير اليها بوضوح ، وان نقر بـــأن الثورة الناصرية بالاضافـــة الى ما يسمى باليسار الثوري بجميع هيئاته قـــد أصيبت بانتكاسة جد خطيرة في العالم العربي ، وانها لم تعد تستقطب ما كانت تستقطبه من محبة الشعوب العربية وتأييدهـــا ، وعلينا ان

تتساءل عن سبب هذه الانتكاسة او اسبابها ، وان نعالجها سياسيا .
فما هي هذه الاسباب ؟ انها كما ارى تتمثل في الامور الآتية :

أ ــ محاولة لا بل سعي الناصرية والحركات اليسارية للاستعاضة عن الاسلام بالفلسفات الاوروبية وخاصة المادية الماركسية . وهذا أمر تأباه النفس العربية فطرة واخلاقا وعقلا .

ب ــ عجز الناصرية وتلك الحركات المذكورة عن الخروج بالاسلام كقوة فاعلة في تنظيم علاقات الفرد بالمجتمع ، والمجتمع بالدولة ، وبالانسانية وبالكون وبالله .

ج ــ اعتماد الصراع الطبقي محركا وأسلوبا لجمع شتات العرب ، والانسياق الشعوري او اللاشعوري في تيار الشيوعية ، وصيرورة الشيوعية الجسر كل الجسر الذي أخذت تعبر عليه الآن مواكب الشعوبية لتحطيم القومية العربية ، كما سبق لها ان حطمت فيما مضى الاسلام .

د ــ عدم معرفة الناصرية وتلك الحركات المعرفة الصحيحة بالنفسية العربية وبمكامن زخومها ، وبفضائلها وقيمها ومقوماتها .

ه ــ عدم اطلاع الناصرية وتلك الحركات الاطلاع الصحيح على ظروف كل بلد عربي وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

و ــ اعتماد الناصرية وتلك الحركات على وسائل الشيوعية وأساليب الشعوبية في العمل السياسي .

ز ــ اعتماد الناصرية وتلك الحركات الاعتماد المطلق على العسكريين

ح ــ سلوك سبل الارغام والقهر الماديين في السعي لاقامة الولايات المتحدة العربية ، ومحاولة فرض وحدة شخصية لا وحدة عربية جماعية .

والآن لننطلق الى معالجة بعض النقاط الانفة الذكر .

النقطة الاولى :

ان العربي يرغب لا بل يريد ان يبقى في محاورة دائمة وخالقه ، وهو يرى في كل شيء يحيط به دليلا وجدانيا ، لا دليلا حسيا ، على ربه المعبود ، وهو مثالي كل المثالية في جوهره وفطرته . لذلك تراه يحتقر او يغرق في كل شيء مادي او حسي ، وهو انسان لا يهمه ان تطعمه ، بل ان كل ما يهمه هو ان تكرمه ، لانك في ذلك تكرم الله فيه، فكرامته ليست كرامة تنبع من معدته ، بل انها تنبع من قلبه وتتأكد في ضميره وتتحقق في عقله وهو مادة حية ، نعم انها حية وخلاقة ، وليست مادة ميتة ،مادة ماركس وبيكون وسبنسر وارسطو وهرقليط . والعربي لا يستهويه ان تنشىء مصنعا ، بل يفتنه ويخلب لبه ان تبني الانسانية في الانسان ، وان تقنعه سلوكا وعملا بوجود عقل اعلى يهيمن وينظم الكون بكل ما فيه من انهار ومجرات وانظمة شمسية ونجوم وكواكب ، وان فخره كل فخره يتمثل في ان يجاهد متساميا نحو ذاك العقل الأعلى الذي خلقه على صورته . والعربي يؤمن عميق الايمان بان الانسان الذي يكفر بالله ينصب من نفسه الها ، والويل لامة يغدو حكامها آلهة ، وتبا لاله لا يرى غير الاذلال سندا لالوهيته .

والعربي يؤمن بأن الحياة ليست صراعا من اجل البقاء، بل انها صراع من أجل التوكيد على ان الله قد خلق الانسان على صورته ، لذلك كان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف المحبة ويعتمدها دستورا اخلاقيا له ، ولهذا نراه في كثير من الامثلة التاريخية يتسامى فوق غريزة حب البقاء ، لا بل نراه يناقضها ويعارض في سلوكه جميع قوانينها وقواعدها ، اذ يرى في وجوده المادي عبورا مجردا الى كينونة أسمى

مفهومـا واعمق مغزى من كينونته على وجه هذه الفانية .

والعربي لا يهمه ما يأخذ بل همه الاوحد هو ان يعطي ، فهو يؤمن بانه بالمحبة ، بالنخوة بالشهامة بالكرم يبدع الحاكم الانسان ويدفع به الى اعطائه كل طاقاته . لذلك فان العربي لا تستهويه ابدا المـذاهب السياسية ، بل انما تستأثر بقلبه الاديان ، فهو لا يعالج أمور الحياة ، (وهناك كبير فارق بين أمور الحياة وبين أمور العيش) ، على مستوى أرضي بل انما يعالجها على مستوى كوني ، لذلك تراه يربط كل حادثة او بالاحرى يرد كل حدث الى عقل أعلى وارادة خيرة ، لا الى قانون العلة والمعلول ، الى السببيـة ، أو التسبيب الطبيعي .

هذه مقدمة كان لابد من عرضها قبل دخولنا في مناقشة النقطـة الاولى ، من النقاط الآنفة الذكر ، واعني بها محاولة الناصرية ومـن يسمون انفسهم بالثوريين الاستعاضة عن الاسلام بالفلسفات الاوروبية، وخاصة المادية الماركسية منها .

في الفلسفة الاوروبية :

هل توجد هناك فلسفة أو فلسفات أوروبيـة ؟ وهل هناك فلسفة أوروبية مثالية وأخرى مادية ؟ انني أرى أن هنـاك فلسفة أوروبيـة واحدة ، وما ندعوه بالفلسفات الاوروبية ، انما هو مذاهب فلسفية ، اي انها فروع من شجرة واحدة هي الفلسفة الاغريقية الاوروبيـة ؛ فالفلسفة الاوروبيـة تشكل والفلسفة اليونانية كلا متكاملا كامـلا ، أو بالاحرى ان الفلسفة الاوروبية هي الفلسفة اليونانية النامية المتطورة، والحق انه لا توجد في الفلسفة الاوروبيـة فكرة واحدة الا ونجـد لها مثيلا في الفلسفة اليونانية . وكل ما هنالك من فارق بين الفلسفـة الاوروبية واليونانية انما يتمثل في كـون الديناميكـا تشكل عنصرا

جوهريا من عناصر الفلسفة الاوروبية ، بينما ان الفلسفة اليونانية تكاد تفتقر افتقارا كليا الى هذا العنصر .

والآن ليسمح لي القارىء بان اقدم اليه مقارنة عاجلة لاثبت ما ذهبت اليه .

لا شك ان القارىء مطلع على نظرية كنت لابلاس في نشوء الكون وعلى نظرية داروين في أصل الانواع ، وأود هنا أن أعرض عليه نظرية أناكسيمندر (٦١٠ ــ ٥٤٠) تلميذ طاليس ، والذي كان اول من رسم من الاغارقة الخرائط الفلكية والجغرافية . لقد اعتقد اناكسيمندر بان الكون قد بدأ ككتلة غير متخلقةومن هذه الكتلة نشأتجميع الاشياء ، نتيجة لانفصال النقائض بعضها عن بعض ، وبأن التاريخ الفلكي يعيد ذاته بصورة دورية ، (ولنلاحظ هنا منطلق نظرية العود الابدي لفردريك نيتشه) ، وبأن الحياة قد تشكلت اولا في الماء ، ولكن هبوط الماء دفع بها الى الشاطىء ، وبأن بعضا من جميع الحيوانات التي قذف بها الى الشاطيء ، قد تمكن من اكتساب القدرة على تنفس الهواء ، وهكذا اصبح هذا البعض اسلافا لكل حياة برية . والان فلنستمع أيضا الى نظرية آناكسمينس ، (وهذا ميلزي اخر عاش قرابة عام ٤٥٠ ق . م) ، فهذا يرى بأن حال الاشياء كانت كتلة مخلخلة جدا وقد تكثفت تدريجيا الى هواء وغيوم ومياه وتربة وحجر . فهل تجد ايها القارىء كبير فارق بين قول هذين الفيلسوفين ونظرية كنت لابلاس القائلة بنشوء الكون من تلك الغيمة السديمية المعهودة .

ومن ثم فلتقابل بين ديالكتيك هرقليط وبين ديالكتيك هيغل وماركس وانجلز ، وحتى فريدريك نيتشه وداروين ، وسأكتفي هنا بايراد فقرة واحدة من نظرية هرقليط :

« كل شيء يجري ويتبدل ، وحتى في اشد مادة سكونا ، يوجد

سيلان وحركة • وان التاريخ الكوني يجري في دورات تكرر ذاتها ، وكل دورة تبدأ وتنتهي بالنار • ان جميع الاشياء تنشأ من خلال الصراع وتبيد ••• وان الحرب هي أب جميع الاشياء ومليكها ••• وحيث لا يوجد صراع يوجد انحلال ، وان المزيج الذي لا يخضونه يتفسح وينحل • »

ولنستمع ايضا الى نظرية ديمقريطس القائل بانه توجد هناك ذرات فقط ، ويوجد او كان أو سيكون هناك عدد غير متناه من العوالم ، وانه في كل دقيقة تتصادم الكواكب وتموت وتنشأ عوالم جديدة من الهيولى عن طريق تجمع انتقالي من ذرات لها الحجم نفسه والشكل عينه ، ولا يوجد هناك أي مخطط فالكون هو اله • ومن ثم فلنتأمل في اله ارسطو ، وعندئذ ستدرك لماذا كادت الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى تنزل ارسطو منزلة الانبياء والرسل • وأخيرا فلنقارن بين « كمونات » أفلاطون وكمونات موتسي تونغ والمزارع التعاونية السوفياتية في العهد الستاليني ، فهل تجد هناك كبير فرق او فارق ؟

اذن فلا توجد هناك فلسفات اوروبية بل انما توجد فلسفة اوروبية واحدة ، كما وانه لا توجد ابدا فلسفة اوروبية مثالية ، بل ان هناك فلسفة مادية ولدت ما قبل ارسطو وشبت وترعرعت على ايدي جميع من نعرف من فلاسفة ابتداء بمن قبل سقراط وانتهاء ببرتراند رسل وكروتشي وسانتيانا ووليم جيمس وديوي • ومما يلفت النظر انه اذا كنا نشتم بعضا من مثالية في الفلسفة الاوروبية ، فان اريجها يتضوع من فلاسفة غير اوربيين كباروخ سبينوزا وهنري بيرغسون •

اذن فالفلسفة الاوروبية ، نظرا لكونها فلسفة مادية ، هي فلسفة تقوم بكل مذاهبها على الالحاد ، وعلى القناعة اليقينية بعدم وجود

اله لهذا الكون ، ألا اذا أرادو ان يعتبروا تلك الغيمة السديمية المعهودة المخلخلة ، والتي نشأ عنها هذا الكون ، على حد زعمهم ، الهـا له ، ولكنني لا أظن انهم يعتبرونها كذلك ، فالاشياء التي نراها هي علـى حال أكثر استقرارا وأرفع كمالا وادق تركيبا من حال تلك الغيمـة السديمية ، ولا أظن أبدا أن هناك خالقا واحدا يبدع مخلوقا أكمل منه.

اذن فعلـى هـذا الجيـل العربي ، جيلنا نحن ان يقرر مـا اذا كان يريد ان يعتبر ، او بالاحرى ان يأخذ بالفلسفة الاوروبية كمنطلق له ، او ان يأخذ بالفلسفة العربيـة ، او بالاحـرى بالاسـلام قاعدة له ومنطلقا . ان جيلنا اذا بت في هذه القضية فعندئذ سيجلو الكثير مـن الغموض الذي يحيط به في انظار العرب والمسلمين ، وسيترفع عـن الانتهازية التي تفسد أخلاقه ، وتلقي به اليوم فريسة لدوامات القلق والارتباك والحيرة . وهنا عليه ان يعلن على رؤوس الاشهاد عن الحاده بوجود الله ، وعن تنكره لحضارتنا العربيـة الاسلاميـة ، وعن نبذه للاخلاقية العربية ، اخلاقية محمد وابي بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب، هذه الاخلاقية التي بنيت على الايمان المطلق بالله، والتي جعلها هذا الايمان تعتمد المحبة والنخوة والشهامة والكرم مبادىء اساسيـة لسلوك الحكام والمواطنين .

ولكن على جيلنا قبل ان يقدم على اشهار ايمانه بفلسفة اوروبا ان يتأمل ولو قليلا فيما اسفرت عنه تلك الفلسفة من نتائج بالنسبة للشعوب الاوروبية والشعوب الاخرى التي تمت نسبا الى تلك الشعوب وعليه ان يطرح على نفسه الاسئلة التالية :

١ ـ هل استطاعت تلك الفلسفة بجميع ما انبثق عنها من مذاهـب فلسفية وسياسية واجتماعية واقتصادية ان تجنب الذين يدينون بهـا الحيرة والقلق ؟

٣ ــ هل استطاعت تلك الفلسفة ان تدنو ولو قليلا بالانسان من الاسرار النهائية للكون ؟

٤ ــ هل استطاعت تلك الفلسفة ان تثبت معرفيا (ابستمولوجيا) عدم وجود خالق او اله ؟

٥ ــ ألا ينتهي قانون السببية ، (قانون العلة والمعلول) ،بالفلسفة والمعرفة الاوروبيتين الى طريق مسدودة ؟

٦ ــ هل نريد ، او بالاحرى هل يوافق عقلنا ان لم نقل وجداننا على اعتبار تلك الغيمة السديمية المعهودة هي العلة العليا ، وهي الحلقة الاولى في سلسلة العلل والمعاليل ، وهل تقنع عقلنا بذلك، وتتوقف ونكف عن توجيه كل سؤال كان ؟

٧ ــ ألم يبرهن علم الخلايا على ان الهوة التي تفصل بين الجبلة الاولى وبين الجماد هي هوة سحيقة لا يسبر لها قرار ولا غور ؟

٨ ــ أليس تفكيرنا مركزا على الفراغ اكثر من كونه مركزا على الزمان ، وان هذا الواقع يجعلنا نميل بطبعنا الى المذهب المادي ، وذلك لاننا جميعا تنزع الى التفكير بحدود الفراغ ، وألسنا جميعا كما يقول بيرغسون هندسيين ، وأليس الزمان أساسيا كالفراغ ، وأليس هو نماء، وأليس هو الذي يمسك بجوهر الحياة او ماهيتها ، ولربما بجوهر كل حقيقة واقعية . وألا نصف الزمان بالسرمدي ، وما هو الفارق بين السرمدية والخلود ؟

٩ ــ هل تتألف الحياة فقط من عناصر فيزيائية وكيمائية ، فاذا كانت الحال هذه ، اذن فما هو الفرق بين الانسان كقوة عاقلة وبين أحط نوع من الاحياء والمادة ؟

١٠ ــ ألا يتعامل العلم والانسان الميت ، والجثة ، ألا يتعامل

والمادة ، وألا تتعامل الحكمة والانسان الحي ، تتعامل والحياة ؟

١١ ــ ألا يوجد هناك شيء ما في النشوء أكثر من النظام الميكانيكي ، وأليست الحياة هي شيء ما أكثر من آلتها ، وأليست هي قوة تستطيع ان تنمو وتستعيد ذاتها ، وإن تصوغ بالنسبة لارادتها الخاصة بعض مقياس للظرف الذي يكتنفها او يحيط بها ؟

١٢ ــ وأليس هناك تصميم في الاشياء، تصميم داخل الاشياء وليس خارجها ؟

هذه بعض الاسئلة احببت أن أطرحها على القارىء قبل ان يبت فيعلن اشهاره لايمانه بالفلسفة الاوروبية المادية كمنطلق لنا وقاعدة في الحياة . ولا شك ان الاجوبة العقلانية ان لم أقل الوجدانية عن تلك الاسئلة سترغمه ارغاما على الرجوع الى الاسلام كقاعدة ومنطلق وستضطره اضطرارا الى العودة الى الايمان بخالق لهذا الكون . والحق انه لافضل لي مليون مرة ان أؤمن بالقدرة الالهية كخالق لهذا الكون ، من ان اؤمن بتلك الغيمة السديمية المعهودة بوصفها العلة الكلية لكل شيء في الوجود .

ان مأساتنا نحن ابناء هذا الجيل تتمثل في كوننا جيلا هداما ملحدا، فلقد دفعت بنا الثقافة الاوروبية الى الهدم والالحاد ، فهدمنا تراثنا ، وأنكرنا وجود قوة الخير الاعلى ، أنكرنا وجود الله ، ولكننا لم نستطع ان نجد سوى بديل هزيل له ، بديل يتهاوى ويتناثر بددا عند اول نسمة من نقد . لكن هذه الفلسفة المادية بالذات يجب ، اذا كنا نحن ايجابيين وانشائيين حقا، انتعيدنا الى الايمان بتراثنا، وذلك نظرا لعجزها الكلي عن حل ابسط القضايا الاساسية في الحياة ، قضايا الانسان وقضايا الكون . ان على جيلنا أن يعرف بأن كل انبعاث عظيم وكل رسالة عظمى تستوجب ايمانا عظيما ، ايمانا عميقا ، والايمان كما نعرف

جميعا لم ولا ولن ينبع من الحساسية والحواس ، بل ينبع ويتدفق من مكمن يتسامى ببعيد وبعيد فوق كل ساحة وحس ، ونحن ما لم نستعد ايماننا بالله فلن نؤمن ابدا بالانسان ، ولن نعتبر الانسان غاية مطلقة في ذاتها ، ولن نحقق سوى التافه من الامور . بهذا يجب ان نؤمن وبهذا يجب ان ندين . وانني لاتساءل عاجبا ما الذي يجنيه جيلنا من تكفير الجماهير العربية بالله وبتراثنا وبديننا ؟ ...

والان لننتقل الى معالجة ما يسمونه بالاشتراكية التي كادت تصبح في فترة من فترات ماضينا القريب هذا دينا جديدا ؟

انني اعرف وأؤمن بانه عندما يبدأ الكتاب بالحديث الى القاريء يتوجب على الكاتب ان يصمت . ولكن ارى من واجبي ان أصارح القاريء قبل الخوض في هذا الموضوع ، ألا وهو الاشتراكية ، بانني كنت لفترة جد طويلة من الزمن لا أدين فقط بالاشتراكية بل انني كدت في أحد الايام ان أمسي شيوعيا ، لكنني كنت دوما ألمس قوة خفية غامضة تمسك بي وتمنعني من عبور نهر الروبيكون ، ولعل تلك القوة كانت هي الله . لقد أفنيت عشرا من سني عمري وانا انقب واتلقف بشوق وحماسة واندفاع كل ما كتب ويكتب عن الاشتراكية او بالاحرى الشيوعية ، ساعيا وراء الاستقرار العقلي والوجداني ، ولكن وبعد ان اطلعت بمقدار ما مكنني عقلي على الفلسفة الاوروبية المادية مظهرا وجوهرا ، وجدتني لا أزال حيث انطلقت ولا أزال اعمه في جهالتي ، ووجدت ان تلك الفلسفة لم تستطع سوى ان تزيد في قلقي قلقا وفي حيرتي حيرة ، وفي حياتي بلبلة وفوضى . ولمست بالرغم من كل ما حققته تلك الفلسفة من منجزات علمية رائعة ، انها تزداد بعدا يوما بعد آخر عن الانسان ، اذ انها فلسفة مكابرة تزداد بعدا عن الله. والحق ان الفلسفة الاوروبية فلسفة عقلانية متماسكة كل التماسك

لولا ثغرة واحدة فيها لم تستطع ابدا ان تملاها ألا وهي الله • فجميع قوانينها وقواعدها تتسلسل تسلسلا رائعا ومدهشا أخاذا ولكن أخيرا تراها حالما تصل الى تلك الثغرة تتخبط خبط عشواء وتدخل في دائرة من التناقض لا يستطيع ابدا العقل ان يعرف مخرجا منها ، الا عن طريق الايمان والايمان بالله وحده •

والحق ان حالها هي تماما كما وصفها ديكارت ، فهي فقط بحاجة الى دفعة اولى ومن ثم فبوسعها ان تنطلق وتنساب الانسياب الرائع المدهش ، ولكن الخلاف هنا يدور حول هذه الدفعة الاولى ، حول هذه العلة الاولى أو العليا ، وهو خلاف اساسي جدا لابل جوهري كل الجوهرية ، اذ انه هو الفارق بين الايمان والالحاد بين المثالية والمادية • فحتى كنت ولا بلاس لم يستطيعا أن يقنعا البشرية بان تلك الغيمة السديمية هي العلة الكلية العليا •

هذه مقدمة كان لابد منها • فعلى الكاتب ان يصارح القاريء ، اذ أن كل كاتب هو مبشر سواء بالحق او بالباطل ، لكن المهم كل الاهمية ان يكون الكاتب مخلصا ومؤمنا بما يكتبه ، فان كان مصيبا فقد يهدي غيره وان كان مخطئا فقد يجد من يصحح له ويعيده الى طريق الصواب •

والآن ما هي الاشتراكية ؟ وهل هناك كبير فارق بين الاشتراكية والشيوعية ؟ أم هل ان الاشتراكية هي مرحلة من المراحل الى الشيوعية؟ وهل توجد هناك اشتراكية عربية وأخرى غير عربية ؟

انني اجيب قائلا بان الاشتراكية هي أعلى ذروة بلغتها الفلسفة المادية في عصرنا هذا ، وبانه ليس هناك اطلاقا من فارق بين الاشتراكية والشيوعية ، وذلك لان الاشتراكية هي الشيوعية في الدور الجنيني

او بالاحرى في مرحلة الطفولة ، وهي المرحلة الاخيرة الى الشيوعية ، وذلك على حد تقرير فقهاء الاشتراكية والشيوعية معا • اذ أن الفارق بين الاشتراكية والشيوعية هو ان طبقة البروليتاريا الممثلة بالدولة هي التي تستولي على وسائل الانتاج وتقرر لكل فرد بقدر عمله ، بينما في الشيوعية تزول البروليتاريا كطبقة ويملك المجتمع وسائل الانتاج وتنحل الدولة الى نوع من مجلس ادارة ، حيث يقررون لكل امريء بقدر حاجته •

ولكن المجتمع ، أو بالاحرى الامة ، تمر ، كما رأينا الاشتراكية في التطبيق ، في مرحلة هي مرحلة رأسمالية الدولة ، وفي هذه المرحلة تقوم الدول باستغلال العمال والفلاحين بدلا من أصحاب رؤوس الاموال الخاصة الذين كانت الثورة الاشتراكية قد قضت عليهم كي تمنعهم من استغلال العمال والفلاحين • وتتشكل في هذه المرحلة طبقة من اشره الطبقات الطفيلية التي عرفها التاريخ البشري ، واعني بهذه الطبقة البيروقراطية ، ومن ثم تصبح هذه الطبقة هي الدولة واقعا وفعلا ، وتجعل من المجتمع جثة تجري عليها تجاربها وتوجد لاعضائها من الامتيازات ما يفوق كل امتياز ، وتعمد في معاملتها الى اساليب تجعل معظم اعضاء المجتمع يترحمون على من كانوا يعرفون باسم الرأسماليين • ونظرا لكون معظم افراد هذه الطبقة من الاغرار والجهلة لذلك ترى عجلة المجتمع في حال من تعثر دائم •

أما ما اذا كانت توجد هناك اشتراكية عربية وأخرى غير عربية ، فعن هذا أجيب بانه لا توجد هناك اطلاقا مثل هذه الفوارق ، بل انما يوجد فقط اختلاف في الوسائل والاساليب ، لكن الغاية تكون واحدة والهدف يكون واحدا ، وذلك لان جميع الاشتراكيات وبكل اشكالها تنبع من المادية الماركسية •

يتضح مما ورد اعلاه ان الاشتراكية هي منهاج اقتصادي ، او انها بالاحرى المنهاج الاقتصادي للديالكتيكية المادية كفلسفة ونظرة الى الكون ، وانها ترمي اولا وأخيرا الى تطوير الاقتصاد وزيادة فعالياته بغية تأمين المواد والسلع التي تسد جميع حاجات الفرد في المجتمع الشيوعي • ولكن هل يعني ذلك ان الاشتراكية بالذات تختلف عن الرأسمالية ؟ كلا ان الاشتراكية لا تختلف اطلاقا عن الرأسمالية وانما تعني الانتقال من الرأسمالية الفردية الى رأسمالية الدولة ، أي ان عامل الاستغلال يبقى قائما ومسيطرا ، وان فائض القيمة على حد تعبير ماركس لا يذهب الى جيوب العمال بل انما يذهب الى جيوب الدولة ، او بالاحرى الى جيوب الطبقة البيروقراطية التي تتعهد الاشتراكية في المجتمع وتشرف عليها ، ولذلك ونظرا لكون فائض القيمة لا يذهب الى العمال بل الى الدولة ، لذلك فمن المغالطة ان تدعي الاشتراكية صفة الاشتراك والمشاركة ، اذ ان الطبقة البيروقراطية ، لا العمال ولا الفلاحين ، هي التي تستأثر بحصة الاسد من الارباح ، وخير دليل على ما أقول هو ما يجري الآن في البلدان التي تدين بالاشتراكية ، وسواء كانت هذه البلدان عربية او غير عربية • زد على ذلك ان أخطر ما في الاشتراكية هو انها تقتل الحافز الشخصي او بالاحرى تشله ، ومن المعروف ان الحافز الشخصي هو العنصر المبدع والخلاق في كل دولة ومجتمع • وقد ادرك حتى الاتحاد السوفياتي ما للحافز الشخصي من أثر فعال في الابداع والتطوير ، ولذلك لجأ خروشوف الى الغاء المركزية في الادارة الاقتصادية من صناعية وزراعية ، والى اعتماد مبدأ اللامركزية ، واعطاء كل مشروع انتاجي حرية المبادرة ، ومن ثم جاء خلفاؤه من بعده فاعتمدوا مبدأ ليبرمان ، هذا المبدأ الذي يقرر حق الربح للمنتجين ، ومن المعلوم ان الاعتراف بمبدأ الربح هو العودة الى الاعتراف بمبدأ الملكية الفردية • وبهذا نكون كأننا يابدر لا رحنا « ولا جينا » وحتى برتراند رسل الاشتراكي المعروف ، الذي

آمن باديء ذي بدء بوجوب الغاء الملكيـة الخاصة ، (وخاصة ملكيـة الارض) عاد عندما تقدم به العمر فآمـن بان البشر في الشكـل المجبولين عليـه لن يقوموا بحراثة الارض والاعتناء بما لديهم بصورة صحيحة ما لم يكونوا واثقين بنقل ما لديهم والتحاسين التي يدخلونها عليه الى اولادهم من بعدهم .

والآن فلنتأمل في العالم العربي، انه والحق ليكاد يشكل قارة بأكملها فله من الاراضي المنفسحة الفسيحة ومن الموارد الدفينة والظاهرة ومن الموقع الجغرافي والستراتيجـي ما يجعله عالما فريدا في نوعه ، ويجعل سكانـه يبدون أقل بكثير من ان يتمكنوا من استغلال جميع امكاناته وطاقاته ، ويجعله بمسيس الحاجة على الاقل الى اربعة اضعاف سكانه الحاليين . ولنتأمل في المرحلة الحالية التي يتوجب علينا ان نمر بها ، واعنـي بهذه المرحلة مرحلـة الانماء الاقتصادي ، مرحلة تطوير وتثمير وزيادة فعاليات رأس المال وطاقاته الانتاجية . اننا مرغمون ارغاما على المرور في مرحلة الرأسمالية سواء رضي بذلك الاشتراكيون ام لم يرضوا فالاتحاد السوفياتي لا يزال حتى اليوم يمر بمرحلة الرأسمالية وان كان يدعو هذا النوع من الرأسمالية برأسمالية الدولة . فالامم المتخلفة والتي تنهج النهج الواقعي الصحيح لا تبدأ وهي لا تزال في بداية تطورهـا وتطوير امكاناتها بالحديث عن التوزيع بل انما تركز جميع مجهوداتها على الانتاج ، فلكي تتمكن من توزيع أي شيء او اية سلعة يتوجـب عليك باديء ذي بدء ان تنتجها وان تكون متوفرة لديك . لذلك فان المرحلة الحاليـة التي يجب ان تدخلها الامة العربية الان هي مرحلـة الانتاج لا مرحلـة التوزيع . فلقد شاء لنا القدر نحن ابناء هذا الجيل ان نكون حراثي الارض وباذريها ، لا ان نكون جناة ثمارها والمتمتعين بلذائذ خيراتها . ولذلك فان كل عمل من شأنه ان يزيد في هذه المرحلة من طاقات الانتاج وينمي من فعاليات الاقتصاد هو عمل انشائي وايجابي،

ولهذا فان الامة العربية هي اليوم بأمس الحاجة لكل جهد مبدع وخلاق، ويتوجب على السلطات في جميع البلدان العربية ان تترك للمبادرة الفردية حرية النشاط والعمل شريطة ان تكون هناك خطة للدولة توجه الاقتصاد نحو انتاج السلع المنتجة لا السلع الاستهلاكية . وهذا الغرض يستلزم أول ما يستلزم تنشيط الحافز الشخصي وانعاشه وقد استطاع هذا الحافز ان يجترح العجائب في سوريا وان يقفز بالانتاج قفزات خيالية ، وقد انعكس ما كان لذاك الحافز في سوريا من خير على جميع وجوه المجتمع . وهاكم الدليل على ما أقول :

	كان الانتاج في سوريا عام ١٩٤٩	وأمسى عام ١٩٥٣
	طن	طن
من القمح	٣٠٦٠١١	٧٨٠٠٠٠
من الشعير	٦٦٢٦١	٤٧٢٤٥٧
من القطن	٣٤٨٢١	١٣٢٨٥٩

وقد بلغ انتاج سوريا من القطن عام ١٩٥٥ ــ ٢٣٥٣٣٨ طنا

	الصادرات (بملايين الليرات)	الواردات	العجز
عام ١٩٥١ ــ	٢٩٢	٤١٨	١٢٦
عام ١٩٥٣ ــ	٤٠٨	٤٨٤	٧٦

بلغ في عام ١٩٥١ مقدار عمليات الحسم والقروض والسلف مبلغا قدره ١١٥،١ مليون ليرة سورية وقفز هذا الرقم في عام ١٩٥٦ الى مبلغ قدره ٣٥٤،٦ مليون ليرة سورية

كانت واردات الموازنة العامة لعام ١٩٥٠ تقدر بـ ١٤٣٤٩٦٨١٠ ليرة سورية وقد قفز هذا الرقم في عام ١٩٥٦ الى ٣٢٤٠٥٤٠٠٠ ليرة سورية.

ولنر أثر هذا التطور في التربية والتعليم :

بلغ عدد الطلاب الذين نالوا شهادة البكالوريا عام ١٩٤٥ ٣٧٥ طالبا وقد قفز هذا الرقم في عام ١٩٥٥ الى ١٠٥٩ طالبا اما الطلاب الذين نالوا شهادة الكفاءة فكان عددهم في عام ١٩٤٥ يبلغ ٨١٠ طالبا وقفز عددهم في عام ١٩٥٤ الى ٤٠٩٥ طالبا واما التلامذة الذين نالوا الشهادة الابتدائية في عام ١٩٤٥ فبلغ عددهم ٤٠١١ وقفز هذا الرقم في عام ١٩٥٤ الى ١٨٨٨٥ تلميذ .

على هذه الصورة المذهلة كانت تتطور سوريا ، تتقدم وتقفز في ميدان الانماء الاقتصادي مدفوعة بالجهد والحافز الفرديين فقط، وانني لاتساءل مفجوعا عما كانت ستبلغه من مستوى لو لم يجعلها البعض من ابنائها مختبرا وجثة يجرون عليها التجارب ؟ ان سوريا كانت اول بلد عربي حاول البعض من ابنائها تفصيل جسدها وفقا لمقاسات الثوب الذي استوردوه من الخارج . وانني هنا لأرغب رغبة اكيدة في مصارحة اولئك الذين يسمون انفسهم بالاشتراكيين والثوريين وأقول لهم بأن عالمنا العربي شاسع واسع ولايمكن لنا ابدا ان نستغل تلك المساحات الهائلة من الارض وتلك الموارد الضخمة الجبارة ما لم نطلق للمبادرة الفردية كل عنان وما لم ننشط روح المغامرة في الفرد . فلنتأمل ايها القارىء في تلك المساحات الشاسعة الواسعة التي يتشكل منها العالم العربي، فلتتأمل في مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسعودية واليمن وبقية أجزاء الجزيرة والسودان ومن ثم فلتقفز الى سوريا والعراق ولبنان والاردن وفلسطين . ألسنا بحاجة الى رواد يرددون مجاهل بلادنا ويروضون طبيعتها ويستحلبونها خيرات انني لأتساءل الان مذهولا وانا اسمعهم يتحدثون عن انشاء سد الفرات في سوريا ويقولون بان انشاءه سيوفر لسوريا عشرة ملايين دونم من الارض المروية ناهيك بالطاقة الكهربائية وما ينجم عنها من صناعة وتصنيع ، اتساءل من اين ستأتون بالفلاحين لهذه الملايين العشرة

من الدونمات ومن اين ستستوردون ربع مليون عائلة (باعتبار ان العائلة لا تستطيع ان تستثمر اكثر من ٤٠ دونما) ،لاستجلاب هذه الملايين العشرة من الدونمات !

اننا في المرحلة الحالية لسنا بحاجة الى نظريات ولسنا بحاجة الى فلسفات وعقائديات، انما نحتاج اليه قبل كل شيء آخر هو العمل العاقل والجهد المثمر وترويض الانانيات الجموحة وقهر المطامع الشخصية في السلطة والسلطان ، واعتماد المحبة لا الحقد حافزا على كل نشاط وعمل فبلادنا العربية اكثر من وسيعة واوسع من واسعة بالنسبة لنا ، وهي تزخر بكل الخيرات من اراض زراعية وثروات معدنية ومائية ، وكل ما تحتاج اليه انما هو الطاقة والجهد البشريين • ان حالنا هي اليوم كحال عائلة توفى والدها وخلف لها بناية شاهقة متعددة الطوابق • وعندما شب افراد هذه العائلة وتزوجوا بقوا يسكنون في الطابق الذي سكنوه وأبوهم قبل وفاته وقبل زواجهم، ولهذا تراهم الآن يقتتلون ويصطرعون الآن حول توزيع غرف الطابق الذي يسكنونه وزوجاتهم وازواجهن ، بدلا من ان يتوزعوا على تلك الطوابق المتعددة التي لا تزال شاغرة وتنتظر من يسكنها • هذه هي حال الامة العربية اليوم ، فهي تتقاتل على توزيع القليل القليل من الاراضي المنزرعة والمستصلحة وتتعامى عن الكثير الكثير من الاراضي القابلة للاستصلاح والتي تناشدهم استصلاحها ، ولكن اشتراكيينا العرب وثوريهم يضربون اليوم عرض الحائط بجميع هذه البديهيات التي تطالعنا جهارا نهارا ، ويريدون لا بل انهم عازمون ، اما جهالة واما حبا بالتخريب ، على اخضاع جميع ظروفنا وامكاناتنا الاقتصادية لنظرياتهم المستوردة بدلا من استنباط نظريات ومناهج من هذه الظروف والامكانات الاقتصادية الظاهرة منها والدفينة•

وهناك عامل جد هام بالاضافة الى الحافز الشخصي ، وذلك بالنسبة لتطوير بلادنا العربية واستغلال ثرواتها الى أبعد حد ممكن •

واعني بهذا العامل رأس المال والخبرة الاجنبيين ، فنحن بمسيس الحاجة اليهما ، واستخدام هذين العنصرين يساعدنا على اللحاق بركب الشعوب المتقدمة . ولكن ما العمل واشتراكيونا وثوريونا الذين امسوا اليوم لعبة بأيدي الدول الكبرى ، وأرادوا لا بل عزموا على ضمنا كليا الى المعسكر الشرقي وحاولوا بكل وسيلة ان يجعلوا الدول العربية ملتزمة بالعون الشرقي او الشيوعي ، ومعظم هذه البلدان ليست بأحسن منا حالا ولا بأفضل من بلادنا احوالا . زد على ذلك اننا بمسيس الحاجة الى رأس المال والخبرة الغربيين من أجل التوسع في انتاج البترول وتسويقه ، فالعالم الغربي لا يتعاون معنا فقط على انتاج بترولنا بل أنه، وهذا الاهم ، هو السوق الرئيسية لابل والوحيدة لبترولنا . نعم انني اعرف بأنه من المتوجب ان تجري بعض التعديلات على الاتفاقات البترولية الراهنة ، لكن هذه التعديلات يجب ان تجري وتتم بروح الشراكة الامينة ، فالعالم الغربي ليس فقط شريكنا في الربح، بل انه ايضا الزبون الذي يشتري بترولنا ايضا ، وهذه حقيقة كثيرا ما تسهو عن بال ابناء الجيل الجديد .

ولكن الاشتراكيين الثوريين العرب وقد اعمتهم نظرية الصراع الطبقي عن رؤية جميع هذه البديهيات يريدون ان يشقوا للحياة مجرى جديدا ، كأن الحياة بحاجة الى من يشق لها مجرى ، فالحياة والحياة وحدها هي التي تشق مجراها ، وقد شقت مجراها منذ ان عرف هذا الكوكب الانسان يدب فوقه . فلندع للانسان ان ينساب في تيارها ، أي أن ينساب في تياره هو بالذات ، أي ان ينطلق ، اذا جاز لنا القول على سجيته ، ولنتركه يتوافق وتوقه ، فتوقه هو البوصلة التي تعين له اتجاهه . ان من يعتمد الصراع الطبقي كمحرك لنشاطاته وموجه لفعالياته ، لا يتوخى البناء والانماء ، بل انما يتوخى السلطة والتسلط والانتقام والافتراس والهدم وتعطيل الفعاليات . فالصراع الطبقي هو

مظهر اساسي من مظاهر الصراع من أجل البقاء • وانا استطيع ان أفهم ان يكون الصراع من اجل البقاء دستورا للغاب وشرعة للحيوان ،ولكن لن أفهم ابدا ان يمسي هذا الصراع دستورا للمجتمع البشري وشرعة للانسـان •

ومن ثم ما هي القاعدة ، او النظرة الكونية التي تستند اليهـا الاشتراكية آخر المراحل الى الشيوعية ؟ انها كما يعلنون ويجاهـرون المادية ، ولا غرو في ذلك ، فالاشتراكية والشيوعية معا ينبعان مـن الفلسفة الاوروبية ، وهذه فلسفة مادية مظهرا وجوهرا • وهذا يعنـي جهارا نهارا ان الالحاد ، أي انكار وجود الله ، هو ركن اساسي مـن اركان الاشتراكية والشيوعية معا • فالمادة والمادة فقط هي البناء الذي يقوم مقام الله ، وهي وحدها الخالقة الخلاقة ، وللمادة في نظرهم ذهن حي ومتحفز ايضا ، وهي التي خلقت الانسان وهي التي اعطته عقلا وضميرا ووجدانا ، نعم ان تلك الكتلة السديمية غير المتخلقة ، والتي لا تملك عقلا ولا ضميرا ولا وجدانا ولا حتى صورة او شكلا ، هي التي خلقت الانسان • ولنسمع اولا ما يقوله داروين :

« ان تفسير شئون الحياة بوجود خالق له ارادة في الخلق يكون بمثابة ادخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي محض» • ولننطلق الان الى عرض بعض اقوال انجلز الذي يقول في الصفحة ٤٤ من كتابه ضـد ديرينغ :

« ان الوحدة الحقيقيـة للعالم تنحصر في ماديته ، ولكن اذا سألنا واذن ما هو الفكر وما هو الشعور ومن اين ينبعثان يتضح لنا انهما من نتاج الدماغ البشري ، وان الانسان نفسه هو من نتاج الطبيعة • »

ومن ثم يقـول انجلز في كتابـه الشهـير ديالكتيـك الطبيعـة ما يلـي :

« ان اولى خصائص المادة واهمها هي الحركة لامن ناحية كونهـا

حركة آلية ورياضية فحسب ، بل من حيث انها ذهن حي متحفز ، او من حيث ما يسودها من قلق على حد تعبير « يعقوب بوهم » .

ويقول انجلز في الكتاب ذاته ايضا :

«انما تتحرك المادة في مدار خالد ، ولا ريب انها دورة لا تكتمل الا في مدد ليست سنتنا الارضية وحدة قياس كافية بالنسبة لها ، انها دورة تتبدى فيها ساعة النمو الاعلى ، ساعة التعضون ، وكذلك الساعة التي تحيا فيها كائنات تعي ذاتها وتعي الطبيعة ، ان هذه الساعة تقاس بمثل تلك الدقة الصارمة التي يقاس بها المكان الذي توجد فيه الحياة ووعي الذات وهي دورة كل نمط متناه من انماط وجود المادة سواء أكان وجودا شمسيا او سديميا ، وسواء كان حيوانا مفردا او نوعا من الحيوان ، وهذه الانماط جميعا عابرة عارضة ، حيث انه لا يوجد هناك من أي شيء خالد ما عدا المادة ، حيث تكون هذه في تغير خالد وفي حركة خالدة ، وذلك وفقا للقوانين التي تحكم حركتها وتغيرها . »

ومن ثم يستطرد انجلز قائلا وفي الكتاب ذاته :

« ولكن أيا كان التواتر والكثرة ، واية كانت الدقة الصارمة المطلقة الصرامة التي تتم بها هذه الدورة في الزمان والمكان ، ومهما كان عدد الملايين من الشموس والارضين التي تولد وتفنى ، ومهما بلغ الزمن اللازم لكي تستقر الحياة العضوية في نظام شمسي ما ، حتى ولو انحصر هذا الامر في سطح كوكب واحد ، ومهما كانت الكائنات العضوية ، التي كان عليها في البدء الظهور والفناء قبل ان تخرج من داخلها حيوانات ذات دماغ وقادرة على التفكير ، وقبل ان تجد هذه في مدة قصيرة من الزمن الشروط الخاصة بحياتها ، ثم تباد بعدئذ دون رحمة ، ازاء كل هذا نحن موقنون كل اليقين با نالمادة في كل تحولاتها تبقى هي اياها بقاء خالدا ، وان ليس ثمة أية صفة من صفاتها يمكن ان تفقد ، وانها بالتالي اذا كان عليها يوما في الارض ،

وبضرورة حتمية لا مرد لها ، ان تبيد وتسحق ازدهارها الاعلى المتجلي في الدماغ المفكر ، فيجب بالضرورة والحتمية ذاتيهما ان تعيد انتاج الدماغ المفكر في أي مكان آخر وفي أي زمان •»

ولنسمع ايضا ما يقوله لودفيغ فيورباخ ، وهذا أحد الأئمة الذين يكن لهم الشيوعيون كل احترام وتقدير :

« ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا ، والذي ننتمي اليه نحن بذواتنا ، هو الواقع الوحيد ، اما ادراكنا وفكرنا فمهما ومهما ظهرا رفيعين ساميين ، ليسا سوى نتاج مادي جسدي هو الدماغ ••• ان المادة ليست من نتاج العقل ، بل ان العقل بالذات ليس سوى نتاج المادة الاعلى • »

والأن فلنتأمل مليا في فلسفة نشوء الكون هذه ، ألا نرى ان هذه الفلسفة تؤدي حتما الى التشاؤمية ومن ثم الى العبثية وأخيرا الى العدمية • وألا نرى ان كل شيء وفقا لهذه الفلسفة ، مكتوب عليه الفناء ، ومكتوب على وجوده وفنائه العبثية ، فهو يأتي ويذهب ، يوجد ويبيد ، لانه يجب ان يوجد ويجب ان يبيد ، أن هذا الامر لجبرية عابثة مجنونة ، اذ انه لا يوجد هناك من أي غرض او أي سبب يستوجب وجوده ، فوجوده وزواله ، او بالاحرى فناؤه ، أمران يوجدان من أجل مجرد الوجود ومجرد الفناء ، وليس لهما أي قصد او غرض • فأنا مثلا أتناول الطعام كي أجوع فيما بعد ، وأجوع كي أتناول الطعام ، وليس هناك من أي سبب غير ذلك يستدعيني لالتهام الطعام ، ولكنني اعرف بالرغم من ذلك ان لتناولي الطعام غرضا ألا وهو تغذية جسدي ، وأعرف بأن جوعي هو نداء هذه التغذية ، وان التغذية هي قصده • وألا نرى ان هذه الفلسفة تؤدي بصورة حتمية الى اليأس واليأس المطلق ، ألا فلنسمع انين هذا اليأس يتردد تفجعا من عبثية الحياة على

شفاه الوجوديين آخر ثمار الفلسفة الاوربية المادية . ولنستمع الى ما يقوله سارتر :

« حكم على الناس باليأس ، لأنهم يكتشفون ان جميع النشاطات الانسانية متساوية متماثلة ... وانها كلها مقدر عليها الاخفاق مبدئيا ، وهكذا فالامر سيان في نظر الانسان، أتعاطى الكؤوس في عزلته او قاد الشعوب . »

ولنسمع ما يقوله خرشتوف :

« اذا كنت حقا تريد الخلاص ، فعليك ان تقتل العقل والشرع ، ذلك لان الانسان لا يسعه ان يعيش معهما . »

وهاكم ما يقوله البير كامو :

« ليست هناك الا قضية فلسفية واحدة تتمتع حقا بصفة الجد ، وهذه القضية هي الانتحار » .

والان لنعد الى الوراء قليلا ، ولنعد الى لوكريتوس،ذاك الروماني معاصر قيصر وبومباي ، والذي آمن بهذه الفلسفة المادية ، وانتهى الى الانتحار، ولنقتبس بعضا من ملحمته المعروفة باسم «في طبيعة الاشياء»

ليس هناك من شيء يمكث ويبقى ، فجميع الاشياء تنساب جارية[1] والشظية تلتصق بالشظية ، وهكذا تنمو الاشياء .

والى ان نعرفها ونسميها ، تذوب بدرجات ، وتمسي الاشياء التي لم نعد نعرفها .

وأرى الشموس

تتشكل بكرات من ذرات تتساقط ببطء او سرعة ، وأرى الانظمة ترفع بأشكالها ، وحتى انظمة شموسها ستعود رويدا رويدا الى المذرى الخالد .

وأنت ايضا ايتها الارض ـ بامبراطورياتك وأراضيك وبحارك ،
انت مع نجومك الاصغر من جميع المجرات ،
لقد تكونت كرة من المذرى كهذه ،
وكهذه ايضا ستذهبين .
لا شيء يمكث ويبقى ، فبحارك بضباب رهيف ، تنضب وتجف ،
وهذه الرمال القمرية تهجر مكانها ،
انك لذاهبة ، ساعة بساعة ، كهذه المجرات .
وحيث تكون ستقوم بحار اخرى ،
لتحصد بدورها بمناجل البياض ،
خلجان اخرى .

ليس بعد ما اوردته آنفا من شك في قولي بأن الفلسفة المادية تؤدي بصورة حتمية الى التشاؤمية والعبثية والعدمية ، فهل نريد نحن معشر العرب ان نغلق منافذ الامل في وجه امتنا ووجه الانسانية ، اننا اذا تابعنا سيرنا على هذا النهج ، فسننتهي حتما الى هذه النتيجة ، وسنشرع الابواب لليأس ، وسنسحق الامل ، وليت شعري ، كيف تخول لنا نفوسنا القيام بمثل هذا الامر ، ونحن ندعي اننا في مرحلة بعث وانبعاث ، ومثل هذه المرحلة تستوجب اول ما تستوجب احياء الامل واشاعته لا خنقه وسحقه .

ان المادية منذ فجر التاريخ الاول تسعى جاهدة لقتل الايمان بالله وخنقه في قلب الانسان . لكن الانسان كما نعلم جميعا لا يستطيع ابدا ان يعيش بدون ايمان ، فبامكانه ان يعيش بدون معرفة وبدون علم وحتى بدون حضارة ، لكنه لا يستطيع ابدا ان يعيش بدون ايمان .

---

(١) اقتبسنا هذه من كتاب « قصة الفلسفة » لول ديورانت ، والذي قمنا بنقله الى اللغة العربية وقد صدر عن دار المكتبة الاهلية في بيروت .

اذ ان الساعة التي يفقد فيها الايمان يغدو انسانا ضائعا يائسا عابسا متشائما ، وجميع هذه الصفات لاتبني ، اذ انها هي بالذات معاول الهدم. فلنستعد ايماننا بالله ، ولنستعد ايماننا بأن هناك تصميما وعناية الهية ، وبأن لحياتنا قصدا وغرضا . وبأن وجودنا في هذه الحياة ليس عبثا وفعل عبثية. ان العالم يعاني اليوم ازمة ايمان ، وهذه هي السبب كل السبب في ما نشهده من تدهور وانحطاط وانحلال في الاخلاق والذمم. ان العلم يسوق الانسان اليوم الى بربرية لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلا ، فنحن كما يقول اوسكار وايلد ، نعرف سعر كل شيء ، ولكننا لانعرف قيمة اي شيء ، وذلك لاننا نعرف من الحياة سعرها ، ولكننا نجهل جهلا مطبقا قيمتها . ولا غرو في ذلك فالاشتراكية او بالاحرى الفلسفة المادية الاوربية تسعر ولا تقيم ، فالسلعة تسعر ولا تقيم ، وكذلك المادة ، والانسان بكل ما له وما فيه هو نتاج المادة في نظرهم ، وهذا ما دللنا عليه آنفا . فالانسان في نظرهم لا يسعى وراء الحق ولا ينشده بل انما يسعى وراء افضل وسائل العيش وأساليبه. فالقيم كما يعتقدون لا تنبع الا من المعدة ومن اشباع الحواس ، ولنسمع ما يقوله انجلز في ذلك :

« يتوجب علينا ان لا نبحث عن اسباب التغيرات والتحولات الاساسية في عقول الناس او في سعيهم وراء الحق والعدل الازليين ، وانما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الانتاج والتبادل ، اذن فعلينا ألا نبحث عن هذه الاسباب في الفلسفة بل في اقتصاديات العصر الذي نعنيه . »

اذن فكل بحثنا يجب ، على حد قولهم ، ان يتركز على كيف نعيش، ولكن لماذا أعيش ؟ لماذا يتوجب علي ان اولد وأعيش ؟ هل فقط من أجل مجرد الموت ؟ وأليس لعيشي ، لحياتي ، في نظرهم قصد او غرض؟ ان هذا القلم الذي أكتب به الآن ، قد صنعته ، قد اوجدته قد خلقته ،

فهل خلقته كي املأه ومن ثم أحطمه ، أم ان له رسالة ، ان له قصدا هو ان ينقل فكري اليك • تبا لحياة لا تخلق الشيء الا لتحطمه ، تبـــا لمادة لا تبدع الشيء الا لتبيده ، ومن ثم لتعود فتبدعه كي تبيـــده !!! أي مجون مجنون هذا ؟! وأية دعابة سمجة صبيانية تكون ؟!!

اذن فعلينا ان نبحث عن منبع آخر لعدلنا الاجتماعي عن منبـــع لا ينتهي بنا أخيرا الى التشاؤمية والعبثية والعدمية ، بـــل الى التفاؤل والجدية والابداع • ان هذا المنبع لن نجده أبدا في الفلسفة الاوربيـــة المادية بكل مذاهبها ، بل انما نجده في الدين وفي الدين الاسلامي من الوجهة الاجتماعية وفي المسيحية من الوجهة الاخلاقيـــة ، وذلك لان الدينين الاسلامي والمسيحي يلتقيان في تكريس الانسانية في الانسان، ويلتقيان في نظرتهما الى الكون ، ويشكلان معا سلسلة تشد الانسان الى الله ، اذ ان كليهما يؤكدان الايمان بالله ، ويقدمان البديـل خـير بديل للفلسفة الاوربية المادية الملحدة • وليس هناك من فارق بينهمـا سوى في الطقوس اذ ان كليهما يؤمنان بقواعد الـدين الاساسية وهي والاخرويات من بعث وخلود وغيرهما •

لقد مضى على بعض البلدان العربية ما يقارب السنوات العشر وهي تضرب على ما يسمى بالطريق الاشتراكي ، فالى اين انتهى هذا البعض من عالمنا العربي • انني سأترك الجواب عن هذا السوآل للدكتور عبد الرحمن البزاز ، رئيس وزراء العراق ، وأنا اكتب هذا الكتاب • لقـد قال البزاز بالحرف الواحد :

« ان هذه الاشتراكية لم تغير الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد ، بقدر ما تحسنت به احوال طبقة معينة من الموظفـين والمنتفعين على حساب الآخرين • »

ان حقيقة الحال كما تبدو لي هي ان الاشتراكيين الثوريين العـرب

يبدأون بالمطالبة بحل مشاكل المجتمع ولكنهم ينتهون الى حل مشاكلهم الشخصية على حساب الامة والمجتمع •

ان العالم بأسره يتخبط اليوم في نوع من قلق وجـداني وحيرة ضميرية عنيفة ، ونحن نشهد بأم أعيننا هذا التخبط ، ولكن مع ذلك ترى هؤلاء الذين يسمون انفسهم بالاشتراكيين الثوريين يريدون لا بـل يصرون على سوقنا الى هذا التخبط بالسوط وبالبندقية وبالمدفع • ان هؤلاء الاشتراكيين الثوريين قد هدموا في بعض البلدان العربية جميع تقاليدنا وداسوا على جميع قيمنا واستهتروا بجميع مقدساتنـا ، حتى بمقدساتنا الدينية ، ولم يستطيعوا ان يقدموا أي بديـل لتلك القيم والمقدسات ، لذلك ترى المجتمع الذي يحكمونه يعيش في دوامة مـن فراغ مطلق وذهول ووجوم •

ان للدين الاسلامي جوهرا هو الرحمة ، وللدين المسيحي جوهر هو المحبة ، ولا توجد هناك من عقبة يمكن ان تقف في طريـق هذين الجوهرين اذا اخلصت النوايا وانعقدت العزائم على تكريس الانسانية في الانسان • ان هذين الدينين السماويين يجمعان على ان الله قد خلق الانسان على صورته ، ولذلك يتوجب على القائمين على شؤون الدين ان يكونوا اول من يتمرد ويثور على كل من يحاول ، من بعيد اوقريب، امتهان هذه الصورة السماوية المتجسدة في الانسان • اننـا نسمع بانعقاد الكثير من المؤتمرات الاسلامية والمسيحية ، ولكن من المؤسف ان نرى ان معظم ما يدور في هذه المؤتمرات يتمثل في مناظرات فقهية واتجاهات سلبية تتغاضى عـن القضايـا الزمنيـة والمعضـلات الدنيوية • لقد انزل الله الدين على الارض ، لا لكي يكون فقـط تأشيرة دخول الى الجنة ، بل ليمسي ايضا قواعد للسلوك البشري على الارض ، والدين لا يعيش لغده فقط ، بـل يجب ان يعيش ويتعامـل وشؤون يومه ايضا •

فالدين الذي يسع وينظم وينتظم جميع شؤون الآخرة وشجونها يجب ان يسع وينظم وينتظم شؤون الدنيا وشجونها ، وان هذه لضئيلة وجد تافهة اذا ما قورنت بتلك .

لقد عرفت البشرية مختلف المذاهب الفلسفية وعرفت دينين فقط، هما الاسلام والمسيحية ، ولقد بقي هذان الدينان ثابتين راسخين بالرغم من انهما كانا في مختلف العصور عرضة لا شد الهجمات بربرية ووحشية . والسبب في ذلك يعود أولا وأخيرا الى أصالة هذين الدينين في سماويتهما . وان بقاءهما السرمدي هذا لدليل ما بعده من دليل على ان الايمان بالله يتغلغل عميقا عميقا في نفس الانسان ، لا بل انه الدليل على ان الله بالذات هو القطب الجاذب الاوحد لكل ما في الانسان من حنين وتوق واشتياق. لقد اثبت التاريخ بما لا يقبل الجدل، انه عندما يذوي سلطان الدين ، فعندئذ تسود البشرية بربرية مغرقة في احط انواع الهمجية . فالمدنية بلا دين هي همجية ضارية سافرة . فمتى عرف العرب السحل والتمثيل في الجثث وانتهاك الاعراض وكل انواع الاثم ، ألا عندما سيطر الملحدون وسيطر الالحاد ، وخارت العزائم وجبنت عن الدفاع عن مقدساتها . ان الدين هو عطاء من السماء ، والدين لا يتجسد الانسان الا اذا أمسى سلوكه عطاء من ذاته قبل جيبه لأخيه الانسان . وهذا هو الفارق كل الفارق بين المادية وبين الدين ، فالمادية تتوخى طريق الارغام ، أما الدين فيتوجه الى النخوة والشهامة في الانسان . ان كل ما يفيد الانسان على وجه هذه الفانية ، ويساعد على تعزيز كرامة الانسان لينسجم كل الانسجام وجوهر الدين وروحه . فالدين لا يفسر ابدا على ضوء الكلمة بل ان كل كلمة في الدين هي رمز ، وهي ترمز الى خير الانسان والى تمتين صلة التعاطف بين الانسان وأخيه الانسان ، فالدين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

والان ما هي معالم طريقنا ؟ انها كما ارى ما يلي :

ا ـ تشجيع الحافز الفردي وتنشيطه .

ب ـ الأخذ بمبدأ الاقتصاد الموجه ، الذي لا يرغم الفرد ارغاما ، بل انما يخلق للفرد من الفرص ما يجعله يقدم بحماسة لا بل بوجد على السير وفقا للمخطط العام من حيث يدري أو لا يدري .

ج ـ القضاء على التشتت الاقتصادي .

د ـ تنسيق المشروعات الانمائية بين البلاد العربية تنسيقا من شأنه ايجاداقتصاد عربي متكامل ، بحيث يجعل كل قطر عربي معتمدا على القطر العربي الآخر في بعض ضرورياته .

هـ ـ ايجاد سوق عربية مشتركة .

و ـ اعادة توزيع السكان في البلاد العربية واعتماد سياسة التهجير بغية اقامة توازن ديموغرافي .

ز ـ تعديل انظمة الضرائب والعمل بمبدأ الضريبة التصاعدية ، شريطة ان لا تحد هذه الضريبة من طاقة رأس المال المنتج .

ح ـ تعاون الجيوش العربية في مختلف الميادين ، وابعاد العسكريين ابعادا كليا عن السياسة ، وارغامهم على الانصراف الى واجباتهم الاساسية ، اذ ان انغماس العسكريين في السياسة هو العقبة الوحيدة التي تحول دون تعاون الجيوش العربية ، وبالتالي تستنزف الكثير من موازنات الشعوب العربية ، هذا الكثير الذي يمكن لنا ان نوفره لنوظفه في مشروعات انمائية اخرى .

والان لننتقل الى معالجة النقطة الخامسة :

قلت في مطلع بحثي في الثورة الناصرية بان كل ما يصلح للتطبيق

في مصر وعلى مصر لا يصلح ابدا للتطبيق على أي بلد عربي آخر . فالريف المصري هو كما يعرف جميعنا هو اكثف منطقة في العالم سكانا ، وهو أشد كثافة حتى من بلجيكا ، فعلى الكيلومتر المربع الواحد من الريف المصري يعيش عدد يتجاوز الالف والثلاثماية نسمة من السكان ، بينما يعيش مثلا في سوريا ، وفي محافظة الجزيرة على وجه التحديد ثمانية اشخاص فقط على الكيلومتر المربع الواحد . زد على ذلك ان عمليات استصلاح الاراضي في مصر هي عمليات باهظة التكاليف اي انها ليست بتجارية ، (مديرية التحرير) . فتكاليف استصلاح الفدان الواحد (٤،٢ دونم) تتجاوز حسب التقدير الاولي المئة والخمسين جنيها استرلينيا . وهذا ما جعل شوبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفياتي الاسبق ينصح المصريين بالاتجاه الى الصناعات المتوسطة بدلا من بناء السد العالي . أضف الى ذلك ان مصر لم تعرف ولا تستطيع ابدا الزراعة الواسعة ، او ما يعرف بالزراعة الرأسمالية ، وذلك نظرا للتناسب القائم بين السكان والاراضي المنزرعة، بينما ، على وجه المثال ، ان الاقتصاد الزراعي السوري يكاد يعتمد بأكمله على الزراعة الواسعة ، وخير دليل على ما أقول هي محافظات الشمال والشمال الشرقي من سوريا . فاذا اضفنا الى كل هذه المصاعب التي تحف بالتصنيع ، هذه المصاعب التي تتبدى في افتقار مصر الى مقومات الصناعة الرئيسية ، ألا وهي مواد الخام الضرورية والطاقة الرخيصة ، ومن ثم العمال المهرة ، وأضفنا الى هذا ايضا تزايد السكان المخيف في مصر ، لوجدنا ان مصر لا تستطيع ولن تستطيع ابدا ان تحل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية داخل اطارها الجغرافي ، بل يتوجب على العرب باجمعهم ، وعلى الامة العربية في جميع اقطارها ان تتعاون ومصر على حل تلك المشاكل ، ومن حسن الحظ ، لا بل انها لنعمة من السماء، ان تكون جميع البلدان العربية، في اشد حاجة الى الطاقة العربية المصرية،

فالمصريون وخاصة سكان الريف هم عرب أقحاح وعرب اصليون في عروبتهم كل الاصالة البدوية العربية . ومن نعم السماء وبركاتها ان تكون هذه الطاقة البشرية العربية هي العنصر الاساسي في ايجاد نظام اقتصادي متكامل عضويا وقوميا . وذلك لان جميع البلدان العربية تشكو من نقص مخيف في السكان ، بينما ان مصر تشكو من زيادة مخيفة في السكان . اذن فليس أمامنا من حل للمشكلة العربية في مصر سوى تهجير ثلثي سكانها على الاقل او توزيعهم توزيعا امتصاصيا على بقية البلدان العربية الاخرى ، هذه البلدان التي هي اليوم بأمس الحاجة اليهم .

ان الشعب المصري هو جزء عربي أصيل في عروبته ، وان مشكلة مصر الراهنة هي مشكلة بالنسبة لمصر ، لكنها الحل كل الحل ، لابل الحل الاساسي لمشاكلنا نحن في العالم العربي . علما بانني لا أتفق ولا أوافق الرئيس عبدالناصر على كل نهجه الذي نهجه منذ عام ١٩٥٨ حتى هذا التاريخ في تحقيق الوحدة العربية . فالوحدة ، او بالاحرى الاخوة لا تفرض فرضا ، وذلك لانها تكون قائمة وموجودة وليست بحاجة الى قوة او ارغام ، فهي قدر الهي محتوم ، فانا لا أستطيع ان أفرض بنوتي على ابي ولا اخوتي على اخي ، وذلك لانها قائمتان فعلا وواقعا . لذلك فان الاخطاء التكتيكية هي التي هدمت كليا الستراتيجية الناصرية للوحدة العربية . ولذلك أخذت الآن الشعوبية تسرح وتمرح في بعض ارجاء الوطن العربي . ولهذا السبب اذا لم يبدل عبد الناصر تبديلا كليا تكتيكه ، ويتخلى جذريا عن جميع المناهج التي طبقها وسار وفقها في البلاد العربية ، فان مصر وعددا كبيرا من البلدان العربية سيبقيان فريسة للقلق والفوضى . فالتكتيك الناصري ، يرمي الى تحقيق الوحدة دون ان يحدد اولا معالمها ودون ان يرسم شكلها ، لذلك بقي مفهوم الوحدة

الناصري مفهوما غائما ضبابيا ، وكونه كذلك فتح جميع الثغرات أمام الشعوبيين ليصولوا ويجولوا تحت شعار الوحدة في بعض اجزاء العالم العربي الحبيب . لذلك يتوجب علينا ان نضع منذ الآن دستورا للولايات العربية المتحدة ، دستورا يعتمد الاتحاد لا الوحدة ، المبدأ الاساسي له . وان افضل مساند لنا ومساعد ومرشد هو دستور الولايات المتحدة ، الذي يحفظ وحفظ التوازن بين السلطة التشريعية والتنفيذية في جميع الولايات . ان العالم يتجه بأكمله نحو اللامركزية في الحكم ، وأظن ان هناك كبير فارق بين اللامركزية والاستقلال الناجز الكامل .

ويجب على هذا الدستور ان يعتمد ثانيا الديمقراطية في جميع البلاد العربية ، والتطورية لا الثورية المجنونة ، وان ينأى وفي جميع الحالات عن الديكتاتورية سواء كانت ديكتاتورية فرد او حزب او طغمة .

ان الاتحاد هو خير ، والتفرق هو شر ، ويكفي للمرء ان يعرف بان الخير هو خير كي يقدم عليه من نفسه ، وكي لا تكون انت في حاجة الى ارغامه عليه .

عندما قامت الوحدة بين سوريا ومصر ، قلت للاستاذ يوسف السباعي وكان يشغل آنذاك منصب الامين العام لجمعية الادباء ، فلنجعل من جمهوريتنا الانموذج لكل جمال ، كي تسارع الشعوب العربية الاخرى الى هدم جميع الحدود بيننا وبينهم ، ولكن ويا للاسف ، لقد جعل المسؤولون وخاصة في الاقليم السوري جمهوريتنا الانموذج لكل دمامة وبشاعة وقبح . فمتى كان العربي يخون ويغدر ويغتال ويذيب الاجساد في الحوامض الكيميائية وينتهك الاعراض ويمثل في الجثث ويقلع الاظافر ويجلد بالسياط الاجساد العارية المغمورة

في الماء البارد وفي حفر القذورات ، ويشويها بالكهرباء والسجاير والسيجار ؟!

نعم يتوجب علينا أن ننهج اليوم نهجا جديدا كل الجدة في تحقيق الاتحاد ، وهذا النهج يجب ان يرتكز على الدين الاسلامي ، لا على الاشتراكية المادية ولا على الشيوعية ولا على الشعوبية ، بل على العدل الاجتماعي والتآخي المجتمعي والانسانية بمالها من معان سامية وكريمة. ان جسد العالم العربي اليوم ينزف دمه شديد نزيف ، وان المعاول تعمل فيه تقويضا وهدما ، ومن المفجع ان يكون السبب كل سبب جميع هذه الكوارث هم فئة ممن يسمون انفسهم بالعرب ، نعم انهم من ابناء أمتنا المنكوبة بهم ، وليس السبب ابدا الاستعمار . انهم والحق لاسوأ من الاستعمار ولاشد منه وطأة واغلظ قلبا وكبدا .

فالاستعمار لم يمثل في الجثث ولم يسحل الناس ، ولم يذب الاجساد في الحوامض الكيميائية ، ولم يقتل بشرا تحت سياط التعذيب ولسعات الكهرباء ولم ينفخ البطون ، لقد كان للاستعمار بعض تقاليد جنبته هذه المزالق ، أما هؤلاء الذين لا يخجلون من تسمية انفسهم بالمواطنين وبالعرب ، فهم بعد ان كفروا بتقاليد أمتنا وأنكروا تراثها واستهانوا بدينها ، أمسوا بلا ذمة وبلا عهد وبلا شرف وبلا عقل وبلا وجدان وبلا ضمير . وأمسوا لا يرون في الحق وفي كل رأي يطلب وجه الحق سوى عقبة في طريقهم ، عقبة يجب ان تسحق ، ويطالبون جهارا نهارا بالسحق حتى العظم . لقد ذوى في وجوههم كل ملمح انساني ومات في باطنهم كل خلجة من محبة وتعاطف وعطف . انهم مسعورون بالسلطة والتسلط ومفتونون بالحكم والتحكم ، بئس سلطتكم وبئس حكمكم ايها المأفونون !

فيا ايها الاشتراكيون الثوريون تعقلوا واعقلوا ! فكفاكم جنونا

وكفاكم هدما فاننا مرهقون حتى الاعياء ان لم يكن حتى الموت. والآن ارغب في التوجه الى العسكريين العرب ممن تعاطوا ويتعاطون السياسة، بهذا النداء :

لقد فشلتم ايها العسكريون في كل عمل اتيتموه وفي كل أمر قمتم بـه ، ولقد انزلتم بالوطن العربي من الكوارث والمصائب ما يشابه ما انزلته جيوش الشعوبية بالعرب في أواخر العصر العباسي الثالث . لقد خنقتم كل نماء ، رردمتم كل منبع من منابع الفكر الخلاق ، ودستم على كل قيمة وانتهكتم كل مثل . انكم تعاملونا اليوم كأننا شعب مقهور مغلوب وكأن كل ذلك يبيح لكم حق الفتح . ويا ليتكم وقفتم عندهذا الحد ! فحتى جيوشنا التي نقاسمها الرغيف قد قوضتم كل اركانها ، فالالاف من الضباط الذين انفقت عليهم الامة ملايين الملايين يذرعون الشوارع ويغشون الملاهي مسرحين مطرودين ، ولماذا ، لان البعض منهم قد وقف او يشك في ان يقف في وجه فئة منكم مفتونة بالحكم والسلطان . ان لكل شعب جيشا ، ولكن على ما يبدو لي ان لجيوشنا شعوبا . اننا نقتطع الضروريات عن افواهنا وافواه اولادنا كي نعدكم ليوم الحسم ، ليوم الواقعة ، ولكنكم ومنكم من يقوم مدفوعا بافتتانه بالسلطان فيدمر خمس طائرات وهي جاثمة على الارض ، كي يمنع منافسيه من استعمالها . وهذه الطائرات التي دمرها لم تكن اسرائيلية ولم تكن طائرات عدوة ، بل كانت طائرات عربية اشتراها لكم الشعب العربي بعد اليم حرمان وعضوض فاقة . اتقولون بانكم ستقضون على اسرائيل ؟ ! كيف تريدون لامتنا العربية ان تصدق قولكم وهي تراكم تحطمون الاسلحةالتي تشتريها لكم، بايديكم وانتمتتقاتلون على التحكم والاستبداد بها ؟ اتقولون بأنكم ستسحقون اسرائيل ؟ ! كيف تريدون لاي عاقل ان يصدق هذا الامر وهو يرى الالاف من الضباط المسرحين،

ويرى ان جهود الامة قد هدرت عبثا على اعدادهم ؟ ! اتقولون بانكم ستقضون على اسرائيل ؟ ! كيف تريدون لاي عربي ان يصدق هذا القول وهو يراكم ترفعون ببلاغ واحد ، ضابطا من رتبة رئيس الى رتبة لواء ؟! انتم تقولون بانكم ستلقون باليهود الى البحر ؟! كيف تريدون لاي انسان ان يصدق هذا القول وهو يراكم تقذفون بمواطنيكم الى المقابر والسجون والمنافي ؟ ! ان كل امة تنشيء جيشا ليحميها ، لا ليحكمها . ونحن قد اوجدناكم لحماية الحدود لا للتحكم بالوطن وبالمواطنين . ماذا ستقولون اذا ذهبت وانا المدني ، وقد أمست كلمة مدني محتقرة على شفاهكم وفي نظركم ، الى احدى الثكنات ، وقلت للضابط المدرب ، بانني سأدرب جنوده بدلا منه ؟! لا شك انكم ستضحكون ساخرين من عملي هذا ، وقائلين متى كان المدني يعرف بالتدريب العسكري والشؤون العسكرية ؟! ولكن اود انا بدوري ان اسألكم متى كان العسكري يعرف بالسياسة وشؤون الحكم . انتم سواعد الوطن ولكنكم لستم عقوله ، غير انني ارى السواعد في العالم العربي تريد ان تفرض نفسها عقلا على العقل ؟؟ ان التاريخ ، وراجعوا جميع صفحاته ، يثبت بما لا يقبل الجدل ، ان المرحلة التي يتدخل فيها العسكريون في السياسة هي مرحلة انحطاط ومرحلة انحلال ، لا مرحلة انبعاث ونشوء وازدهار . وتاريخ روما ، واباطرتها العسكر خير دليل على ما اقول . ومتى وفي أي عصر انهارت امبراطوريتنا العربية ؟ لقد انهارت في العصر العباسي الثالث ، عندما أخذ الجيش في كل يوم يخلع خليفة وينصب آخر . لا أريد أن أسترسل اكثر من ذلك ، بل أريد ان اتوجه الى ضمائركم واسألكم هل انتم حقا مرتاحون لما فعلتموه وتفعلونه . بالله عليكم بالله عليكم عودوا سريعا الى ثكناتكم ووفروا على الامة العربية مجهوداتها في اعادتكم الى معسكراتكم .

فثوبوا الى رشدكم ايها الشعوبيون قبل ان تداهمكم الساعة ،

وهي آتية لا ريب فيها .

انكم الان تركبون الاسد ؟ لكنني اقول لكم بان الاسد سينقلب عليكم قريبا وقريبا ، لقد خسىء من يذل الاسد ، فالاسد لا يذل .

دراسات في العقائد

تأليف : احمد الشيباني

الوقوف على العقائد المعاصرة هو الزاد الفكري الذي لا يستغني عنه اليوم طالب معرفة في شرق الارض وغربها ، لانه الوشيجة الحية التي تقرب بين الشعوب ، وتفتح قلوب الامم بعضها على بعض ، وتسدد خطاها في مسيرتها نحو الحرية والعدالة الاجتماعية .

وكم من عقيدة كان أحد البلدان مهدا لها ، واذا بها تشتد وتقوى جذورها في أرض أمة أخرى ، وتكون القوة المحركة لشعب خامل ، ووثبة الانبعاث لأمة شبه محتضرة .

وأقوى التيارات الفكرية المعاصرة هي الرأسمالية ، والاشتراكية، والشيوعية . وان عالمنا العربي اليوم مهب الاعصار لتلك التيارات تلتقي هنا وهناك وتتصادم على صعيد الفكر ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة . لذا كان لا بد لها من مفكر موضوعي ، وباحث مدقق ، يعرف كيف يبسط لنا جوانبها في نشأتها وتطورها ومصيرها .

والاستاذ المؤلف من خيرة كتاب العرب الذين تصدوا لدراسة العقائد بتجرد ونزاهة وعمق ، فكان هذا الكتاب النبراس الهادي لنا . ويزيد في قيمته ابراز دور تيار القومية العربية الذي يشق سبيله بين التيارات السياسية المعاصرة الذي لا بد من أن يتجسد واقعا اجتماعيا وسياسيا يشمل أقطار العروبة ويوحد كلمة العرب .

الثمن ٣٠٠ ق.ل

الفهرس

هـذا الكتاب

بعد كتابه القيم « دراسات في العقائد » يقدم الاستاذ أحمد الشيباني هذه الدراسة العميقة للقوميـــة العربية في نشوئها وتطورها، والأسس الفكرية التي تقوم عليها، والمبادىء الانسانية التي تنزع اليها .

ومن فصول هذا الكتاب : سيكولوجية الأمـــة العربية، الانبعاث العربي الأول، الشعوبية تهدم الاسلام وتستعبد العرب، العربي غريب في بلاده ، لماذا انهارت جامعة الشعوب العربية ، الثورة نظرياً وتطبيقاً، أزمة الوجدان وتحدي التاريخ، القومية العربية والايدلوجيات المعاصرة، القوميـة العربية والاقليمية ، القومية العربية بين القيصرية والديمقراطية ، مفهوم القوميـــة العربية ومفاهيم القوميات الأخرى، الطريق الى العدل الاجتماعي.

الثمن : ٤٠٠ ق.ل.